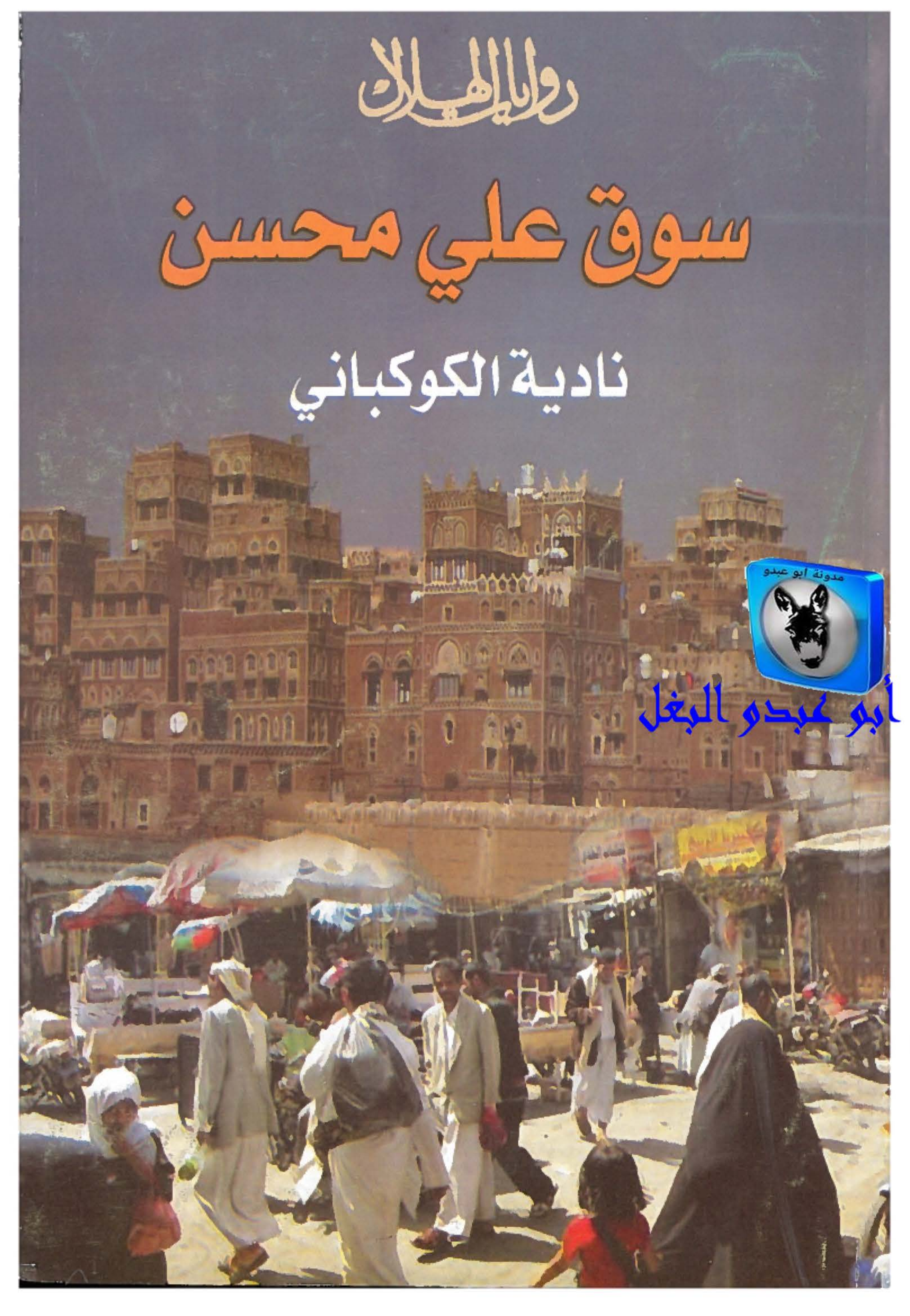

روايات الهلال
سوق علي محسن
نادية الكوكباني
مدونة ابو عبدو
أبو عبدو البغل

سلسلة شهرية لنشر القصص العربي والعالمي تصدر عن مؤسسة دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة
غالي محمد

رئيس التحرير
سعد القرش



مدير التحرير
هالة زكي

المستشار الفني
محمود الشيخ

نائب مدير التحرير
وجدان حامد

الإدارة
القاهرة: ١٦ شارع محمد
عز العرب بك (المبتديان سابقا)
ت: ٢٣٦٢٥٤٥٠ (٧خطوط).
المكاتبات: ص.ب: ٦١العتبة.
القاهرة ـ الرقم البريدي ١١٥١١
ـ تلغرافيا: المصور. القاهرة
ج.م.ع.
تلكس:
hilal u n ٩٢٧٠٣ Telex
فاكس: FAX: ٢٦٢٥٤٦٩

البريد الإلكتروني: helalmag@yahoo.com
بريد الاشتراكات: subscription__dep@yahoo.com

ثمن النسخة

سوريا ٤٠٠ ليرة –
لبنان ١٢٠٠٠ ليرة –
السعودية ٢٠ ريالا–
الأردن ٤ دينارات–
فلسطين ٤ دولارات–
العراق ٤٠٠٠ دينار–
البحرين ٢ دينار–
قطر ٢٠ ريالا –
الكويت ٢ دينار–
الإمارات ٢٠ درهماً –
سلطنة عمان ٢ ريال–
اليمن ٨٠٠ ريال –
الجزائر ٣٠٠ دينار–
تونس ٨ دينارات–
المغرب ٦٠ درهماً –
إيطاليا ٨ يورو–
سويسرا ١٠ فرنك–
المملكة المتحدة ٧ جك–
أمريكا ١٦ دولاراً.

تصميم الغلاف: محمود الشيخ

الاشتراكات

قيمة الإشتراك السنوى ١٢٠جم داخل جمهورية مصر العربية تسدد مقدماً نقداً أو بحوالة بريدية غير حكومية- البلاد العربية ٢٥ دولاراً – أوروبا وآسيا وأفريقيا ٣٥ دولاراً – أمريكا وكندا والهند٣٥ دولاراً – باقى دول العالم ٤٥ دولاراً.
القيمة تسدد مقدماً بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرسل لإدارة الاشتراكات بخطاب مسجل، كما يرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد .

الإصدار الأول/ يناير ١٩٤٩

طبع هذا العدد بأحبار باكين
باكين

الكتاب: سوق علي محسن

المؤلفة: نادية الكوكباني

التصنيف: رواية

الناشر: روايات الهلال - دار الهلال

التاريخ: نوفمبر ٢٠١٦

رقم الإيداع: ٢٢١٥٢/ ٢٠١٦

الترقيم الدولي: 9-1792-07-977-978

روايات الهلال

سوق علي محسن

نادية الكوكباني

إهـــداء

إلى من علا فسما:

الشهيد: نزار هائل ورفاقه

أحلام يونس الحوتي

الصيصان الملونة تتقافز أمام "يونس". يسأل نفسه كيف استطاعت الخروج من قفصها. لقد أحكم إغلاقه من شدة حرصه عليها. حركة يديه الصغيرتين لالتقاطها وإعادتها للقفص أفزعتها أكثر، فعلت صوصوتها وبدت له أشبه بالصراخ المستغيث والهارب من شيء ما، لا يدركه! وقف حائرا ومشدوها لا يعرف كيف يتصرف، ولا يستطيع أن يخمن إلى أين ستتجه صيصانه الملونة وأمامها جدار سيلتقف ارتطام أجسادها الصغيرة به بمنتهى القسوة.. الصيصان الصفراء كانت الأسرع؛ ربما لأن لون زغبها لم يعق حركتها، بينما زغب الصيصان الأخرى التي تم رشها بألوان خضراء وبرتقالية وحمراء لجذب عيون الصغار، كان معيقا لها.

حاول "يونس" الصراخ عل صوته يجعلها تُغير مسارها عائدة إليه، وفي ذات الوقت يقيها شر الارتطام بالجدار، فلم يستطع. حاول أن يخطو بقدميه ليسبق وصولها للجدار فاتحا لها باب القفص لتطمئن إليه، فلم تتزحزح من مكانها.. أصابه الذهول من حالته ومن حالة صيصانه! مَن تآمر عليه وعليها؟! من أخرجها من قفصها، ولماذا؟! وما يرعبها الآن لتتقافز مذعورة بلا هُدى؟!

ها هي تتساقط أمام عينيه صوصا تلو الآخر. ها هي تتكوم في ركن الجدار البارد بلا حركة، وها هي دموع "يونس" تتجمد في مآقيه من هول ما يرى، ومن هول عجز ما أصاب جسده وذهنه في ذات الوقت.. تهاوى مع صيصانه. ارتطم بالأرض كما ارتطمت هي بالجدار. فقد الحركة كليا كما فقدتها تماما، ما عدا عينيه اللتين تسمرتا على صيصانه وقد أصبحت كومة من الألوان الجميلة الباعثة للسعادة لكل من يراها، وغير

قادرة على أن تبهج ذاتها أو تمدها بالحياة التي فقدتها للتو. علا صوت يونس: "لا.. لا.. لا.. صيصاني! صيصاني!".

استمر يونس في الصراخ، حتى هرعت إليه أمه من المطبخ. كانت تجهز له الفطور ليلحق بعمله باكرا. هزت جسده الصغير محاولة إيقاظه وهي تردد: "خير، اللهم اجعله خيرا!". فتح "يونس" عينيه، وانتفض واقفا يبحث حوله عن صيصان رآها تموت في حلمه. ورويدا رويدا بدأ يدرك أن كل ذلك لم يكن سوى حلم. نظر إلى أمه مجددا وألقى بجسده المرتجف في حضنها. وما إن هدأ حتى بدأ يستعد للذهاب إلى عمله. لم تقل أمه شيئا سوى أنها رددت للمرة الثانية: "خير، اللهم اجعله خيرا!".

•••

١١ فبراير ٢٠١١
ارحل!..

بهذه الكلمة كان يعلو هتاف كوكبة من شباب جامعة صنعاء أمام بوابتها الشرقية منذ سقوط الرئيس بن علي في تونس والرئيس حسني مبارك في مصر. تطاردهم قوات الأمن في كل خروج لهم، تحاول إخماد ثورتهم قبل صعوبة السيطرة عليها. يفرّون إلى الأزقّة خوفا من الاعتقال، ومن العصيّ الصاعقة بالكهرباء التي يستخدمها رجال الأمن. تُفتَحُ لهم أبواب بعض المنازل للاختباء. تشعر قوات الأمن أنها أدت مهمتها بنجاح وتغادر بزهو. فيخرجون من مخابئهم ليعودوا أدراجهم أمام البوابة ذاتها، ليعلو هتافهم من جديد بحماس وبصوت عال: "ارحل. ارحل. ارحل"! و بعدها: "الشعب يريد إسقاط النظام".

•••

كانت الهتافات بالرحيل وإسقاط النظام هي العبارات المتداولة في الحديث بين معظم الباعة في "سوق علي محسن"، الجميع بلا استثناء يحكي وينظِّر ويُحلل ما يدور في بوابة جامعة صنعاء الشرقية، وكأنَّ المسافة بينهم وبينها أميال في حين أنها لا تتعدى الأربعة كيلومترات.

لم يكن "يونس الحوتي" قادرا على أن يربط خيوط كل تلك الأحاديث، ولم يكن قادرا أيضا على استيعاب ما يدور حوله، فقد أمضى جُلَّ سنواته الاثنتي عشرة في "سوق علي محسن"، لا يغادرها إلا مع أمه عند شراء ملابسه، أو عند ذهابه إلى مزرعة الدواجن. يعتمد عليه صاحب محل بيع دجاج في السوق منذ ثلاث سنوات لانتقاء الدجاج المعافى. أصبح لديه خبرة جيدة في الشراء، فصار يركن إليه في تنفيذ تلك المهمة.

كان "يونس" ينتظر يوم ذهابه إلى مزرعة الدواجن خارج العاصمة صنعاء بفارغ الصبر، يستمتع أثناءها برؤية الطرق والناس والسيارات، وكأنَّ "سوق علي محسن" الكبيرة ليست سوى قفص يُحبس فيه طيلة الأسبوع، ليرفرف بجناحيه في آخرها ويحلق في مزرعة الدواجن، وعلاوة على ذلك يحصل من المال على أربعة أضعاف ما يحصل عليه في الأيام العادية. يعود إلى أمه مبتهجا، يحدثها عن كل ما رآه في المزرعة الواسعة، عن بوابتها الضخمة، عن أصوات الدجاج التي أصبحت تُطربه في حظائرها المتعددة، يشرح لها باندهاش كيف يسير مجرى الأعلاف الآلي لإطعام الدجاج. يستخدم كلتا يديه ليوضح لها كيف يُفتح مكبس العلف وكيف يُغلق حال امتلاء المجرى. يستمر شارحا لها بانبهار، ماطًّا شفتيه بالحروف ليبدو صوته أكثر تعبيرا عن مسار البَيْض الذي لا تتكسر منه أي بيضة.. لا يمل تكرار ذلك في كل زيارة. ولا تجد أمه غير

المتعة والفرح وهي تسمعه كأنها المرة الأولى. باختصار: زيارة "يونس" لمزرعة الدواجن هي عالمه الذي لا يعرف سواه، و"سوق علي محسن" هي بيته الذي لا يعود إلا إليه.

تغمره نشوة النصر وهو يناول أمه الريالات الألف، حصيلة زيارته الأسبوعية للمزرعة وكأنها ثروة. إنه اليوم الوحيد الذي يمسك فيه بألف ريال ورقة واحدة. بقية الأسبوع يعود لها بمائتي ريال فقط، هي أجرته اليومية من وقوفه نصف نهار على أقفاص مليئة بالدجاج، مختلفة الأسعار والأحجام، يُخرِج هذه ويعيد تلك، يفتح القفص الآخر ويُخرِج أخرى طلبها منه الزبون. وبحركة تمثيلية من خبير في وزن الدجاج، يُمسك إحداها بيده وكأنها ميزان، ومن ثم ينصح الزبون بشراء الغنيمة التي تزن أكثر من سعرها. عندما يهز الزبون رأسه بالموافقة، يغلق الصناديق ويطلب من الزبون أن يتبعه إلى المحل لذبحها وتنظيف لحمها وتقطيعه. يصيح لصديقه "مهدي الريمي"، المنشغل بسلخ جلد دجاجة بين يديه، منتصبا خلف خمسة أقماع نُكستْ عليها خمس دجاجات ليُصفى دمها:

ـ هاه! انتبه هذه حق هذا!

يتناولها "مهدي" منه، ويضعها لتأخذ دورها، بينما صاحبها ينتظر.

جُلُّ ما يتمناه "يونس الحوتي" هو أن ينتقل إلى المحل ويقوم بذبح الدجاج وتنظيفه وتقطيعه؛ فصديقه "مهدي" يفعل ذلك ويأخذ في اليوم ٧٠٠ ريال. يرفض صاحب المحل أن يوكل إليه المهمة، بحُجّة أنه ما زال صغيرا عليها. يفشل "يونس" في إقناعه بأن عمره كما تقول أمه أصبح ثلاثة عشر عاما. بُنية جسمه توحي بأن عمره لم يتجاوز عشر سنوات، رغم حقيقة ما قالته أمه. تعترف أن تغذيته لم تكن جيدة؛ ليس بسببها؛

لكن بسبب ظروفها التي كانت لا تسمح لهم إلا بتناول وجبة واحدة في اليوم، في وقت كان جسم "يونس" يحتاج لخمس وجبات في اليوم. وعندما تَحسَّن وضعها المادي وحاولت أن تعوضه عما فاته زاد وزنه ولم يزد طوله، فأصبح له جسد مكتنز باللحم من منتصفه، وصار شكله يشبه الحوت؛ لذلك راحوا يطلقون عليه اسم "يونس الحوتي".

إلى جانب المبلغ الذي يتقاضاه "يونس"، كان له مبلغ إضافي من صديقه "مهدي"، مقابل إقناع الزبائن بأن معدة الدجاج غير مفيدة، وأن كبدها غير صالحة للأكل ومن الأفضل رميها، تفاديا لأمراض استخدام العلف الصناعي في تغذية الدجاج، لتكون هذه المعد والأكباد من نصيب "مهدي"، الذي يجمعها ويبيعها لأصحاب العربات الصغيرة، الذين يقومون بقليها وبيعها في أجزاء متفرقة من "سوق علي محسن".

استطاعت أم "يونس" أن تجذر في ذهنه حب المال، وأن جَنيه والحرص على زيادته سينجيه من شظف العيش الذي يعانونه منذ وفاة والده عام ٢٠٠٥ ، "يونس" يتذكر ذلك العام جيداً، فهو العام الذي دخل فيه المدرسة. اشترى له والده الزي المدرسي ذا اللون الأخضر الفاتح. وخاطت له أمه الشنطة التي لا تشبه شنطة ابن جيرانهم الجاهزة. ومع ذلك لا يعرف يونس إن كان فرحا بالزي وشنطة القماش أم خائفا من ولوج عالم المدرسة. في الصباح اصطحبه والده بنفسه إلى باب المدرسة. نظر إليه يونس بتوجس، سريعا ما زال بعد رؤية تدفق الصغار لفناء المدرسة، انسلت يد يونس من بين يد والده بهدوء، وانطلق يغمره حماس البداية حتى اختفى بين أفواج الأطفال المتوافدة على المدرسة.

ظُهرا، عند عودته، حَدَّثَ "يونس" أباه عن يومه الأول. وأهم ما قاله له هو أنه لم يجد كرسيا في الفصل فجلس على الأرض! الكراسي في

المدارس الحكومية محدودة، والفصل صغير ويحوي طُلابًا كثرا. وبنبرة حُزن مفتعلة صارح أباه بأن شنطة أمه أنقذته اليوم عندما اقتعدها وحمته من البرد؛ لكن في الغد لن يذهب إلى المدرسة! فانتزع منه وعدا بشراء كرسي ليجلس عليه.

اليوم التالي لم يذهب "يونس" إلى المدرسة؛ لأن والده انشغل بتجهيز نفسه للذهاب للحرب. وحدها الحرب تستحق الاستعداد. ذهب الوالد للحرب ولم يذهب "يونس" إلى المدرسة. يحتفظ "يونس" في ذاكرته الصغيرة بوداع حميم لأبيه، وبدموع تدفقت من وجه أمه وهي ترجوه البقاء والاكتفاء بما يكسبه من عمله على عربة متنقلة لبيع فاكهة الموسم؛ لكنه رفض وفضّل الذهاب. وعدها أنه سيعود وما عليها سوى انتظار نعيم عودته. وفعلا عاد والد "يونس" لقضاء إجازته لكن للمرة الأخيرة. كان منتشيا بذكاء "يونس"، الذي بدأ يعرف الحروف الهجائية كاملة، ويحاول جاهدا أن يتهجى الكلمات. قضى وقتا طويلا مع "محمد"، شقيق يونس الأصغر المعاق ذهنيا، وفاقد الحركة نتيجة إصابة بالشلل الدماغي منذ الولادة. ورغم شرود والد يونس طيلة الأسبوع الذي قضاه معهم إلا أن أم "يونس" تجاوزت ذلك دون سؤاله عن شروده أو الحرب التي ينوي العودة لمواصلة رحاها. انتهى الأسبوع سريعا وعاد للحرب تاركا لهم بعض المال، وجنينا في أحشاء زوجته.

لم يعد الأب، ولم يعد لدى الأم غير ألم الانتظار ومرارة هواجسها التي حرمتها نوم الليل. أنهى "يونس" سنته الأولى في المدرسة بتفوق. وفي العام التالي توقف عن الدراسة. من أين للمسكينة أمه المال لتنفق عليه وكل ما لديها راتب زوجها، الذي لا يتجاوز المائة دولار، تذهب لاستلامها من أحد معسكرات الجنود؟! أخرجت "يونس" من المدرسة

ليعمل في السوق، بناء على نصيحة أحد أصدقاء زوجها، فهي سوق قريبة منها ويمكنها ألا تشعر بالقلق عليه.

استطاع "يونس" أن يخزن في رأسه الصغير كل ما تعلمه في تلك السنة، وراح يلتقط قصاصات الجرائد التي يجدها أمامه في الشارع ليقرأها. يبحث آخر كل عام عن بقايا كتب الدراسة التي ترميها الأمهات في براميل القمامة وفي بعض الأرصفة الوسطية في الشوارع، قبل أن تلتقطها سيارات جمع القمامة. لم يعد يسأل أمه: "متى سيعود أبي لأعود إلى المدرسة؟!"؛ لأنه ضجر من جوابها: "لا أدري!"، وربما لأنه كان يخشى أن تقول له أمه ذات يوم: "لن يعود أبوك يا يونس، لن يعود!".

لم تجد الأم غير الصمت، تسد به رمق فضول ابنها وهو يسألها: لماذا الحرب؟! وأين هي؟! وضد من؟! توزعت أدوار الحياة القاسية لدى العائلة الصغيرة على أمل عودة الأب من الحرب. الأم تهتم بالأخ الأصغر لـ"يونس"، وبأخته الصغيرة "أمل"، التي لم يعلم بها الأب، فقد بذر في بطنها قبل رحيله فتاة ستسميها "أمل" تيمنا وأملا بعودته. أما "يونس" فمهمته منذ خروجه من المدرسة هي أن يصبح رجل البيت المدبر للمال. ورغم صغر سنه، سيطلق عليه كل من في السوق لقب "الحوتي"، لجسده المكتنز باللحم من الوسط مثل الحوت، ولتشابه اسمه مع النبي يونس، الذي ابتلعه الحوت وخرج من بطنه دون أذى. هو لا يعرف القصة، وعندما استنجد بأمه وسألها لماذا يلقبونه بالحوتي؟ وجدتها فرصة لتدعمه معنويا وتقول له: "أنت قوي كالحوت لأنك رجّال، رغم صغر سنك". نسي "يونس" لقبه الحقيقي، وأصبح "يونس الحوتي" اسمه ولقبه لدى أصدقائه ومعارفه في السوق.

●●●

٢٠ فبراير ٢٠١١

لا شيء يمكن إخفاؤه في السوق. ينتشر الخبر أسرع من انتشار النار في الهشيم. يتردد في السوق أن هناك من ذهب من التجار والبائعين لينضم للثورة. "ساحة التغيير"، هكذا قرر الشباب الثائر تسمية المساحة المجاورة لبوابة جامعة صنعاء من الجهة الشرقية، والتي انطلقت منها شرارة الثورة السلمية الشعبية.

أثناء زيارة "يونس" الأسبوعية لمزرعة الدواجن في ذلك الصباح، لاحظ التوتر في ذلك المربع حول الجامعة. صاحب محل بيع الدجاج في طريقه يبدو عليه التذمر مما يحدث. أطلق وابلا من الشتائم البذيئة على الشباب. لم يجد "يونس" غير الإنصات لتلك الشتائم ومراقبة ما يحدث بعينيه من مقعده الأمامي في السيارة النصف نقل التي تربض في مؤخرتها أقفاص الدجاج الفارغة الصفراء. كان الحديث عن الثورة صاخبا. تشتت ذهن "يونس الحوتي" بين مؤيدي الثورة ومعارضيها، ابتداء من السوق وانتهاء بمزرعة الدواجن. ألقى بكامل شتاته عند رؤيته الدجاج وسماع بقبقتها في الجزء الخاص بالدجاج المُعد للبيع. بعد أن أمضى "يونس" وقتا طويلا في اختيار المناسب منها، راح يرجو المشرف المرور على الدجاج البيّاض ليستمتع برؤيته، ويجد ما يحكيه لأمه ولشقيقته "أمل" عند عودته. أخبره المشرف أنه لن يستطيع تنفيذ طلبه في هذا الوقت، لأن الدجاج نائم. ظهرت على "يونس" علامات الاستغراب من نوم الدجاج في عز الظهيرة، وهذا بسبب خدعة التحكم في الضوء الذي يُكرر صباحات الدجاج، فيلقي ببيضه في الحال. ابتسم "يونس"

وهو يسمع هذا الكلام، وقبل أن يغادر المزرعة مع أقفاص مليئة بالدجاج مختلف الأحجام، استأذن مالك محل الدجاج أن يشتري بأجرته لذلك اليوم قفصا يحوي العديد من الصيصان الصفراء، يريد بيعها لأطفال الحي المجاور لسوق الدجاج في مؤخرة "سوق علي محسن". وافق المالك؛ لكن على مضض، مهددا "يونس" بأنه لا يريد مشاكل أو فوضى، فالصيصان لن تحتمل الحياة كثيرا خارج مزرعتها. أسرَّ له عامل في المزرعة بأنه سيضيف صبغة ذات ألوان مختلفة على ريش الصيصان الصغيرة فتبدو مغرية أكثر للأطفال بريشها الأخضر والأحمر والبرتقالي. نظر إليه نظرة امتنان. وأردف بصوت خفيض سائلا الموظف عن أسعارها! اختفى الموظف لدقائق وعاد بالصندوق مليئا بالصيصان، بعد أن رشها بالألوان المختلفة. نطت الفرحة من عيني "يونس" حال رؤيتها، ألقى في وجه الموظف ابتسامة بريئة، وتناول الصندوق بشغف ووضعه على كوم الأقفاص التي سبقته في السيارة النصف نقل.

في طريق العودة كان "يونس" غارقا في أحلامه الصغيرة مع الصيصان الملونة وبيعها لأصدقائه والمال الذي سيجنيه ليكون خطوته الأولى في امتلاك محله الخاص: "محل يونس لبيع الدجاج"، بينما مالك المحل مستمر في سيل شتائمه على الفوضى التي ستعم البلاد نتيجة خروج الشباب إلى ساحات الثورة، وسمّاها متهكما "بورة الشباب"، بدلا من "ثورة"، لذلك غيّر طريق عودته ليتجنب رؤية "ساحة التغيير".

●●●

لا يمكن لـ"مهدي الريمي"، الصديق الأعز والوحيد لـ"يونس" ورفيق مهنته، أن يفوّت فرصة زيارة الساحة ومعرفة ما يدور فيها، والأهم من ذلك البحث عما يمكن أن يساعده على العمل وكسب المال. لذلك عاد

"مهدي" إلى السوق في مساء ذلك اليوم مسرورا، يُحدّث كل من يقابله عن "ساحة التغيير" وما رأى فيها. هذا هو حال السوق، لا تنام ليلا ولا نهارا. توجه "مهدي" بعد ذلك إلى منزل "يونس" وراح يحدثه عما شاهده في الساحة. قال له إن رجال الأمن قد توقفوا عن مطاردة الثوار الشباب بالعصي الصاعقة بالكهرباء، ولم يعترضوا على أول خيمة دُقت مساميرها على الأرض لتعلن بداية التغيير.

كان برد صنعاء القارس في شهر فبراير فاتحا ذراعيه لاستقبال كل المتوافدين على الساحة، ينزعون من جوفهم الخوف حال ولوجهم الساحة، ويكتسح الهدوء الأمان ملامح كل الوجوه. ويحلق فوق رؤوسهم أمل الفوز بوطن ينعم فيه الجميع بحقوقه كاملة. أبدى "مهدي" إعجابه الشديد بوجود أكياس القمامة في كل مكان للحفاظ على نظافة الساحة وراح يقارن قذارة "سوق علي محسن" وأوساخها المنتشرة في كل مكان، ونظافة "ساحة التغيير". أنهى "مهدي" حديثه مبتهجا مثل تلك الوجوه الفرحة التي رآها تحقق أول خطوة في أحلامها.

بعد حديث "مهدي" زادت حيرة "يونس" فيما يجري، وتذكر مشواره الصباحي وما رآه فيه من تناقض. تابع حديث "مهدي" الشيّق وتخيل تفاصيله. لا يملك "يونس" غير الخيال. خوف والدته عليه جعله يتخيل كل ما يسمعه دون أن يفكر في صحته أو خطئه، لذلك اندهش وفتح فاه وتوسعت حدقتا عينيه وهو يراقب "مهدي". وقف "مهدي" على صخرة قريبة من منزل "يونس" شارحا له شكل المنصة التي تم إنشاؤها في الساحة أمام نصب تذكاري من الحجرالمنحوت كُتب عليه: "الإيمان يمان والحكمة يمانية"، في بداية مدخل جامعة صنعاء وعلى بعد أمتار من بوابتها الشرقية. قال "مهدي" إن الأغاني الحماسية التي تبث من المنصة

ويتفاعل معها الجمهور أعجبته وملأت رئتيه بهواء نقي ومنعش وراح يغني بصوت عال منتشيا صوت الفنان أيوب طارش: "وهبناكِ الدم الغـّالي وهل يغلى عليك دمُ؟!"، وانتهى بدندنة الجزء الآخر الذي لا يحفظه.

لم يكن "يونس" هو المنصت الوحيد. أمه وأخته "أمل" من خلف نافذة حجرة منزلهم الصغير ترقبان ما يدور. تعرف أم "يونس" تماما شعور الشباب وهم ينصبون أولى خيامهم في الساحة، متأكدة من أن شعور الأمان في تلك اللحظة لا يضاهيه شيء؛ أمان المستقبل، وأمان حياة قادمة ينشدونها لهم ولوطنهم، غاب وعيها في تذكر أولى لحظاتها وهي تقفل باب منزلها الصغير حال انتهاء رجال الخير من بنائه بعد أن وصلها خبر وفاة زوجها بشهور. عانت قبل تلك اللحظة الجلية في حياتها من إهانة وتحرش مالك الدكان الذي استأجره زوجها سكنا لهم قبل ذهابه للحرب. سددت إيجاره لعدة شهور من المبلغ الذي كانت تتسلمه من معسكر "الفرقة الأولى مدرع"، كراتب سيصرف لها مدى الحياة لإعالة صغارها. في الأشهر التالية لم تكن وحدها من تتسلم راتب زوجها الغائب الذي سينتقل اسمه إلى كشف المتوفين. كان هناك الكثير من الأمهات والزوجات اللائي أصبحن أرامل كحالها. كان هناك أولاد صغار مثل "يونس" يحملون على أكتافهم بندقيات ولا تعرف هل يتسلمون رواتب آبائهم أم يتسلمون رواتبهم!(١)

(١) تجنيد الأطفال أصبح ظاهرة انتشرت منذ بداية ٢٠٠٤ من قبل قائد "الفرقة الأولى مدرع"، اللواء "علي محسن الأحمر"، والزجّ بهم في مواجهات الحروب الداخلية التي بدأت تظهر على السطح في بعض مناطق اليمن، وخاصة محافظة صعدة والتي بلغت ست حروب. ورغم مناهضة ذلك من المجتمع ومنظمات المجتمع المدنية والإنسانية، إلا أن الأمر استمر دون الالتفات إلى كل تلك الجرائم في حق الطفولة.

دعوة "النظام السابق وعلي محسن" إلى التجنيد هي سبب ذهاب زوجها للحرب، ليحصل على راتب يؤمّن به مستقبلها ومستقبل أولاده؛ لذلك ما انفكت أم "يونس" تحاول فهم سبب ذهاب زوجها للحرب، بل سبب الحرب الدائرة في الشمال؛ إلا وقد جاؤوها بخبر وفاته شهيداً للواجب الوطني! طلبت رؤية جثته؛ لكنهم رفضوا؛ قالوا إنه دُفن ملفوفا بالعلم الجمهوري مع رفاقه. هكذا بمنتهى الهدوء: "زوجك مات! إنه شهيد، بطل.. و.. و.. و.."!

حزنت أم "يونس"! قال لها عند رحيله إنه ذاهب من أجلها ومن أجل ولديه، فكيف يموت دون أن يخبرها لماذا وكيف ذهب للحرب؟! كانت مشدوهة عندما نقل لها الخبر أحد ضباط "الفرقة الأولى مدرع" ودسّ في يدها مائة ألف ريال قال لها إنها "دية وفاة" زوجها من الدولة، ووعدها باستكمال إجراءات راتبه الذي كانت تتسلم جزءا منه.

ساعد الجيران أم "يونس" بعد موت زوجها في بناء منزلها على "التبة" المرتفعة في مؤخرة "سوق علي محسن"؛ تلك "التبة" التي شهدت حبهما ولقاءاتهما قبل زواجهما، لذة انتظارها له حال انتهائه من بيع محتويات عربته التي كانت تتنوع بحسب أسعار الخضار والفاكهة، وجلوسهما في هدوء. تلك اللحظات تخدر جسدها النحيل كلما مرت بخاطرها. حلمهما ببناء منزلهما، وهو كل ما يتمنيانه في الحياة، على تلك "التبة" التي لا يعرفون مالكها. اختلاس تلك اللمسات لكفها كانت هي نشوته ولذة أحلامه في المساء عندما يخلو كل منهما بذاته.

أقنعت أم يونس الجيران أن زوجها هو مالك تلك التبة، وأن أوراق ملكيتها كانت معه عندما ذهب للحرب، ومن حقها أن تبني بيتا يؤويها هي وصغارها الثلاثة. "ألا ترحمون حتى هذا المعاق من إهانة مالك

الدكان الذي نسكن فيه، ونظراته القذرة لأرملة يعتقد أنها سهلة المنال بعد موت زوجها؟!".

بعد سماع مُرّ شكواها، ساعدها الجيران في بناء غرفة وحمام ومطبخ صغير. جعلت نافذة الحجرة الوحيدة مُطلّة على السوق الممتدة أمامها بمساحتها الشاسعة. تتسمّر أمامها لساعات شرود طويلة، وكأنها تنتظر عودة زوجها الذي مات، مؤمنة بعودته رغم ما قالوه عن وفاته. لم ترَ جثمانه. لم تودعه. لم تعاتبه على رحيله المبكر. لم تقل له إنه ذهب وترك في بطنها ابنة جميلة سمّتْها "أمل" حتى يعود. لم تقل له إنها لم تكن بحاجة إلى الراتب الذي أفقده حياته، وأن حياتهم معا ،هي النعيم بذاته. لم تخبره أنها ما زالت محتفظة بهديته الأخيرة، ولن ترتدي الثوب الأحمر القاني الذي اشتراه لها قبل ذهابه الأخير.. كيف تقتنع بأنه مات ولم تنته بعد من تحقيق أحلامها وأحلام أولاده؟! "لقد غير اسمي من فاطمة إلى سعادة؛ لأنه قال إنني سعادة عمره الآتي، وأنا أنتظر الآتي. هو لم يمت، وسأنتظره حتى يعود من تلك النافذة ليلقى سعادته في انتظاره".

بعد انتهائهم من وضع سقف المنزل الصغير، أصرت على وضع باب منزلها الصغير قبل أن تقوم بتشطيبه من الداخل. احتضنت صغارها وأجهشت بالبكاء حال إغلاقها للباب. لذلك تعرف جيدا شعور هؤلاء الشباب وهم يدقون مسامير خيامهم على أرض الأحلام لبناء وطن جديد، وانتظار غد أفضل حلمت به لصغارها، عندما احتوتها جدران باردة وموحشة دون أهل أو زوج.

بعد وفاة والدها، وزواجها مع شقيقاتها الثلاث واستقرارهن في صنعاء، عاد أخوها الأكبر مع أمها إلى "وادي بنا" في محافظة إب،

مسقط رأسها. لم تعد صنعاء، بضجيجها وتلوثها وزحمة شوارعها وارتفاع أسعارها، قادرة على أن تمد ساكنيها بالراحة والهدوء والعيش المستور. بنى شقيقها دكانا ملحقا بمنزلهم القديم، واشترى بضائع تناسب سكان الوادي، بنصيبه من مال بيع بيت العائلة في صنعاء. لم يكن فخما؛ لكن موقعه على "شارع الستين" ضاعف قيمته؛ لذلك استطاعت أم "يونس" أن تبني منزلها بأقل التكاليف.

قطعت "أمل" شرود والدتها، طالبة منها إذن الخروج للعب مع "يونس" و"مهدي". أذنت لها. كان "مهدي" قد رص بعض الأحجار على تلك الصخرة وصعد عليها بحذر وطلب من "يونس" و"أمل" ترديد الشعارات التي سمعها في الساحة: "ارررررحل"، وهم يرددون بعده: "اااااارحل"، ينتظرون بلهفة الشعار القادم، فيصيح "مهدي" قابضا يده وملوّحا بها إلى الأعلى: "الشعب يريد إسقاط النظام". يرتفع صوتهما بذات اللحن للجملة المقدسة: "الشعب يريد إسقاط النظام". ينتشي "مهدي" بترديدهما، وبحماس يردد: "الشعب يريد بناء يمن جديد".

•••

٢٢ فبراير ٢٠١١

تناقل الصغار الذين يعملون في "سوق علي محسن" أخبار صيصان "يونس الحوتي" الملونة. حرض الخبر المزيد منهم لشرائها أو لرؤيتها. وحتى لا يستاء صاحب المحل من الفوضى حول قفص "يونس" ويتهمه بالتقصير، ذهب سريعا بالقفص لأمه لتشرف عليه أمام منزلهم. استمتاع الصغار برؤيتها تلقط الحبوب وتشرب الماء وتصدر أصواتها الرقيقة، سيجعله يطلب السعر الذي يريده.

أنهى "يونس" مهام اليوم في الظهيرة، التي عادة ما يندر فيها الزبائن. أدخل أقفاص الدجاج إلى المحل ورصها كما اعتاد، لتكون قريبة من نافذة المحل العلوية التي يدخل منها الهواء والضوء. كنس المحل ونظف أرضيته بالماء والصابون، ليزيل الدماء المتناثرة هنا وهناك نتيجة تخبط الدجاج في الأقماع التي توضع فيها حال قطع رؤوسها. تناول كيسا كبيرا أسود ووضع فيه كل محتويات البراميل من مخلفات الذباحة. وبسرعة وشوق توجه إلى منزله. شعر كأن المسافة التي يقطعها من سوق الدجاج إلى منزله لن تنتهي، رغم قصرها! عدد الأطفال الذين توافدوا إلى منزله، وزحامهم حول قفص الصيصان، من مختلف الأعمار، فاق توقعه. كانت وجوههم طافحة بالدهشة والفرحة معا. كل ما يتمنونه في تلك اللحظة أن يلمسوا ويحتضنوا الصيصان الناعمة بين أكفهم الصغيرة.

فرحت أم "يونس" بعودته، وسلمته قيادة المسيرة وإنهاء مهمة بيع الصيصان، التي لا تعرف كيف يعجب هؤلاء الصغار بصوصوتها الحادة وأجسادها الضامرة، لولا نفشة الريش الملون عليها. وقف "يونس" أمام القفص مزهوا، فهذه هي المرة الأولى التي يملك فيها شيئا و يكون صاحب قرار فيما يملك! أطال "يونس الحوتي" التفكير أمام القفص، وفجأة أخبر الصغار المتلهفين لشراء الصيصان، وجاهزية نقودهم في أيديهم تدل على ذلك، أنه لن يبيع لهم اليوم بل غدا. حتى يفكر في السعر المناسب للبيع! طلب منه أحد الصغار، الذي انبرى صوته الرفيع من بين كومة الأطفال، أن يسمح له باحتضان أحد الصيصان، لكن "يونس" رفض بشدة. زمَّ شفتيه، ثم علا صوته وهو يقول لهم: "قلت لكم لن أبيع اليوم. شوفوها لما تشبعوا لكن دون لمسها".

حمل "يونس الحوتي" قفصه بينما تعالت أصوات الصيصان الملونة، نتيجة شعورها بالحركة، دخل إلى المنزل، صافقا الباب في وجوههم، دون أدنى شعور بالذنب. تقافز الصغار سريعا من أمام المنزل عائدين إلى منازلهم بينما هو يرقبهم من النافذة بنشوة وعلامات النصر بادية على وجهه. رغم استغراب أمه مما فعله إلا أنها لم تسأله عن السبب. لم تقل له إن بيع الصيصان اليوم كان أفضل من الغد، فهي إن عاشت اليوم فلن تصمد إلى اليوم التالي. إنها صيصان ضعيفة، وصبغ ريشها بالألوان هو للتخلص منها من قبل صاحب المزرعة بأسرع وقت دون خسارة.

انتظر "يونس" عودة "مهدي" من الساحة ليفاجئه بخطته في تأجيل البيع حتى يشتاق الصغار للصيصان ويوافقوا على شرائها بالسعر الذي يريد. لكن "مهدي" تأخر، على غير عادته. ربما لن يأتي اليوم، وعلى "يونس"النوم والحلم بجني ثروة من بيع الصيصان الملونة.

يشرد يونس بذهنه بعيدا في "سوق علي محسن" الكبيرة الممتدة أمام ناظره، ويسمح لأحلامه في تلك اللحظات بأن تتجاوز كل حد. يحلم بأن دكان بيع الدجاج الذي سيملكه حال انتهائه من جمع المال ليس سوى خطوة أولى، بعدها سيمتلك هذه السوق كلها، وسيحكمها بالطريقة التي يريد. أول عمل سيقوم بتنفيذه وسيشرف عليه بنفسه هو أن ينظم حركة أصدقائه من أصحاب العربات. سيجعلهم يقفون طابورا منتظما يسمح لكل واحد منهم أن يجد فرصته في العمل وجني رزقه اليومي الذي خرج من أجله. سيحصل كل واحد منهم على دوره، وعلى المال الذي سيتفق "يونس الحوتي" مالك السوق بشحمه ولحمه مع الزبون على ألا يقل عن مائة ريال للنقلة الواحدة. يمكن للزبون أن يزيد المبلغ؛ لكنه لن يسمح

يظلم هؤلاء الصغار أو يأخذ حقوقهم؛ سيراقبهم دون أن يشعروا، وسيحميهم دون أن يطلبوا، لن يسمح لمنتهكي كرامتهم وإنسانيتهم بإيذائهم. ومن يحاول إغراءهم بالمال سيطرده من السوق، وقبلها سيفضحه على الملأ ويخبرهم السبب دون أن يشعر بالخجل؛ كونه حامي مؤخرات أصدقائه الصغار.

إذا أثبت أصدقاؤه كفاءة واحتراما لقوانينه الجديدة في السوق سيساعدهم في امتلاك محلات لبيع الدجاج مثله. لكن كيف يكون هو مالك السوق ويصر على أن يبيع الدجاج ويذهب إلى مزرعة الدواجن كل أسبوع؟! يبتسم بينه وبين نفسه وينفض الغبار الذي علق ببنطلونه نتيجة جلوسه على الأرض وينهض ليجيب أمه التي تدعوه لتناول الغداء.

تترك أم "يونس الحوتي" ابنها في تلك اللحظات مع أحلامه، وفي أحيان نادرة يغافلها ويصعد إلى السطح. لا يوجد سُلم يُمَكِّنه من الصعود، سواء من داخل المنزل أو من خارجه؛ لكن "يونس" يرص بعناية بعض الأحجار بشكل رأسي وآمن ويصعد إلى السقف. من أعلى يستطيع النظر ليس إلى "سوق علي محسن" بأكملها وحسب، بل إلى المنازل التي تربض أمام السوق ويفصلها عنها فقط "شارع الستين". هكذا تم تسمية الشارع الدائري الجديد الذي يلتف حول صنعاء كأفعى سامة تنفث حولها تناقضا لمنازل فخمة وعشوائيات رثة تفتقر إلى أهم أساسيات الحياة من الخدمات. يحلم "يونس الحوتي"، مثل كل أصدقائه، أن يملك بيتا أنيقا. لا يريده كبيرا؛ لكن مناسبا بما يكفي لينعم هو وأمه وشقيقاه بالراحة. حيطانه مطلية من الداخل باللون الأخضر، ومن الخارج مكسوة بحجارة بيضاء وملساء، كتلك البيوت التي يراها أمامه.

ابتسم في أعماقه وقال: "حتى أصدقائي، إذا امتلكت سوق علي محسن، سيأبني لهم جميعا منازل إلى جواري"!

●●●

ها هي الليلة الثانية تمرّ دون أن يعود "مهدي" ليحكي لـ"يونس" جديد الساحة كما تعوّد منه. راقب قدومه من زجاج النافذة مع شقيقته "أمل" بشوق حتى داهمها النعاس، لم يعد "مهدي" حتى إلى منزله. إنها ليلة لن ينساها بسهولة. فبعد أحداثها المؤلمة التي شهدتها "ساحة التغيير" انزوى "مهدي" في ركن مظلم بجوار منصة الساحة وراح يبكي بصمت مسترجعا ما تناقلته الألسن في تلك اللحظات من حوله:

بلاطجة النظام - كما سموهم - يرفضون توسعة الخيام في جزء الساحة الجنوبي. اقتحموها عنوة. أطلقوا الرصاص، وسقط "عوض السريحي" شهيدا. كان جُلّ حُلمه الحرية والعيش الكريم. أفزع خيال "مهدي" البسيط أن توسعة الخيام في الشوارع المحيطة للمنصة سيكون ثمنه شجارا واقتحاما ورصاصا وموتا. أفزعه أكثر أن هذه الثورة التي بات يكسب في ساحتها لقمة عيشه بيُسر، ويسمع في ساحتها الأغاني الثورية ويرى الرقصات الشعبية ويشاهد وجوه النساء المبتهجة، سيكون فيها دماء ستسيل! لم يكن يتخيل أن "آلاء"، ابنة أول شهيد للثورة، لن تنام في حضن والدها بقية حياتها. هكذا بمنتهى الهدوء أطلقوا عليه الرصاص حتى لا يدق وتد خيمته في الشارع. لم يستطع "مهدي" النوم، وظل يسمع حركة مرتادي الساحة وصفارات سيارات الإسعاف ودوي الرصاص والمشاجرات ومحاولة اقتحام أمن النظام للساحة طيلة الليل، مثل كابوس مرعب يتمنى لو يستيقظ في الصباح ولم يحدث منه شيء. لكن صباح "ساحة التغيير" كان حزينا ومثقلا بجراح تنزف. ها هي الثورة تقدم أول قربان لها!

توجه "مهدي"، حال انبلاج الضوء، مباشرة إلى السوق، إلى ركنه المفضل في سوق الدجاج، ليبدأ عمله كما اعتاد. لم يعرّج على منزله. تعودت أمه على غيابه. قال لها إنه أصبح "رجّال" فلا داعي لأن تقلق عليه كالأطفال. كان واجما؛ ومع ذلك أجاب عن أسئلة "يونس"، وشرح ما رآه وسمعه، ونبرة صوته الحزينة لم تتغير. حُزن "مهدي" وارتباكه مما حدث كبح جماح "يونس". لم يحدثه عن صيصانه الملونة، تركه وعاد لصناديق الدجاج، يخرج هذه ويعود بتلك إلى قفصها، حسب رغبة المشترين. يناول "مهدي" التي وقع عليها الاختيار، ليقوم بذبحها وتنظيفها بصمت.

تخيم على "يونس" كآبة لا يعرف لها سببا، منذ غادر منزله في الصباح. عاد إلى أمه ظهر ذلك اليوم بمشاعر متناقضة، تسير أمامه على عصى وتترنح لتستقيم، على أمل رؤية الصيصان الملونة، ومواصلة استكمال مشروع تحقيق الأحلام. كان في انتظار "يونس" مفاجأة غير سارة فسّرت له ذلك الشعور وتلك الكآبة. استقبله وجه أمه دون أن يلحظ القلق الطافح منه. لم تعرف كيف تخبره بما لديها! هل تمهد له بألاّ يحزن مهما كان الخبر الذي ستقوله له؟! أم تنصحه بالكف عن التفكير في مشروع لا يعرف كيف يتعامل معه؟! في الحالتين هي مضطرة لتقول له: "لقد ماتت جميع صيصانك يا يونس!".

لم يصدّق ما سمعه من أمه للتو، لم تُنْهِ أمه عبارتها حتى قفز إلى الصالة الصغيرة التي ترك فيها صيصانه. جميعها كانت ملقاة على أرض القفص بلا حراك. جميلة ألوانها وهي مستكينة. اصطفت جنبا إلى جنب وكأنها استعدت لموتها. اللون ينفث في الأجساد الميتة جمالا نابضا بحياة أخرى: كصيصان "يونس"، وكأوراق الخريف، وكأسماك ألقى بها الموج إلى الشاطئ في موسم هجرة.

أمسك "يونس" برأسه وجثا على ركبتيه دون أن يقول شيئا. راح ينظر إلى الصيصان، وأمه تنظر إليه، و"أمل" تنظر إلى كليهما، بصمت. ربما هي رهبة الموت، التي لا يستطيع أحد منا التدخل فيها أو تغييرها. ترك "يونس" صيصانه في قفصها طيلة اليوم، متمنيا أن تصحو من رقدتها وتعود للصوصوة.

صباح اليوم التالي، وقبل ذهابه إلى محل الدجاج، اتجه إلى خلف المنزل. حفر لصيصانه قبرا واحدا ورصها بتتابع، فكوّنت خطا مستقيما ملونا بأجسادها الهزيلة، وأهال عليها التراب. دخل منزله وجلب وعاء ملأه بالماء ورشه على قبر الصيصان. ومضى إلى عمله.

هذه هي الحياة يا "يونس الحوتي"! تحقيق الأحلام ليس سهلا، وجني المال لمن لا يملك غير عمله الحقير أيضا ليس سهلا. هكذا ودّعته أمه، وهكذا حدث نفسه في طريقه، واستدرك: "لكن الله موجود يا أمي، وليس على الله شيء عسير".

بعد حديثها الموجز، راقبت أم "يونس" ولدها بصمت. خشيت حتى أن تحضنه، لئلا يجد فرصة للبكاء والتذمّر. تريده رجلا قويا. تعرف أن اعتمادها عليه وهو في هذه السن أكبر من طاقة احتماله. تعرف أنها حرمته من التعليم؛ لكن كيف تخرج هي للعمل ولديها طفل معاق وطفلة صغيرة تحتاج إلى الرعاية؟! كيف وليس لها أهل في صنعاء لمساعدتها؟! كان حال "يونس" يقضّ مضجعها، لشعورها بالذنب تجاهه؛ لكن لا خيار أمامها غيره. رفعت كفها للسماء ودعت الله مستبشرة بالثورة التي اندلعت، أخيرا.

●●●

٢٣ فبراير ٢٠١١

إصرار "يونس الحوتي" على السير في طريق تحقيق حلمه بامتلاك محل لبيع الدجاج جعله يحرم نفسه وأمه وأخويه من أشياء أساسية. رجته أمه شراء تليفزيون، حتى لو لم تكن شاشته ملونة، لتتسلى به أخته "أمل"، عوضا عن الذهاب قبل المغرب لمتابعة مسلسل الأطفال لدى الجيران؛ لكنه كان يقابل طلبها بالرفض، فهناك ما هو أهم من التليفزيون، الذي سيذهب بمدخراته، وأمامه هدف أهم! الآن جاءت الحاجة للتليفزيون أكثر من أي وقت مضى. يتناقل الجيران أخبار الثورة ومشاهدة ما يبث في القنوات الفضائية. أصبح ذهن أم "يونس" مشتتا، لكثرة ما تسمع من الجيران. تسأل نفسها: مَن الصح ومن الخطأ؟! بل كيف وعلى ماذا سينتهي هذا الحدث؟! لم يعد الراديو الكبير الحجم الذي اشتراه لها "يونس" عوضا عن التليفزيون مرضيا لفضولها ورغبتها في متابعة الأخبار. تتحدث الجارات عن موت أحد الثوار، وتتحدث أخرى عن غضب عارم حول الساحة نتيجة الحادث جعل القبائل يؤيدون الثورة ويتوافدون من حول صنعاء لمناصرتها. لا تعرف أم "يونس" ما هو "اللقاء المشترك للأحزاب" الذي انضم لثورة الشباب وشُغل الناس بالحديث عنه؛ لكنها تعرف أنه شيء مهم، لذلك لم يتوقف الحديث عنه من حولها بين الجارات وفي أرجاء السوق.

الأخبار تؤكد أن هناك سبع عشرة محافظة من محافظات الجمهورية خرجت مسيراتها تأييدا للثورة السلمية الشعبية، واحتجاجا على قتل الشهيد "عوض السريحي" دون ذنب. اختفت جثة الشاب من ثلاجة

الموتى في صنعاء بعد رفض أهله المال الذي حاول النظام أن يعوض به عائلته، لتظهر في مدينة إب وقد خرجت الجماهير الغفيرة لتشييعه إلى مثواه الأخير، وهي تردد شعارات ثورية.

•••

٢٤ فبراير ٢٠١١

حركة غير عادية في مؤخرة "سوق علي محسن"، في الجزء الخاص ببيع الدجاج. "يونس" ينتقي أعدادا كثيرة من الدجاج لثلاث نساء قدمن إلى السوق لشرائها. ليس حول أقفاصه فقط، بل حول أقفاص كثيرة في السوق من حوله. يحاول جاهدا أن يجد سببا لما يحدث فلا يجد إلا أن هؤلاء النسوة لديهن وليمة عرس كبيرة! لكن بالدجاج وليس باللحم. "يا رحمتاه! حال الناس وفقرهم جعلهم يولمون بالدجاج"، هكذا حدث نفسه. استغنت النساء عن معد وأكباد الدجاج. شعر "يونس" بالفرحة؛ لأن "مهدي" يتحصل على مبلغ إضافي عند بيعها وسيكون له نصيب بالتأكيد، "مهدي" يفي بوعوده دائما. طلبت كل واحدة منهن ١٥ دجاجة، لذلك طلب صاحب المحل من "يونس" ـ للمرة الأولى – أن يساعد "مهدي" في الذبح حتى ينتهي سريعا ولا يؤخر السيدات. لمعت عيناه من الفرح، فاليوم عوض خسارته من تجربة الصيصان وأصبح راضيا عن نفسه. حاول "مهدي" أن يعلمه طريقة الذباحة دون أن تدرك السيدات أنها المرة الأولى له، لذلك راح يطلب منه مراقبته كيف يأخذ السكين الحادة ويلوي رأس الدجاجة إلى الخلف ثم يقول: "بسم الله، الله أكبر". ارتعشت يد "يونس الحوتي" في أول عملية ذبح. لم يمسك بالدجاجة جيدا فنطت من

يده وهي بنصف رأس، والدماء تتطاير عليه وعلى "مهدي"، وصولا إلى السيدات المنتظرات. أقنع السيدات بأنها غلطته، نتيجة الاستعجال. انشغال صاحب المحل جعل "مهدي" يتصرف سريعا ويلتقط الدجاجة من الأرض ويجهز عليها ومن ثم يقلبها ويضعها في القُمع الخاص بها. واصل "مهدي" الذباحة وطلب من "يونس" مراقبته أولا ومن ثم تقليده كما يفعل. قطع الرأس وتصفية الدم ثم سلخ الريش ونزع الأحشاء، قبل تقطيعها لمن ترغب من السيدات أو تركها كاملة حسب نوع الوجبة التي تنوي طبخها.

استقام الأمر مع "يونس"، وإن كانت يده ما زالت بطيئة ومرتعشة بعض الشيء؛ لكن حب "مهدي" له جعله يمتدح ما قام به لصاحب المحل، وكأن لديه خبرة في عملية ذباحة الدجاج منذ أعوام. بدأ يشعر بالتعب، فالمهمة ليست سهلة، وذبح أكثر من ستين دجاجة للسيدات مُنهك؛ لكن فرحة صاحب المحل بنفاد كمية الأسبوع جعلته راضيا، وفرحة "مهدي" بكمية المعد والأكباد التي سيتحصل عليها جعلته سعيدا، وغير عابئ بالتعب. أما "يونس" فقد اكتسب خبرة في نزع الريش وتنظيف الدجاج.

حاول "مهدي" و"يونس" معرفة سبب شراء السيدات لهذه الكمية من الدجاج. كن متكتمات بشكل واضح. بدا من قدوم كل واحدة منهن على حدة وفي وقت مختلف ألا تعارف بينهن، فأمضين الوقت بالحديث؛ لكن بحذر. ربما أصبحن في تلك اللحظة صديقات يتشاركن شيئا واحدا ولهن هدف واحد لم يتمكن "يونس" و"مهدي" من معرفته. انتهت مهمة الذباحة بنجاح وغادرت السيدات السوق وهن مرتاحات من السرعة التي أبداها "مهدي" و"يونس". صاحب المحل لم يبخل عليهما بأجرة ما ذبحاه من الدجاج وأيضا أجرة يوم إضافي.

بعد انتهائهما من تنظيف المحل، سارع "مهدي" وأعطى "يونس" مبلغا من المال، حصته من معد وأكباد الدجاج المذبوح. فكر "مهدي" في أن يبيع تلك الكمية الكبيرة في "ساحة التغيير". طلب من "يونس" الذهاب معه؛ لكن أم "يونس" لم تسمح له بالذهاب، وطلبت من "مهدي" ألا يطلب منه الذهاب معه في المرات القادمة. ما حدث اليوم ليونس أعاد له ثقته في نفسه. حكى لأمه كيف ساعد "مهدي"، وكيف قفزت الدجاجة بنصف رأسها المذبوح من بين يديه، اعترتهما نوبة من الضحك، راحت بعدها أم يونس تعلمه المزيد عن ذباحة الدجاج.

عاد "مهدي" من "ساحة التغيير" بعد أن نجح في مهمته وباع كل ما لديه من معد وأكباد الدجاج لذلك اليوم. انتقل بعض مُلاك عربات قلي أكباد ومعد الدجاج من "سوق علي محسن" إلى "ساحة التغيير". توافد الناس للمشاركة في الثورة الشعبية السلمية ومناصرتها لم ينقطع منذ نصب أول خيمة في الساحة. عاد نبض الحياة في أوردة كل من يدخل الساحة بعد حادثة استشهاد "عوض السريحي".

حكى مهدي ليونس عن تلك العربات التي انتقلت، وعن رائحة القلي التي تلهب الأنوف فيتهافت الناس للشراء. يقول إن من كان يغش من الباعة في "سوق علي محسن" باستخدام الزيت المنتهي أو جلب بقايا الزيوت من المطاعم لم يفعلوا ذلك في "ساحة التغيير". كان كل شيء سليما ونظيفا. إنهم يبيعون للثوار المطالبين بالتغيير من أجلهم؛ من أجل الفقراء؛ فكيف يغشونهم ويستخدمون كل زيف "سوق علي محسن" في البيع والشراء؟!

عصر ذلك اليوم حكى يونس لمهدي عن مشروع الصيصان الفاشل؛ لكن هذه المرة وهما يتبادلان الضحك وبشكل هستيري. يجيد "يونس"

تقليد حركاته وما أصابه منذ شرائها حتى دفنها. أمسك بيد "مهدي" وتوجها إلى خلف المنزل ليريه قبر صيصانه النديّ، وطلب منه أن يقرأ لها "الفاتحة" و"سورة الإخلاص"؛ لكن "مهدي" رفض وقال إن هذا لا يجوز؛ "الفاتحة" فقط للبشر وليس للحيوانات. احترم "يونس" ما قاله "مهدي"؛ لكن هذا لم يمنعه من قراءة "الفاتحة" و"سورة الإخلاص" و"سورة العلق"، فهي كل ما حفظه في السنة التي قضاها في المدرسة.

بعد سماع حكاية "يونس" بكل اهتمام شرد "مهدي" للحظة، ثم راح يحدث "يونس" عن رغبته في أن يكون له مشروعه الخاص في "ساحة التغيير". التفت إليه "يونس" مبتسما:

- ما حلِيتش من مشروعي!

رد عليه يونس بود:

- ولو فشلت ندور لنا مشاريع ثانية.

وراحا في نوبة ضحك صافية كسماء كانت تظللهما في عصرية يوم شتائي قصير يستعد لدخول الليل.

كان مشروع "مهدي" هو أن يشتري له عربة وإسطوانة غاز وزيتا للقلي ويقوم هو بقلي وبيع معد وأكباد الدجاج التي سيحضرها له "يونس". سيكلم صاحب المحل أنه سيغادر ولن يجد غير "يونس" ليقوم بالعمل. ابتهج "يونس" لسماع ذلك ونصح "مهدي" بالتريث وعدم الاستعجال في ترك عمله الأساسي في المحل وأن يجعل فترة العصر والمساء لمشروعه. قد لا ينجح تماما ويجد نفسه في الشارع، وليتعظ من موت صيصانه. فكر "مهدي" مليا في كلام "يونس" وأبدى موافقته عليه. ومنذ الغد سيبدأ في شراء متطلبات المشروع: عربة، إسطوانة غاز، وزيت للقلي.

مفاجأة عودة السيدات صباح اليوم التالي ألجمت "مهدي" و"يونس" ومنعتهما من تبادل الحديث والتفكير في سبب شراء هذه الكميات. أثناء انهماكه في العمل شرد "مهدي" بفِكره بعيدا عن "يونس" وعن السيدات المنتظرات، راسما خارطة واضحة لما سيفعله اليوم. ابتهج لمجرد تفكيره بكونه من سيقلي كمية اليوم من معد وأكباد الدجاج على عربته. سيسمع نصيحة "يونس"، وسيعمل عليها فقط في فترة العصر، حتى ينتهي من بيع الكمية. العربة ستمكنه من جمع المال سريعا ليتمكن من استئجار محل ويكون هو صاحبه لذبح وبيع الدجاج.

"مهدي الريمي" يساعد في إعالة أفراد أسرته الكبيرة؛ رغم أن والده لا يزال على قيد الحياة؛ إلا أنه فاقدٌ لعقله. لا يعرف كيف وصل والده إلى هذه الحالة. أمه تقول إنه لم يكن كذلك. يستقر في تلك الزاوية من "سوق علي محسن" يرقب الناس فقط، لا يتحدث مع أحد، ولا يؤذي أحدا. تنهال عليه أحيانا بعض الريالات فيعود بها إلى المنزل، وأحيانا بعض الفاكهة أو الخضر. تستغرب أم "مهدي" كيف يعرف طريق الذهاب والعودة وهو لا يملك عقلا! صامت طوال الوقت، إلا من مراقبتها ومراقبة أولاده التسعة في المنزل أو بقائه في ذلك الركن من السوق طوال اليوم. عندما كان ينام في تلك البقعة ولا يعود إلى المنزل، أصبح "مهدي" يمر عليه حال انتهائه من عمله، ومنذ فترة أصبح غير قادر على مغادرة المنزل، ولم يعد يكتفي فقط بمراقبة زوجته وأولاده، بل بالصراخ طيلة اليوم، وضرب كل من لا يرد على تهويماته في المنزل، مما اضطرهم لتقييده بالسلاسل طيلة اليوم، ولا تُنزع منه إلا أثناء نومه، بل وأجبرتها نوبات الصراخ والغضب التي تعتريه في الليل على تقييد يديه ورجليه معظم الوقت. في ليال نادرة، تُدخله الأم حجرتها، بعد أن تفك قيوده وتحممه، وتعطره، فيركن للهدوء في الأيام القليلة اللاحقة.

مشاعر "مهدي" تجاه "يونس" نقية. يحبه ويشعر أنه مثل شقيقه الأصغر الذي يعمل معه في "سوق علي محسن"، ويمنحه ما حُرم من أخويه الكبيرين بعد أن غادرا المنزل وتزوجا واعتمدا على عملهما دون أن يعيرا الأب والأم أي اهتمام أو رعاية. أما شقيقاته الخمس فقد تزوجن في سن مبكرة. أفضل طريقة للتخلص من الفتاة هي زواجها. تقول الأم: "سترتها بالزواج". و"مهدي" يقول: "نهايتها بالزواج". لم يكن بيده حيلة غير الموافقة على كل ما كانت تقوله أمه، وتحمل أعباء المنزل كاملة، رغم أنه لم يتعدَّ عامه السادس عشر. عندما توفيت شقيقته الوسطى في ليلة زفافها، قالت لهم الطبيبة: "نزيف في الرحم، لم يتم تداركه بإسعافها مبكرا، كذبوا وقالوا إن عمرها ثلاثة عشر عاما، في حين أن عمرها كان أحد عشر عاما فقط، وزوجها الفحل ضابط في الأربعين من عمره، أراد أن "يجدد شبابه" ولو سيرا على جثث العذارى.

يشعر "مهدي" بالمسؤولية تجاه أسرته، يمنحها معظم المال الذي يجنيه. ورغم ذلك تقول عنه أمه إنه متمرد، وتنعته أحيانا بـ"العاصي"، كما تنعت والده بـ"المتمجنن". تعتبر مبيت "مهدي" خارج المنزل لأيام عدة، ورفضه إعطائها كل ما يكسبه من مال تمردا. تعتبر إخراجه لشقيقه الأصغر من المدرسة منذ فقد والده عقله، وحثه على العمل لكسب لقمة العيش، قسوة. وتعتبر نصائحه له بأن ينتبه لمؤخرته من شواذ "سوق علي محسن" وقاحة. وعندما يضيق "مهدي" بكلامها وتذمرها لا يعود إلى المنزل إلا وقد أنهكها البحث عنه. تأخذ العصا وتضربه دون أن ينبس بكلمة أو حتى يدافع عن نفسه، حتى تكل يداها، فتجثو أمامه وتبكي. يعلم أن حملها ثقيل، لهذا يتحمل منها كل شيء، وهذا جعلها

تُحمله مسؤولية نفسه، وتتركه على هواه في التأخر أو المبيت خارج المنزل، مادام يعطيها المال الذي تحتاجه، لذلك تعلقت كثيرا بشقيقه الأصغر ونيسا لها في المنزل، الذي لا يبرحه منذ عودته من عمله في "سوق علي محسن".

•••

ظهر ٢٥ فبراير ٢٠١١

هذا يوم مميز في حياة "مهدي"، لن ينساه حتى مماته. إنه اليوم الذي قرر فيه أن يكون من ذوي الأملاك. حتى لو كان ما سيملكه شيئا بسيطا جدا، إلا أن مشاعره في هذا اليوم كمن تحققت له كل أمانيه. لقد قرر أن يستغل فترة نشوء "ساحة التغيير" ويقوم بمشروعه الخاص: شراء عربة يبيع عليها أكباد ومعد الدجاج المقلية.

بعد انتهاءه "يونس" من تجهيز الدجاج للسيدات شعر بحماس شديد لبدء مشروعه اليوم دون تأجيل؛ فكمية ما جناه اليوم من معد وأكباد الدجاج مجانا مشجعة له ليبدأ دون تأخير. سيذهب بكمية اليوم لبيعها لصاحب عربة في السوق، بينما يتفرغ هو لشراء العربة التي سيكون مالكها وسيدها الأول. نظر إلى "يونس" بحماس وقال:

ـ إذا ما قدرناش نفهم ليش النسوان اشترين هذا الدجاج كله، فعلى الأقل خلينا ما نضيعش الفرصة، ونسير نشتري لي عربية (١)، ودبة غاز، وجلن زيت، وابدأ أطلب الله!

(١) عربية: هي عربة من الحديد، متوسطة الحجم بحيث يتم تحريكها باليد من الأمام وتستند على عجلة في وسطها. متعددة الاستخدام في نقل البضائع أو بيع الفواكه والخضر.

لم يرفض "يونس" مساعدة "مهدي" عندما طلب منه مرافقته لشراء أدوات مشروعه. كان عليهما التوجه إلى منزل "يونس" لطلب الإذن من أمه. هذا هو الفرق الجوهري بينهما: "يونس" لا يتحرك من السوق قيد أنملة إلا بعد أن يستأذن أمه، و"مهدي" حر تماما ومع ذلك يشبِّه نفسه بأنه في قفص "سوق علي محسن"، ولا يتوقف عن التعبير عن كرهه للسوق وكل من فيها. يشعر بالظلم لأن السوق بلا قوانين في الحفاظ على أجور العمال؛ لكنه المكان الذي لا يمكن لأحد أن يقصده دون أن يجد له عملا، ولو بأجر قليل. وافقت أم "يونس" على مرافقته لـ "مهدي"؛ شريطة ألا يتأخر عن أذان المغرب. دخول الليل و"يونس" خارج المنزل يصيبها بالهلع، فيونس كل أملها في الحياة.

طلب "مهدي" من أم "يونس" جزءا من المبلغ الذي كان يدخره لديها لمشروعه الكبير في امتلاك محل بيع الدجاج مع شريكه "يونس". نزلا من تلك "التبة" التي تعلوها سوق الدجاج ومنزل "يونس" بخفة، ليصلا سريعا إلى محل يبيع عربات ومواد بناء مختلفة. راحا يفحصان العربات المتراصة، فمهدي يريد عربته بلا عيوب، حتى لو كان خدشا بسيطا في هيكلها المعدني. عندما طال وقوفه وتشاوره مع يونس سئم صاحب المحل من طول بقائهما أمام بضاعته، وقال ساخرا:

- رَيْمِي! أكيد لن تشتري إلا عربية! هيا اقطب واختار، عاده بيتخور (وانفجر ضاحكا).

تلك الضحكة الساخرة استفزت "مهدي"، فأمسك البائع من رقبته وحشرها تحت إبطه حتى شل حركته، وراح يدور به ويلكمه على رأسه وهو يتلفظ بعبارات لا يعرف ولا يعي معناها. بصعوبة تدخل "يونس" لفض الاشتباك قبل أن ينتهي بهم الأمر في قسم الشرطة.

بغضب و"هنجمة" التقط "مهدي" "معوزه" الذي يطويه حول خاصرته من الأرض، وهدد البائع بأنه سينتقم منه في أقرب فرصة. لا يرتدي "مهدي" البنطلون، ويفضل ارتداء "المعوز"، وتغطية رأسه بـ "المشدة" كما يفعل الرجال في محافظته: "رَيْمَة"، وهذا يجعل شكله أقرب للرجل منه للفتى.

بهذا العراك أصبح يوم "مهدي الريمي" مميزا أكثر. أخذ ينصت إلى "يونس" وهو يحدثه بمنتهى الجدية عن أن هذه الصفة ستلتصق به طالما أصبح مالك عربة، وأنه سيسمع هذا الكلام الساخر كثيرا بعد امتلاك العربة، فهل سيتعارك مع الجميع؟! ناهيك عن النكات المضحكة التي درج الناس على تأليفها عن أهل "ريمة" وبالتأكيد لن تروقه! لذلك عليه أن يتحمل هذه الأذية له ولأهل محافظته الذين يكسبون لقمة العيش بشرف ولا ذنب لهم في مركزية العاصمة صنعاء وجبروتها، التي جلبت لها السكان من كل أنحاء اليمن وليس من محافظته الفقيرة فقط. يتوافد الكثير من سكان محافظة "ريمة" الفقيرة جدا إلى العاصمة لكسب أرزاقهم، ولا يجدون غير تلك العربات التي يحملونها البضائع ويسيرون بها في الشوارع المختلفة لبيع محتوياتها لمن يجد مشقة في الذهاب إلى الأسواق نتيجة بعدها. وإن اهتم "مهدي" بسخرية البائع فإن الأغلب منهم لا يهتم إلا بالعمل وكسب المال.

●●●

عصر ٢٥ فبراير ٢٠١١

سيواجه "مهدي الريمي" بعد شرائه للعربة مشقة إيجاد مكان مناسب لها في "ساحة التغيير"؛ مكان تتوافر فيه شروط كثيرة، أولها أن يكون

آمنا وقريبا من طرق مرور الناس.. لذلك كان عليه أن يظهر المسكنة على ملامحه، والرجاء في كلماته، ليسمح له رجل الأمن الواقف أمام بوابة جامعة صنعاء من جهتها الغربية بالدخول ليصل إلى "ساحة التغيير". كان الطريق مختصرا وسريعا ولن يكلف "مهدي" العناء وهو يدفع العربة واضعا عليها إسطوانة الغاز. لكن رجل الأمن رفض وبشدة. قال إن الأوامر لديه أن يدخل طلاب الجامعة بعد إظهار بطاقاتهم الجامعية في الصباح، وساكنو العمارات داخل الجامعة في العصر بعد إظهار تصاريح دخول سياراتهم فقط.

شعر "مهدي الريمي" باليأس من أن يوافق رجل الأمن على طلبه، فاضطر للتوجه إلى "ساحة التغيير" من جهتها الشمالية، من الطريق الأطول؛ لكنه لا يملك خيارا آخر. كان شباب الساحة قد نظموا أنفسهم في مجموعات طوعية، كل مجموعة مختصة بتأدية مهمة؛ فهناك من يفتش الداخلين إلى الساحة من منافذها المتعددة، وهناك من يوفر التغذية، وهناك المسؤولون عن برامج المنصة الواقعة إلى جوار النصب التذكاري "الإيمان يمان والحكمة يمانية".

وجد "مهدي" عناء آخر عند وصوله إلى بوابة الساحة من جهتها الشمالية، حيث رفض شباب الأمن السماح له بالدخول، خاصة وهو لديه إسطوانة غاز وربما أراد سوءا بالشباب الذين راحت خيامهم تكثر من الجهات الأربع، وانتشرت أخبار عن محاولات دخول وسائل إيذاء كثيرة للشباب. وبعد شد وجذب وشرح سبب وجود الإسطوانة لمشروعه الذي سيخدم الساحة في تقديم طعام للثوار، سمحوا له بالدخول بعد أن أعطوه شارة صفراء ليدخل بها إلى الساحة، شريطة أن تظل أدواته وبضاعته في الساحة دون خروج!

تمنى "مهدي الريمي" أن يضع عربته بالقرب من المنصة. اعتقد أن الأمر سهل ولن يجد أي صعوبة؛ لكن أصحاب عربات الشاي والسندوتشات في تلك البقعة كانوا له بالمرصاد؛ رفضوا أن تستقر عربته بينهم، خاصة بعد أن عرفوا نوع بضاعته. لم يحاول فرض رأيه بالقوة وابتعد عنهم ما استطاع، حتى استقر به الحال بالقرب من الرصيف الأوسط بين الشارعين، بعيدا قليلا عن المنصة وعن عربات الشاي والسندوتشات؛ لكن رؤيتها ممكنة. جهز عربته سريعا وبدأ في العمل. توافد عليه الناس. جذبهم الزيت النظيف وأدوات القلي الجديدة. باع ما لديه سريعا فنضحت السعادة من وجهه.

المشكلة التي واجهته في اليوم الأول هي كيف يترك أدواته ويعود إلى المنزل؟ عودته كانت مهمة، بالذات في هذا اليوم المبارك، لتبارك أمه عمله الجديد. طلب "مهدي الريمي" من مالك عربة الشاي المقابلة لعربته من الجهة الأخرى الانتباه لها حتى يستطيع تدبير أمر الحفاظ عليها، فوافق دون تذمر. يشعر هؤلاء الباعة بمسؤولية وبعطف بعضهم تجاه بعض، فهم لا يملكون إلا هذه العربات مصدرا لأرزاقهم. تناول الإسطوانة من "مهدي" وربطها بسلسلة إلى جوار إسطوانته، وأسند عربة "مهدي" على عربته حتى عودته.

صباحا، وقبل دخوله الساحة، كان "مهدي الريمي" قد اتفق مع صانع صناديق حديدية لعمل صندوق يُمكن قفله ويكون مناسبا لإسطوانة الغاز ولبعض المواد التي يريدها لتجهيز بضاعته، من زيت وبهارات وبعض الصحون البلاستيكية.. لم يكن المبلغ الذي تحصل عليه في اليوم الأول كبيرا. اعتقد "مهدي الريمي" أنه إذا باع بسعر رخيص سيجذب الزبائن، وأن الأيام لا تزال أمامه ليربح المال ويحقق كل أحلامه.

●●●

ليل ٢٥ فبراير ٢٠١١

كان لا بد من عودة "مهدي الريمي" في هذه الليلة إلى المنزل. شعر بشوق عارم لوالدته. يقول إنها لا تفهمه، لذلك يتحمل نوبات غضبها ونزقها عندما يصدمها بتصرفاته تجاه شقيقه، خاصة بألفاظه البذيئة التي "يعلمه بها الحياة" كما يقول، وأن من لا يستخدمها في "سوق علي محسن" فهو "مش رجّاااال". عاد ليفرحها بمشروع ابنها الذي أصبح من ذوي الأملاك! وليزيد في طمأنتها بأنه يكسب المال. يقتلها الشعور بعدم الأمان،. الأمان لديها هو المال الذي سيقيهم شر السؤال. لم تكن تملك مالا عندما حدثت لزوجها لوثة في عقله، وخرج من منزله إلى الشارع تاركا لها تسعة أبناء يتضَورون جوعا وبردا.؛ خرجوا من مدارسهم عندما لم يتمكنوا من شراء أقلام ودفاتر. وبدلا من أن تنعم بقرب بناتها زوجتهن وتخلصت من مسؤوليتهن. تعاقب أم "مهدي" نفسها كثيرا وتشعر بالذنب لموت صغيرتها في ليلة زفافها. هذه هي غصة حياتها. تذرف دموعها كلما رأت شقيقاتها وهي ليست بينهن حتى لو كن في عز الشقاء وتحمل المسؤولية في سن مبكرة.

يسكن "مهدي الريمي" في "مدينة الليل" في مرتفع جبلي يدعى "مذبح". مدينة لا تنام من الوجع والتعب؛ بُنيت منازلها في الليل؛ خوفا من "البلدية". أراضي الدولة استباحها الفقر والحاجة، فتغاضت الدولة عن واجبها، وصار الليل صديق ساكنيها، فيه يبنون منازلهم، وله يبثون همومهم ومشاكلهم. يتعاون الجيران في البناء كخلية نحل، وينكرون معرفتهم بمن بنى، ومتى، عند حضور مفتشي البلدية! إذا لم يساعدوا بعضهم فمن سينصرهم؟!

عندما ضاقت الدنيا بأم "مهدي" في تلك الغرفة المستأجرة من مالك أحد بيوت الليل، طلبت من زوجها البحث عن قطعة أرض، وليفعلوا ما يفعله الناس من حولهم. كان الزوج يشعر بالخوف من تعريض نفسه للحبس والمُساءلة؛ لكن أصبح العيش لا يطاق مع تسعة أبناء داخل حجرة صغيرة، ملحقة بمنزل. انتهوا من البناء في ثلاثة أيام، ودفعوا لمفتش البلدية خمسة آلاف ريال، ليغض الطرف عما رأى أو سمع. وها هو "مهدي" يرى وجع "مدينة الليل" من نوافذ منزله أعلى الجبل، ويسأل نفسه عن سكان تلك المنازل المضاءة المترامية الأطراف أمامه في صنعاء: هل ينعمون بالدفء أم أن حوائط منازلهم تمنحهم صقيعا يشبه صقيع منازلهم؟ وهل سدوا شقوق حوائطهم بخرق قديمة كما فعلت أمه لحين طلائها أم أنها مطلية.

لمنزل "مهدي" ثلاث حجرات، إحداها للأولاد، وأخرى للبنات، والثالثة للأب والأم. تصرِّف مجاري حماماتهم إلى الشارع مثل باقي المساكن، لا تشم الدولة تلك الروائح الكريهة؛ لأنها بعيدة وعالية عنهم؛ وتساعد شدة أشعة شمس صنعاء بتجفيف فضلاتهم إلا أنها لا تمنع عنهم تلك الرائحة.

عاد "مهدي" لأمه في تلك الليلة فخورا بإنجازه. أم "مهدي" قصيرة القامة ومكتنزة الجسم. ترتدي "الزَّنَّة" والسروال، وتضع على رأسها "المقرمة" السوداء بعد أن تلثم بها وجهها، ومن ثم تميطها عنه ليبدو وجهها كقرص القمر في استدارته، ويزيد من جماله صفاء بشرتها البيضاء المميزة لها في الحي. وضع "مهدي" رأسه على حِجرها وحاول الاسترخاء؛ لكنها نهرته، فقد نسيت أو تناست حركاته تلك وهو صغير. وقالت له:

ـ قد أنت شحط وركبتي توجعني ولا تحملك.

استعطفها بسكوته، ومن ثم نظراته، فوافقت. استكان لحِجرها، وأغمض عينيه كمن يريد أن يغيب عن محيطه. طلب منها أن تمسح بيديها على شعره، بعد أن أزال "مشدته"، ففعلت. شَعْرُ "مهدي" طويل، يصل إلى كتفيه؛ لكن "المشدة" تخفيه تماما. لونه رمادي، يشبه لون الجبل ولون طوب المنازل في "مذبح" وكأن المدينة تنصهر في شرايين ساكنيها.

راح "مهدي" يحدث والدته عن تعبه في العمل في محل الدجاج. كشف لها عن جروحه الكثيرة التي أصبحت تملأ يديه، ورغم كل هذا التعب لم يستطع توفير المال الكثير ليحقق حلمه ويملك مشروعه! عندما بدأ يحكي لها عن شرائه للعربة وإسطوانة الغاز وذهابه إلى "ساحة التغيير" لم يشعر؛ إلا وقد هوت بيدها وبكامل قوتها على وجهه. فزّ "مهدي" من على ركبتها كمن لدغته أفعى وهو في قمة دهشته من تصرفها، لم تضربه منذ زمن، منذ أصبحت غير قادرة على توفير أبسط أشيائهم. تركت الحياة وتقلباتها تعلمهم واكتفت بالفرجة. ارتفع صوتها بشكل هستيري وقالت بغضب:

ـ (هل سرت عند هولا المتمردين المخربين اللي يشتوا رئيسنا يرحل، يرحلوا هم وإلا يشلوهم الجن!).

لم يكن "مهدي" يشاهد التليفزيون ليعرف ردود الأفعال المختلفة على ثورة الشباب، بينما أمه تظل أمام التلفاز تتابع القناة الأرضية، التي لا يوجد غيرها، طوال اليوم، وتسمع كل ما يتم بثه. الصفعة التي تلقاها "مهدي" كانت قوية. لم يجد ما يرد به على أمه غير أنه لا دخل له بالسياسة، هو فقط يبيع معد وأكباد الدجاج على عربته ليجني المال

ويستطيع تحقيق مشروعه القادم: محل كبير لذباحة وبيع الدجاج. ولما لم تتوقف عن تبكيته بما فعل، تركها مستمرة في ثورة غضبها وخرج. يلتقط أنفاسه أمام باب المنزل، جلس على دكته المرتفعة بدرجتين. رغم أن "مدينة الليل" مليئة بالروائح الكريهة، من المجاري التي صنعها الناس بأنفسهم ولم تُربط مع مشروع المجاري العامة للدولة، إلا أن الرياح الشمالية تأتي وتأخذ كل عفونة الهواء باتجاه جنوب صنعاء، حيث الشوارع النظيفة والمسفلتة. راح "مهدي" يفكر في كلام أمه ويرنو ببصره نحو تدرج المنازل على هذا الجبل الذي لا يعرف غيره منذ ولادته، ولا يعرف غير تلك الروائح الكريهة المنبثقة منه، والتي لا يفتكّون منها إلا في الليل، إذا ساعدتهم الرياح على التخفيف منها. شغل فكره كلام أمه عن الشباب وعن الرئيس المُطالب بالرحيل. سأل نفسه وعلامات الحيرة بادية على وجهه: "ماذا فعل الرئيس لأمي لتدافع عنه بتلك الصفعة القوية التي انهالت بها على وجهي ألا ترى حالنا وحال من في مذبح من ضنك العيش وقلة التعليم؟. تحسس خده وآثار أصابع والدته ما زالت بارزة عليه، ولما لم يجد جوابا، تسلل إلى الداخل بهدوء لينام، فهناك الكثير لاستكمال مشروعه، وعليه أن ينجزه في الغد.

•••

٢٦ فبراير ٢٠١١

شعر "مهدي" و"يونس" بالفرح عند عودة السيدات وشرائهن كمية من الدجاج ضعف الأيام السابقة. ومقابل الفرحة تلك زادت حيرتهما ولم يجدا لها جوابا منذ ثلاثة أيام. لذلك قررا أن يصيخا السمع لكل ما يدور

بينهن، ولو بأعذار تمكنهما من الاقتراب منهن ومحاولة سماع أحاديثهن الجانبية الأقرب للهمس. ولما لم يفلحا لجأ لحيلة أخرى، وهي عرض خدمات "يونس" عليهن بتوصيل الدجاج إلى منازلهن مجانا بعربته التي اشتراها البارحة مع "مهدي". منحهما البائع عرضا مميزا فيما لو اشتريا اثنتين بدل الواحدة. هذه المحاولة أيضا باءت بالفشل، فقد شكرته السيدات وأخبرنه بأن هناك من ينتظرهن بالسيارة على بوابة السوق. أصر "يونس" على حملها إلى السيارة، فلم يجدن غير الموافقة والامتنان.

تبعهن "يونس" بصمت. بدأت إحداهن بالحديث وكأنها نسيت أن "يونس" خلفهن، قائلة: "ربما من الغد لن نأتي لشراء الدجاج البلدي! هناك من تبرع بكمية من الدجاج المثلج الخارجي للشباب". لم تجد تفاعلا أو ردا للمعلومة التي قالتها، وبعد قليل قالت إحداهن: "أفضل؛ سنرتاح من هذا المشوار ونطبخ في المنزل كل ما سيحضرونه لنا".

وضع "يونس" الأكياس في السيارة، وناولته إحدى السيدات خمسمائة ريال. نظر إلى المبلغ وأردف أن ليس لديه مال ليرد لها الباقي. قالت له وكأن عينيها تبسمان من خلف لثامها: "كلها لك!". أربكته فلم يشكرها، بل أحكم قبضته على المبلغ واكتفى بهز رأسه مبتسما. تذكر أنها المرة الأولى التي يعطيه أحدهم هذا المبلغ دون أن يبذل جهدا. أعلى مبلغ تحصل عليه من عمله كان ٣٠٠ ريال، من سيدة قال لأمه إنها ليست يمنية؛ فقط لأنها لا تضع النقاب على وجهها. أخبرها أنها لم تتعبه كثيرا بينما الأخريات يتعبنه بالجري وراءهن وتحميل كل الأغراض الثقيلة والخفيفة دون مساعدة منهن، ومن ثم تفريغ حمولة العربة في السيارات الخاصة بهن أو سيارات الأجرة. كل هذا الجهد بمائتي ريال.

لذلك ظل يحلم برؤية تلك السيدة الكريمة ذات الوجه البشوش مرة أخرى.

عاد "يونس الحوتي" إلى "مهدي الريمي" وأخبره بما سمع، فشعر "مهدي" بالقلق مما سمعه، فهذا يعني أن يوم غد ستكون كمية بضاعته من معد وأكباد الدجاج قليلة. استطاع "مهدي" بعد ما سمعه من "يونس" فك شيفرة حديث السيدات؛ إنهن صانعات طعام شباب "ساحة التغيير". أنفقن ما لديهن من مساهمات بالمال وبيع بعض ذهبهن، والآن هن متطوعات فقط. هذا ما كان يدور من أحاديث في الساحة. تأتي الوجبات جاهزة للشباب من منازل حول الساحة، وبالسيارات محملة بالغذاء والبطانيات من خارجها. متبرعون محبون لثورة الشباب، مساندة حقيقية للتغيير، ورغبة في رؤية شروق شمس جديدة توزع أشعتها ودفأها بالتساوي على كل اليمنيين.

عاد "يونس" لأمه بكل تلك الأخبار وحكى لها قصة الخمسمائة ريال. استقبلته بابتسامة واحتضنته وهي تردد بهدوء وحزم في الوقت ذاته: "إياك والذهاب إلى ساحة التغيير مع مهدي! إياك! إياك! إياك!". وبسبب هذا التحذير راح "يونس" يجتهد ليفهم كل ما يحكيه له "مهدي" عند عودته من الساحة، وهو بدوره يحكيه لأمه، التي لم تكن تجد إجابات تشفي غليل "يونس" و كل ما استطاعت قوله أن "هذه ثورة على من كانوا سببا في قتل أبوك وفي ذهابه للحرب"، وتزيد: "الله ينتقم منهم لأنهم رملوا النساء ويتموا الأطفال. هذه الثورة هي انتقام لكل المظلومين من الحكام الفاسدين اللي أكلوا مال الشعب". وعندما لا تستطيع أن تكمل تشعر بغصة في حلقها وتجهش بالبكاء. تحتضن "يونس" و"أمل" وترنو بنظرها إلى شقيقهم "محمد" المعاق في ركن الحجرة وتبكي بصمت.

تنظر إلى "يونس" وتحذره من جديد: "إياك والذهاب إلى الساحة مع "مهدي"! لا تجعل حسرتي عليك بعد أبوك. سينصرهم الله؛ لكن أنت لا تذهب! لا تذهب!".

•••

١ مارس ٢٠١١

في ذلك الضحى كيف ليونس ألا يعصي كلام أمه، وتحذيرها له من عدم الذهاب إلى "ساحة التغيير"، ويرضي فضوله ورغبته الشديدة في زيارتها. الساحة التي أصبح "مهدي الريمي" لا يتوقف عن الحديث عنها، راسما ليونس عالما من المحبة لبناء وطن جديد وتغيير سيجعل "زلط الشعب تتقسم على الشعب، مش للفاسدين اللي نهبوها لأنفسهم"، يقول "مهدي" وبحماس.

وقبل أن تلقي الظهيرة أشعتها الحامية على رأس "يونس الحوتي" وجد له عذرا مناسبا لزيارة "ساحة التغيير"، عذرا سيمكنه من الرد على أمه لو استاءت من تصرفه في الوقت ذاته؛ لكن عند عودته من الساحة وليس قبلها. كان عذر "يونس" هو أن يوافي "مهدي" بالكيس الذي نسيه من حصيلة اليوم من معد وأكباد الدجاج، وبذلك يكون قد أدى خدمة لصديقه ورأى "ساحة التغيير" ووجد عذرا مناسبا لأمه؛ فكيف يترك صديقه ويترك بضاعته تخرب دون أن ينقذه؟!

افترض "يونس" أن "مهدي الريمي" قد وصل إلى الساحة، وسيصاب بخيبة أمل، لأنه لن يتمكن من العودة لأخذ ما نسيه حتى لا يضيع الوقت. رسم في خياله صورة "مهدي" وعلامات السعادة بادية على

محياه لو وجد بضاعته التي نسيها بين يديه وهو لم ينته بعد من الكمية التي لديه. لكن المشكلة التي واجهت "يونس الحوتي" بعد أن اتخذ قرار الذهاب، هي أنه لا يعرف كيف يصل إلى "ساحة التغيير"! والأكثر تعقيدا كيف يصل إلى عربة "مهدي"!

توجه "يونس" إلى بوابة "سوق علي محسن" الرئيسية، وسأل عن خط سير الحافلة الأقرب إلى "ساحة التغيير". شرح له أحد المارة كيفية الوصول، وأن كل ما عليه هو عبور الشارع بحذر إلى الجهة الأخرى المتجهة إلى الساحة. تكثر حوادث السير في هذا الشارع، لانعدام جسور المشاة، مما يضطرهم لعبور الطريق بحذر، إلا أن الشارع لا يسمح بغير السرعة التي تزهق أرواح الكثيرين. أنزل سائق الحافلة "يونس" في "جولة مذبح" وقال له ساخرا:

- ادخل من هذه البوابة وامشي طوالي، عتلاقي الساحة أمامك؛ لكن انتبه يضحكوا عليك هولا المجانين، قاللك ثورة بلللم بلللللم!

انطلق السائق بحافلته ليواصل خط سيره تاركا "يونس" في حيرة تفسير كلامه، الذي لا يتفق مع كلام "مهدي" عن الثورة والثوار. كان هذا هو حال الشعب: مع وضد؛ تماما كحيرة "يونس"! عليه الآن أن يعبُر ذلك الدوّار ليصل إلى الجهة الأخرى من الطريق المؤدي إلى البوابة. لم يمانع الحارس من دخوله، فقط فتش ما في يده وسأله عن وجهته وتركه يدخل. تبتعد البوابة الغربية للجامعة عن الشرقية مسافة كيلومتر تقريبا. خطوات "يونس الحوتي" فرحة، وابتسامته لم تفارق محياه، رغم قيظ ظهيرة صنعاء التي تفاخر بها في كل الفصول. على جانبي الطريق تتوزع مباني جامعة صنعاء، التي يراها "يونس" للمرة الأولى. يقف لبعض الوقت أمام اللوحة المعدنية المعلقة على الجدار الخارجي، محاولا

تهجئة الحروف ليعرف اسم الكلية. على يمينه قرأ اسم أول كلية: "كلية الهندسة"؛ مبان بنية اللون متفرقة يربطها ممرات وأشجار تظهر للمار بوضوح من خلال سورها المعدني الأنيق. على يساره كان واضحا أن هذه مبان سكنية، ربما تكون لمدرسي الجامعة أو لمن يعملون فيها! واصل سيره مسافة مائتي متر تقريبا وقرأ على يمينه: "مركز دراسات النوع الاجتماعي". عبر الشارع إلى الجهة المقابلة ليقرأ: "مركز الدراسات السكانية". واصل سيره وعبر الشارع عائدا إلى اليمين ليقرأ: "كلية الزراعة"، وعلى يساره بمسافة قليلة: "إدارة الجامعة". استهوته فكرة عبور الشارع كلما وجد لوحة معدنية على يساره. هذه المرة قرأ: "كلية الشريعة والقانون"، ومن ثم عبر ليجد أمامه سكن الطلبة، الذي كان واضحا أنه بدأ يفقد صلاحيته للسكن، نتيجة تهدم بعض أجزائه وسوء حالة نوافذه المهترئة. اللوحة التالية على اليسار والتي استطاع قراءتها دون أن يعبر الشارع لأنها كانت واضحة هي: "كلية التجارة والاقتصاد". استمر سيره باتجاه البوابة التي سينفذ منها إلى الساحة، كما أخبره سائق الحافلة. اقترب أكثر من مدخل الساحة الشرقي. يحمل الكيس الأسود في يده، وعقله مشغول بتذكر وصف "مهدي" لموقع عربته. اجتهد ليستعيد حديث "مهدي" عن موقع عربته المميز الذي يمكنه من رؤية المنصة والاستمتاع بكل ما يدور فيها من خطابات تأييد لثورة الشباب، ومن أغان حماسية ثورية، ومن تبرعات بسيطة تجود بها النساء للشباب مما لديهن من ذهب أو مال.

مع اقتراب "يونس الحوتي" من البوابة بعدة أمتار، تناهى إلى مسامعه صوت الأناشيد الصادحة بكلمات ثورية حماسية، فشعر بقلبه ينبض بشدة كأنه مُقبل على أمر عظيم. فجأة، ودون سابق إنذار، شعر

بجسده الصغير يُلقى بعيدا عن مساره، وبقوة أوقعت كيس بضاعة "مهدي" من يده وتناثر بعض محتوياته على الأرض. حاول ألا يهوي أرضا بترنحه في كل الاتجاهات. ارتفع صراخه ولعناته حسرة على بضاعة "مهدي". والتفت غاضبا ليرى من فعل به هذا؟ ولهول ما رأى توقف عن سيل الشتائم التي كان ينوي رشها على من فعل به هذا! توقف مرغما؛ فمن دفعه وأوقع كيسه كان جنديا يرتدي بذلة مرقطة كقوات الصاعقة. لم يزح الجندي "يونس الحوتي" فقط عن الطريق، بل كان يبعد المشاة المتوافدين على البوابة ويحثهم على الانتظار قليلا وبصوت جهوري حازم. ذُهل الجميع مما فعله الجندي. استوعب يونس أن صراخه ولعناته المكتومة لمحاسبة الفاعل غير مجدية، وراح يحاول جمع ما سقط من كيسه على الأرض. ربما لو غسلها "مهدي" جيدا سيزول ما علق بها من تراب! شعر "يونس" بخيبة أمل كبيرة قبل أن يدخل الساحة. أخبره "مهدي" ألا سلاح داخلها، وهذا الجندي الأرعن على كتفه بندقية وحول خاصرته مسدس. حزن أكثر على نصف البضاعة التي فقدها، وأن فرحة "مهدي" لن تكتمل! ومع ذلك حاول الدخول؛ لكن دخول كل من توافد في تلك اللحظة كان مؤجلا. أعلن الجندي أنه بانتظار وصول شخصية مهمة ستزور الساحة، وإلى حين وصولها لن يدخل الساحة أحد.

انتاب "يونس" في تلك اللحظة فزع شديد. شعر بأنه قد لا يعود لأمه، وأن ما يحدث الآن هو نتيجة عصيانه لأوامرها. ولبرهة شعر بالحنق على "مهدي"؛ لأنه لم يخبره الحقيقة، وأن في الساحة جنودا وأسلحة. انتبذ لنفسه مكانا بعيدا عن الناس ليراقب ما يحدث. بعد لحظات تقدمت من البوابة أربع سيارات "تويوتا". الأخيرة يطلق عليها "حبة وربع"، راح

يتقافز منها وهي ما زالت تسير ثلاثة جنود بالزي المرقط ذاته، أجسامهم ضخمة، حليقي الرؤوس، بلحى سوداء كثيفة، في حركات تشبه حركات جنود المارينز الأمريكية. تقدم أطولهم إلى السيارة الأولى وفتح بابها بيده اليمنى، وبحركة آلية مد إصبعه لزر فتح مظلة شمسية باليسرى . اتكأ "يونس الحوتي" على أطراف أصابعه ليبدو جسده أطول ليتمكن من رؤية من الذي سينزل؛ لكنه لم يستطع، لمح فقط المظلة التي تظلل رأسه وهو بين تلك الحراسة المشددة. سمع أصوات الجنود وهم يأمرون المارة أن يفسحوا الطريق أمامه. أصر شباب الأمن في البوابة على تفتيش تلك الشخصية، وعلى منع دخول الجنود بأسلحتهم؛ فصرخ بهم أحد الجنود بلهجة حادة: "ألا تعرفون مع من تتكلمون؟!".

دخل الرجل من البوابة رغما عن الجميع، وتبعهم "يونس الحوتي"، في حين تعالت الأصوات من حول الجنود متذمرة من همجيتهم في إبعاد الناس داخل الساحة وتعديهم على شباب الأمن وعدم الانصياع لقوانينهم. لم يفرق الجنود بين إزاحة النساء والأطفال والشباب عن الطريق ليسير عليها الضيف.

يصر"يونس الحوتي"على متابعة المشهد ممسكا ببضاعته؛ لكن بقوة هذه المرة حتى لا يعدم ما تبقى منها، تاركا لبصره مراقبة الموكب وأين سيستقر.

أثناء مرور موكب الضيف كانت علامات الفرح بادية على ملامح بعض الشباب، وعلامات الغضب بادية على البعض الآخر، وهذا ولّد لدى "يونس" فضولا أكثر لمعرفة السبب، وراح يتابع مسار الموكب. إحدى الثائرات تصرخ في وجه الجنود وتستنكر دخولهم بالسلاح إلى الساحة وثورتهم سلمية وساحتهم خالية من السلاح. أزاحها أحد الجنود بقوة

حتى أوقعها أرضا، تاركا صراخها يعلو خلفهم كصدى ليس له قيمة. اخترق الموكب الخيام التي نصبت على جانبي الطريق، والتي اختلفت أحجامها وأشكالها ومهامها. لم يجد "يونس" وقتا ليقرأ ما كُتب عليها من الخارج منشغلا بالموكب؛ لكن الخط الكبير الذي كان يراه أمامه جعله يمر على "خيمة الأكاديميين"، وعلى "خيمة الإعلاميين"، وعلى "خيمة أحرار التغيير". حتى وصل إلى قرب المنصة، محاولا اختراق الجموع الغفيرة أمامها، ليجد نفسه في موقع قريب مكنه من الاستماع لما سيدور.

كان كل شيء في "يونس" يعبر عن دهشته؛ عيناه اللتان راحتا تدوران في كل الأرجاء، يده الحاملة للكيس والأخرى على رأسه لتحميه من أشعة الشمس، قدماه المتنقلتان على الأرض والباحثتان عن مكان جيد لوقوفهما أو لراحتهما. كل شيء جديد وطازج ولا يملك أمامه إلا المراقبة.

صعدت الشخصية المهمة بجنودها على المنصة. أوقفت الموسيقى الصادحة من الميكرفون، لأن أحد الشباب صرخ أن الشيخ لا يحب سماع الموسيقى. ورد عليه شاب آخر بنبرة تحدّ: "إنها ساحتنا ونحن أحرار، نسمع فيها ما نريد، وليست ساحة الشيخ!". الجنود مدججون بالسلاح ومحيطون بالمنصة من كل اتجاه. حامل المظلة مازال حاملا لها دون كلل أو ملل. الشاب مقدم الفقرات على المنصة يرحب بالشخصية ويطلب من الجموع الغفيرة أمامها الهدوء ليتحدث إليهم "الشيخ عبد المجيد الزنداني". صفق له الجمهور، وراح يصيخ السمع لما سيقوله. الشمس تلقي بلهيبها على تلك الجماجم، والشيخ تحت مظلته يتحدث إليهم باستفاضة. بدت ملامح الشيخ غريبة بالنسبة ليونس. ربما لم يفهم

جُل ما قاله؛ لكن شروده كان سببه تلك اللحية الحمراء التي تميز وجه الشيخ، وعمامته البيضاء التي كانت كفيلة بأن تخفف قيظ الظهيرة لولا إصرار الجنود على حمل المظلة. التفت "يونس" ليبحث له عن فيء يستظل به أو مخرج ينفذ من خلاله ليبحث عن "مهدي". اصطدمت عيناه بتلك الوجوه الكثيرة للنساء أسفل المنصة تماما. هذه هي المرة الأولى التي يرى فيها نساء بهذه الكثرة بلا نقاب يُغطي وجوههن. ابتهج دون أن يعرف سببا لابتهاجه؛ ربما شعر أن الساحة كلها وجه امرأة بغطاء شعر ملون! زاد من سعادته رؤيته لتلك المرأة التي ناولته ذات مرة في "سوق علي محسن" ثلاثمائة ريال كأجرة على ما حمله لها من بضائع. كانت منهمكة في متابعة كلام الشيخ غير مكترثة بحرارة الشمس. إنها الوجه الذي لا يمكن أن ينساه. تفضل النساء تغطية وجوههن عند الذهاب إلى السوق؛ لكنها كانت أول وجه يراه دون لثام، وأول وجه يمنحه تلك الراحة وذلك المال. كانت شفتاها تتحركان كلما تمادى الشيخ في حديثه؛ وكأنها ترد عليه بتعابير صادرة من وجهها تقول إنها كانت في قمة استيائها لما تسمعه، خاصة عندما كانت ترفع يديها رافضة أجزاء من الحديث بين فترة وأخرى.

عندما تمكن "يونس" من صعود درجات السلم وئيدا، مستندا على أكتاف المتواجدين عليها، استطاع أن يلقي نظرة من أعلى على الساحة ليبحث عن "مهدي". واجه المنصة غير مكترث ببقية خطاب الشيخ وبما سمعه من تعليقات حول الخطاب من الشباب إلى جواره، وراح يرنو ببصره في كل اتجاه. لا يوجد على يمينه أي عربات أو مظاهر لبيع أي شيء، وعلى يساره لا يمكنه رؤية مكان العربات، لكثرة الناس. نزل الشيخ من المنصة برفقة جنوده ومظلته، ونودي لصلاة الظهر. ها هي

الفرصة أصبحت مواتية ليونس ليرى من أعلى تلك الأدراج عربة "مهدي" أثناء الصلاة. أُقيمت الصلاة. وقف المصلون في صفوف أعجبت "يونس" وشعر معها بالطمأنينة. عند سجودهم لمح بعض العربات على شمال المنصة؛ لكنه لم يلمح مهدي. "ربما كان معهم يصلي! ربما سيعود لعربته بعد الصلاة! المهم أن أتوجه إلى تلك العربات للبحث". هكذا حدث نفسه.

التفت "يونس" إلى الخلف حال سماعه صوت "مهدي" يناديه. ابتهج وجرى باتجاهه واحتضنه كأنه لم يفارقه منذ ساعات. شرح له معاناته حتى وصوله إلى هنا. أراه الجروح التي سببها له الجندي حال سقوطه على الأرض، وأنه قد استغنى عن بعض ما سقط من بضاعته حتى لا تتأذى البقية.

كان "مهدي" قد أنهى ما لديه من بضاعة. وبعد سماعه عن معاناة "يونس" وحضوره إلى الساحة دون إذن أمه، وضع ما أحضره "يونس" سريعا في ثلاجة المحل الذي أمام عربته من الجهة الأخرى، وتوجه معه للعودة إلى "سوق علي محسن" قبل أن تبدأ أمه في البحث عنه. كانت الساحة قد بدأت تفقد زحامها تدريجيا بعد أداء صلاة الظهر. عاد من حضر للمشاركة في فعاليات الساحة المختلفة فوق المنصة وعلى المنافذ الأمنية وفي إحضار الغداء. واستكان أصحاب الخيام لأخذ قيلولة ومن ثم تناول الغداء. لذلك استطاع "مهدي" و"يونس" الوصول سريعا إلى المنفذ الشمالي للساحة وركوب أول حافلة ذاهبة إلى السوق. في الحافلة حذر "مهدي" "يونس" ألا يُخبر أمه بحضوره إلى الساحة، ورجاه ألا يكرره مهما حدث؛ إلا بعد أن يستأذنها. كانت نظرات "مهدى" تقول إنها ممتنة لما فعله "يونس"؛ لكنه يعرف أمه جيدا وحالة خوفها على صغارها التي يعرفها معظم سكان السوق. يشعر "يونس" بالوحدة لكثرة لاءات

وممنوعات أمه وبعض صديقاتها، ويستغرب حالة بعض أصدقائه في السوق من عدم سؤال الأهل عنهم. يدخلون ويخرجون من وإلى السوق بمنتهى الحرية. يعودون إلى منازلهم في أوقات متأخرة دون أن يتم سؤالهم أين كنتم؟! المهم ألا يُقصّر الابن في دفع المبلغ المطلوب منه آخر اليوم دون سؤاله من أين أو كيف حصل عليه. يجد بعضهم سهولة في التسول، وبعضهم في العمل، والبعض الآخر في الكذب لاستدرار عطف الناس. المهم المال، ولا يهم كيف حصلوا عليه!

استقبلت أم "يونس" ولدها و"مهدي" بالصراخ. حذرتهم من الكذب عليها؛ لأنها ذهبت إلى المحل ووجدته مقفلا، فأين كانا؟! لم يرتبك "مهدي" وأخبرها بهدوء أنها غلطته، فقد استعان بيونس في مساعدته لإكمال شراء متطلبات مشروعه الذي سيكون في "ساحة التغيير"! صمتت لبرهة ومن ثم وجهت كلامها بحزم لمهدي وهي ممسكة بيد "يونس":

ـ عند الله وعندك يا ابني، ما معي إلا يونس، ابعده عن مشاريعك وعن الساحة!

اعتذر لها "مهدي"، ووعدها ألا يكرر ما فعل. تبادل "يونس" و"مهدي" نظرات الامتنان ومضى كلّ لحال سبيله؛ "يونس" دخل منزله، و"مهدي" عاد إلى ساحته.

•••

بعد أن أدخلته إلى المنزل، راحت أم "يونس" تعاتبه على الهلع الذي شعرت به عندما لم تجده في المحل. كررت على مسامعه نصائحها التي أصبح يحفظها عن ظهر قلب. تركها بعد أن أنهت جام نصائحها، واختلى بذاته في ركنه المفضل على طرف الصخرة التي يقع عليها

منزلهم، متأملا السوق والمدينة المترامية الأطراف أمامه. لقد عمل في معظم أرجاء هذه السوق. هو تقريبا يحفظ كل شبر فيه. اشترت له أمه وهو في الثامنة عربة صغيرة يتبع فيها الزبائن، يحمل عنهم ما يشترونه، ومن ثم ينقلها إلى سياراتهم. وجد صعوبة في كيفية إدارة تلك العربة الأكبر من حجمه. انزلاق مقبضيها من بين كفيه الصغيرتين سبب له في باطنيهما تقرحات، تفطرت صديدا، ثم دما، حتى أصبحت جزءا زائدا يجيد التعامل معه. كره عراكه مع الأولاد في مثل سنه وهم يتهافتون للفوز برضا الزبائن. استجداء تلك الإشارة من يد الزبائن أو إيماءة من الرأس كانت هي منتهى الآمال له وللأطفال من حوله. ذات صباح وجد لهم "يونس" حلا مثاليا. أمرهم بالوقوف صفا طوليا حسب وصولهم إلى بوابة السوق، ومن ثم يصل الزبون ويتقدم من عليه الدور دون عراك؛ لكنه لم ينجح، فقد تحايل عليه بعض الصغار وبدأوا في اصطياد الزبائن من الشارع، وهذا أثار حنق من سمع كلامه، واتهموه بالتواطؤ معهم، اجتمعوا حوله وأوسعوه ضربا حتى سالت الدماء من أنفه ويديه المتعبتين وهو يتصدى للكماتهم، وطردوه من بينهم، باعتباره خائنا. لم يفلح في إقناعهم بأنه بريء، لذلك فاجأ أمه في الظهيرة بعودته بنصف مبلغ العربة، التي باعها لأحد الصغار رافضا الاستمرار في تلك المهمة المتعبة.

انتقل بعدها إلى سوق البضائع بالجملة، وهو في العاشرة. يحمل على ظهره الهش أكياس الدقيق والسكر وكراتين الحليب والصلصة والفول. ساعده عظمه العريض واكتناز اللحم في نصفه الأعلى على أن يقبله صاحب المحل في هذا العمل. لم يكن ليونس وفرة سوى في اللحم الكثير الذي يحمله على أكتافه ويدور حول بطنه. ملامح وجهه حادة.

وجنتاه بارزتان. شفتاه جافتان باستمرار من أثر الشمس والعمل طيلة النهار. قدماه متشققتان من تدلي نصفهما خارج "الصندل" البلاستيكي المنزلق نتيجة العرق. بشرة وجهه معلولة بالخدوش التي تترك آثارها بعد كل عراك في السوق مع الصغار أمثاله ومع الكبار الذين لم يقفوا إلى جانب الصغار يوما في السوق، بل على العكس تماما؛ هناك من كان يستغلهم جنسيا، وهناك من يأكل عرق جبينهم، وهناك من كان يخلف وعوده لهم بتجميع أجرهم اليومي ومن ثم الاختفاء نهائيا.

عندما انتقل "يونس" إلى الجزء الخاص بوصول البضائع من مزارع القرى المحيطة أو البعيدة شعر ببعض الراحة، رغم الإنهاك الذي كان يعانيه. المُزارع لا يخدع ولا يغش ولا يأكل أجر أحد. يتلقف "يونس" السيارة من خارج السوق ويتفق مع صاحبها على نقل البضاعة بعناية وحذر إلى مكانها دون إيذائها. وبعضها كان يقوم بتعبئتها ومن ثم نقلها إلى مكان بيعها. يأخذ أجرته بعد الانتهاء ويذهب لأمه فرحا.

مساحة "سوق علي محسن" كبيرة. مستطيلة الشكل. واجهتها الطويلة تقع على "شارع الستين"، والجهة المقابلة لها تستند على تلة بطول الضلع على الشارع. ضلعاها الآخران قصيران، أحدهما جنوبي والآخر شمالي. في مؤخرة السوق الجنوبية توجد سوق الدجاج. وفي نهايته الشمالية سور يفصله عن سوق "ذهبان" لبيع الفاكهة بالجملة.

في أحيان كثيرة كانت أم يونس تخرج من بيتها لتراقبه وهو يعمل، دون أن يشعر؛ تعرف ما يمكن أن يحدث له وهو في هذه السن الصغيرة. وفي بعض معاركه مع الأطفال لم تكن تتدخل، بل تفرح برؤيته وهو يدافع عن نفسه وعن حقه. في معاركه مع الكبار لم تكن تتدخل أيضا. كانت تتألم لانتصارهم عليه لطما أو ركلا أو شد أذنه حتى تنزف

دما. يعود لها بكل تلك الكدمات وتلك الجروح وهو راض أنه لم يتنازل عن حقه واستطاع الحفاظ على نفسه.

لم يصمد الكثير من أصدقائه أمام التحرش بهم من بعض المراهقين، وحتى بعض الكبار. كان الحصول على مبلغ محترم من المال بانحناء جسد ضعيف لمراهق أو لكهل أسهل من التعب طيلة اليوم! هؤلاء أصحاب المؤخرات المستعملة يفر منهم بعض الأطفال ويؤنبهم البعض الآخر. كان كل شيء واضحا بينهم ومعروفا. ذات صباح استيقظت السوق على صراخ أم وجدت جثة ابنها ذي السبع سنوات ملقاة في جزء ناء من السوق بعد هتكها بمنتهى الوحشية. لم تجد من يأخذ لها حقها أو يدلها على الفاعل، وأصبح كل من في السوق حذرا في متعته. حتى البيوت المحيطة لم تعد تتكلم، وتكتفي برد ستائر غرفها إذا ما رأت تلك الأجساد خلف أسوار الأراضي، أو تغض الطرف عن دكاكين يتم تأجيرها حول السوق لهذا الغرض.

تحذيرات أم "يونس" كانت صريحة. شرحت له كل شيء في وقت مبكر، وقالت له إن "سوق علي محسن" عبارة عن غابة من الوحوش، وعليه أن يكون أسدا ليدافع عن نفسه بزئير يصل أسماع كل من في السوق، أو ينهش كل من يحاول الاقتراب منه بأنياب حادة ومُدمية. كان يعشق وصفها له أو تدليلها بأنه "الرجّال" حقها وحاميها، لذلك قالت له: "قع رجال!". تنتفخ أوداجه ويرد عليها بمنتهى الثقة: "شاقع رجال ونص يا اماه". لم تمل من تكرار هذه الكلمة، كما لم يمل هو من الرد ذاته. تنقلاته للعمل في كل أجزاء السوق جعلته يشعر بقيمة العمل الأخير له في سوق بيع الدجاج. آخر صلة له بالسوق كانت في قسم الفاكهة عندما حدثت مشاجرة كبيرة أدت إلى قتل أحد الباعة. تطاول البائع ونظر إلى

زوجة أحد الزبائن وهو يضع صندوق التفاح في السيارة. تطاول أكثر في المرة الثانية ومرر يده عليها من الخلف وهو يضع الصندوق في وسط السيارة. لم يلمح الزوج النظرة؛ لكن اللمسة تلك كانت له عارا كبيرا. نزل من السيارة وأمسك به من رقبته. انتفض الفتى من الخوف وحاول إقناعه بأن ما حدث دون قصد، وأنه لم ينتبه أثناء وضع صندوق الفاكهة دون فائدة. كان الرجل قد جن جنونه وفقد أعصابه ولم يستطع أحد تخليص جسد الفتى النحيل من قبضته، ولم يتركه إلا جثة هامدة. انتفض "يونس" في مكانه وهو يرى ما جرى لصديقه. سأل نفسه: هل حقا مات نتيجة خطأ غير مقصود؟! وهل تنتهي حياته هكذا بمنتهى السهولة؟! لقد شاهد الرجل مُصرًا على قتله، ولو لم يساعده جسده النحيل وصحته الضعيفة على الموت في يد ذلك "العفط" لأخرج مسدسه وقتله دون رحمة. كانت المرأة مغطاة بالسواد وقابعة في مقعدها دون حركة. لم تصرخ أو تشتكي؛ لكن حظ الفتى السيء كان على التفاتة الرجل الذي لم ينزل من سيارته ليتأكد من وضع صندوق التفاح في المقعد الأوسط للسيارة. مات صديقك يا "يونس" هكذا بمنتهى السهولة، وشعرت كم حياته وحياة كل من يعملون في "سوق علي محسن" رخيصة، فهي إما لخدمة هؤلاء المتغطرسين بأموالهم في شراء صناديق الفاكهة أو لإمتاع من في السوق من مالكي أجزائه الكثيرة!!

عندما انتقل "يونس" للعمل في سوق الدجاج أصبحت هي كل عالمه، فمنذ عامين يشعر بالهدوء والراحة، وتشعر أمه بالاطمئنان. يذهب إلى بيته في وقت استراحته قبل الظهيرة ويعود ليواصل بنشاط. يأتي الزبائن إما باكرا في الصباح قبل ذهابهم إلى أعمالهم، وإما بعد الظهيرة. أما النساء فيأتين طيلة الوقت وعلى فترات متباعدة. أصبح كل حلمه أن يوفر مبلغا من المال ليشتري له محلا في سوق الدجاج، وأن

يكون لديه مُناد يشجع الزبائن على شراء بضاعته، وأن يعود لأمه كل يوم بأربع دجاجات، واحدة له وواحدة لها وواحدة لشقيقته "أمل" وواحدة لأخيه المعاق. حتى لو لم يأكلها، سيوزع بقيتها على الجيران المساكين، المهم أن يشبعوا من أكل الدجاج. وفي العام القادم سيدخل أخته "أمل" المدرسة، وسيجعلها تتعلم القراءة والكتابة والحساب لتعلمه كيف يمكنه أن يفتح محل دجاج في السوق دون أن يخسر. دائما ما يرى صاحب المحل الذي يعمل فيه يمسك بورقة وقلم. يعد الدجاج ويعد أقفاصها ويعد المال الذي يجنيه نهاية كل يوم. لا يترك أولاده يساعدونه رغم معرفتهم بالقراءة والكتابة. ثلاثتهم يدرسون ويلبسون ملابس نظيفة؛ لكن ليست غالية. ثلاثتهم يعطفون عليه وعلى أمه ويجودون عليهما بكل أشيائهم القديمة: ملابس، بطانيات، طعام، أدوات مطبخ.. كل هذا دون أن يعرف صاحب المحل أو زوجته. زوجة صاحب محل الدجاج لا تثق بزوجها. تشعر أن عينه "زائغة" وأنه لا محالة سيتزوج عليها. تختلق الأعذار لزيارته في المحل أو لمراقبته دون أن يشعر. وعندما يكتشف ذلك ينتهي بهما الأمر إلى شجار كبير يسمعه كل من في السوق. تجنبت أم يونس الذهاب لولدها في المحل، وإذا ما اضطرت أرسلت في طلبه لتجنب نفسها المشاكل مع تلك الزوجة المشتعلة بالغيرة، وليستمر الأبناء في العطف عليهم.

●●●

١٨ مارس ٢٠١١

استطاع "مهدي الريمي"، بحديثه الشيق عن جني المال، أن يقنع شقيقه الأصغر بالعمل في "ساحة التغيير" أيام الجمعة، التي يكثر فيها

المصلون والزائرون. وأنه من السهل جمع القوارير البلاستيكية التي تتوافر في الساحة بكثرة في تلك الأيام وجني المال في فترة قصيرة دون أن يكون عاصيا لكلام أمه. تقول أم "مهدي" ومعظم نساء منطقة "مذبح" إن هؤلاء الشباب: مخربون ويتعاطون المخدرات، وينامون مع البنات في الخيام، وهناك من يدفع لهم المال ليبقوا في الساحة، وأن لديهم أسلحة مخبأة، وثورتهم ليست سلمية كما يدّعون! لذلك منعت "مهدي" وشقيقه من الذهاب إلى هناك، حتى بعد أن حاول "مهدي" إقناعها بأن مشروعه لكسب الرزق، سواء كان في ساحة الثورة التي لا تعجبها أو في أي مكان آخر؛ إلا أنها ما زالت غاضبة منه.

تحمس شقيق "مهدي" لفكرة العمل ليوم واحد؛ لأن ما سيجنيه من مال أفضل من العمل المتقطع الذي يقوم به بين فترة وأخرى، إما على عربة متنقلة لبضائع أوشك تاريخ صلاحيتها على الانتهاء بأسعار رخيصة في "سوق علي محسن"، أو مناديا للركاب في حافلة تجوب الشوارع وفق خط سيرها، أو تجميع النحاس المتواجد في أسلاك مرمية في براميل القمامة وبيعها، أو النبش في الأكياس التي تنتظر سيارة جمع القمامة ودرج جامعو القوارير البلاستيكية والمعدنية وأسلاك الأدوات المستعملة على إخراجها من أكياسها دون شعور بأي ذنب.

استطاع "مهدي" أيضا إقناع "يونس" بالعمل أيام الجمعة مستخدما وسيلة الإغراء ذاتها مع شقيقه. فما سيجنيه من مال سيُسرع من امتلاكه محل الدجاج الذي يحلم به. وكل ما عليه هو أن يُخبر أمه بأنه سيصلي الجمعة وسيبقى مع أصدقائه ولن يعود قبل المغرب فلا تقلق عليه.

بدأ "يونس" وشقيق "مهدي" في تنفيذ متطلبات عملهما الجديد. مرا على محلات بيع القمح، لطلب الأكياس البلاستيكية الفائضة. تعاون

معهما البعض مجانا، وآخرون طلبوا ثمنا لها. انزويا في ركن وراحا يفكان تلك الأكياس ويخيطان لهما منها كيسين كبيرين لجمع القوارير البلاستيكية، وتوجها إلى "ساحة التغيير".

استقبلهما "مهدي" وكان قد جهز كمية من الماء البارد لبيعها للمصلين وجمع الفارغ منها، وأخبرهما أن يستمرا بعد الصلاة، تحديدا منذ العصر، في المرور على الخيام لجمع ما تيسر لهما، فالمتعاطون للقات في الخيام كُثر، وأشار عليهما بمكان مناسب لكبس تلك القوارير بالحجارة حتى تستوعبها أكياسهما قبل أن يمضيا بها إلى محل كبير يستقبل هذا النوع من البضاعة ويعيد تدويرها. يجمع الأطفال بين الثامنة والثانية عشرة القوارير البلاستيكية والعلب المعدنية طيلة النهار ويبيعونها آخره. يتقاسمون المبلغ ويعود كل منهم إلى منزله دون أن تعرف الأمهات شيئا.

في ظهيرة تلك الجمعة كان الأمر مختلفاً. اختنقت "ساحة التغيير" بجدران اسمنتية، من جوانبها الشرقية والغربية والجنوبية. الأحياء السكنية المجاورة للساحة، الموالية للنظام، ارتفعت بتلك الجدران على الأرض الأسفلتية لتمنع بها تمدد الخيام في وسط الحارات. اللون الرمادي لـ"البلوك" الاسمنتي المتراص فوق بعضه وصل لارتفاع تجاوز المترين، حاجبا الرؤية، وباعثا في النفس شعورا بالضيق والخشية من سقوطه في أي وقت.

يمر "يونس" بين صفوف المصلين الذين راحوا يتوافدون إلى الساحة لأداء صلاة الجمعة، لبيع الماء. شقيق "مهدي" يجمع الفارغ من القوارير البلاستيكية. كان عدد المصلين يزيد جمعة تلو أُخرى، منذ بداية الثورة. هذه الجمعة كان الأطفال الصغار يسيرون أمام آبائهم حاملين

سجاجيدهم على أكتافهم. يرتدي معظم المصلين قمصانا بيضا وأكواتا يغلب عليها اللون الأسود، وعلى خواصرهم "الجنابي" الصغيرة الحجم. تشعر عند رؤيتهم أنك ترى نُسخا مُبهجة من الآباء الذين كانت ملامحهم متجهمة في تلك الظهيرة المشتعلة بلهيب الشمس وحماس الثوار، كمن يترقب أو يخشى شيئا!

هناك من انتبه أن شمس الظهيرة لا ترحم، أثناء سماع الخطبة ومن ثم الصلاة على الأسفلت، في عرض الشارع، فجلب مظلة تحميه، وتحمي صغيره من لهيبها. وهناك من لم يجد بدا من التعرض لأشعتها واكتفى بوضع قطرات من الماء على رأسه ورأس صغيره لترتوي بها تلك الأشعة فتذهب بلهيبها عنهم ولو للحظات. ارتص المصلون في صفوف بهية لسماع خطبة الجمعة، التي سماها الثوار "جمعة الكرامة". هكذا درج الثوار على تسمية جمعهم بأسماء ثائرة، ومعبرة عما يدور في مراحل ثورتهم، فقبلها كانت "جمعة الغضب"، وسابقتها "جمعة البداية"، واليوم هي "جمعة الكرامة". أنهى الخطيب خطبته ونادى جموع المصلين للصلاة. عمَّ الهدوء، وخشع الجميع للصلاة. ما إن فرغوا من الصلاة حتى تقافزت رائحة دخان كثيف في سماء الساحة. توجهت أنظار المصلين نحو مصدره، فإذا بها من خلف ذلك الحائط الإسمنتي القبيح، خلف ظهورهم جنوبا. تعالى الدخان حتى تجاوز ارتفاع المباني القريبة، وبدأت ألسنة اللهب تتصاعد بقوة، أجج من سعيرها الرياح التي هبت. هرب المصلون من أمامها، خشية سقوط الجدار عليهم، وتدافع الشباب بحماس لإنقاذ من هم خلف ذلك الجدار.

وفي ذهول الجميع، صمَّ الفضاء أصوات رصاص موجه إلى صدور المصلين. كان الموت فاغرا فاه ليبتلع الجميع. لم يكن مختبئا كعادته خلف

أعذار وأسباب لينتزع بها الأرواح. كان صريحا، واضحا، ومُسيرا من جماعة لا تريد غيره، ولن يرضيها غير رؤية تلك الأجساد التي اتشحت ببياض الثياب، وصفاء العبادة؛ إلا أن تكون مليئة بالدم. لم يستوعب المصلون ما يحدث إلا بعد أن بدأت الدماء تسيل على الأسفلت والجثث تتساقط عليه، راحت الجموع تبحث لها عن جدران أخرى للاحتماء من الموت الذي هطل عليهم من سماء قذرة تعلو رؤوسهم لمنازل اعتلاها قناصة وجوههم مغطاة إلا من أعين لا تخطئ تصويب رصاص بنادقها نحو قلوب ورؤوس المصلين.

أسرع شقيق "مهدي" الخطى باتجاه "يونس"، الذي كان فزعا ويبحث عنه. كان الوجه الوحيد الذي يعرفه بين كل هؤلاء الناس، بل إنه الأمان الذي سيقول له ما يحدث وماذا يفعل وكيف ينجو! كأن شيئا يقفز أمامه لا يعرف ما هو! ربما كان قلبه، وربما كان قلب أمه التي أتته في تلك اللحظة، ولا يمكن لأحد أن يراه غيره! احتار شقيق "مهدي" كيف يمكنه أن يشرح ليونس ما يعتريه من هلع في تلك اللحظة؛ لكنه اكتفى بالصمت، في حين تحدثت ملامحه لتقول: أنا خائف! أنا مرعوب! أين "مهدي"؟! وأين المفر من كل هذا؟! لحظات وتحولت تلك الملامح إلى نقيضها تماما، صارت هادئة، مستكينة، بل مبتسمة، وكأنه يرى أمه فاتحة ذراعيها لاحتضانه، ليست غاضبة منه كما اعتقد؛ لكنها تربت على كتفيه وقد لفت ذراعيها حوله وهو يمعن النظر إلى والده المجنون الذي لوّح له بيديه كمن يودعه وأصبع يده تشير إلى تلك القيود التي كان يفتحها له لساعات دون أن تعرف أمه بذلك، يتحدث فيها معه دون أن يفهم منه كلمة. وخلف النافذة رأى بنت الجيران التي تصغره بعام وهي في ركن لقائهما حزينة، تصرخ في وجه "مهدي" دون أن يعرف ما تقول

له! أما أختـه التي توفيت في ليلة زفافها فكانت فاتحة ذراعيـها له من بعيد وتومئ بكفها له ليحضر ويذهب معها.

لم يتمكن شقيق "مهدي" من شرح كل ذلك ليونس، ولم يجد له تفسيرا سوى نظرات الرضا التي استبشر بها عندما رآه. راحا يبحثان لهما عن مخرج يحميهما أو جدار يلوذان إليه. ترك "يونس" نصف كرتون الماء الذي لم يبعه، بينما شقيق "مهدي" حمل كيس قواريره خلف ظهره. عندما أوشكا على دخول أحد الشوارع الفرعية للطريق الرئيسي شعر "يونس" بتأخر شقيق "مهدي" عنه لبرهة. وعندما استقرا أمام ذلك المنزل الصغير الذي فتح بابه لهما ليحتميا سقط شقيق "مهدي" على الأرض. التفت إليه "يونس" وراح يسأله عما به! ولما لم يجد جوابا تيقن أنه قد أصيب بطلق ناري؛ لكن أين ولا يوجد قطرة دم واحدة تسيل من جسده؟!

وضع شقيق "مهدي" كيس قواريره إلى جانبه وألصق ظهره إلى الجدار ليرتاح. نظر إلى "يونس" بوجه طغى على قسماته الذهول! هل مما حدث له؟! أم مما يحدث حوله؟! أم مما يعتريه في تلك اللحظات وهو غير قادر على أن يتحدث به لأحد؟! تدحرج جسده الصغير عن الجدار ورفس برجليه كيس قواريره التي جمعها. أغمض عينيه بهدوء وراح في نوم عميق. "يونس" مفزوعا يهز جسده ليتحرك، يفتح بيديه عينيه ليستيقظ! ولما لم يفلح في إنقاذه استسلم، وبدأ يصرخ ضاما جسده الصغير إليه. يُكبر المارون من حوله: الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله والشهيد حبيب الله. يرفض "يونس" ما يسمعه منهم: "لا ليس شهيدا، لم يمت، هو مدوَّخ فقط من الخوف وصوت الرصاص". طلب منهم مساعدته لإسعافه إلى المستشفى الميداني. يُلقي له صاحب المنزل، ذي الباب

المفتوح لاستقبال من أراد اللجوء إليه، بطانية سوداء، يُمَكنه من وضعه فيها ونقله إلى المستشفى. يجد من يساعده سريعا فقد كان الكل في خدمة الكل. يرفعون من يسقطون، ويسعفون من ينزفون دما من أماكن متفرقة من أجسادهم. كان رصاص القناصة ذكيا ولماحا ويصيب الهدف من أول تصويب. اختار مواضع لا يمكن لاختراقها إلا أن يسبب الموت، أو عاهة مزمنة مدى الحياة: الرأس، القلب، الرقبة!

أراد "يونس" أن يطير بجسد شقيق "مهدي"، المستكين في قلب بطانية سوداء، يحملها مع أحدهم باتجاه المستشفى الميداني. في الطريق لمح "مهدي" متجها في الجهة الأخرى، وعلامات الهلع بادية على ملامحه. أوقفه صوت "يونس" مناديا. راح يبحث عن مصدر الصوت. قفز إلى الجهة الأخرى بعد أن رأى "يونس".

نظر إليه برجاء وخوف وترقب، محاولا ألا يسأله أي سؤال عن شقيقه. صمت. أراد "مهدي الريمي" أن يخبره "يونس" عن كل أهوال العالم؛ إلا أن يقول له إن ذلك الجسد الذي يحمله هو جسد شقيقه الأصغر! لكنها الحقيقة، ولو لم يقلها "يونس". أمسك "مهدي" بطرف البطانية بدلا من المسعف الذي ساعد "يونس" وانطلقا باتجاه المستشفى الميداني. أملهما أن يسبقا الزمن للوصول وجُل ما يتمنيانه أن يكون ما زال على قيد الحياة.

كان قد تم تحويل المسجد في بداية شارع الجامعة الجديدة والقريب من منصة الساحة إلى مستشفى ميداني. ساحة فسيحة حولها تم بناء حمامات لمرتادي الساحة وإضافة تجهيزات خاصة بالفضاء المفتوح والمغطى أمام المسجد. لم يعرف "مهدي" أين يتوجه وإلى من يذهب بجسد شقيقه. وقف مشدوها في البوابة. الساحة الأمامية للمستشفى

يتعالى فيها دون توقف دوي إنذار سيارات الإسعاف، وصول المصابين، وتوافد الأهالي. تقدم "مهدي" و"يونس" باتجاه الصرح المسقوف لاستقبال المصابين، استقبلتهما ممرضة، سألته هل من في بطانيته جريح أم شهيد؟! ولما لم يجد جوابا على سؤالها طلبت منه أن يتبعها! وضع "مهدي" جسد شقيقه على الأرض، مذهولا من كمّ الأجساد التي إلى جواره، بعضها ينزف، وبعضها يتألم، وبعضها توقف عن الحركة. طلبت الممرضة من أحد الأطباء رؤية القادم الجديد، وتشخيص حالته. كان واضحا للطبيب أن الجسد الممدد أمامه فقد الحياة. لم تمهله الرصاصة الجبانة التي اخترقت قلبه من الخلف وقتا ليبيع قواريره، ويعود لأمه فرحا بالنقود.

حاولت الممرضة تهدئة "مهدي" من هول صدمته، وطلبت منه إبلاغ وإحضار أهل المتوفى إن كان يعرفهم! كتبت الرقم "١٨" ووضعته على جثة الصغير وتناولت خيطا أبيض وراحت تضم يديه لأعلى صدره وتربطهما، وخيطا وقطعة قماش أخرى ضمت بها فكه لأعلى. أما عيناه فكانتا مغمضتين بطمأنينة نائم.

استمر الرصاص في اختراق أجساد الثوار، وأجساد عابرة لا علاقة لها بالثورة. أجساد طويلة وقصيرة، هزيلة وسمينة، كبيرة وصغيرة. من ظهيرة تلك الجمعة حتى غياب شمسها في السادسة مساء. عندها أعلن الرئيس "علي عبد الله صالح" حالة الطوارئ في العاصمة صنعاء، وتليفزيونها الرسمي يعلن عن سقوط ما يزيد على أربعين قتيلا على أيدي قناصة مجهولين من الأحياء القريبة الرافضة لوجود ساحة الثورة. اهتزت الساحة بعد إعلان حالة الطوارئ بزئير ثوارها: "لا إله إلا الله، والشهيد حبيب الله".

استكان "مهدي" بجوار جثة شقيقه، ودموعه تنهمر بغزارة. تعتمل في أعماقه الكثير من التناقضات. أمسك برأسه ودفنه بين ركبتيه، كمن يحاول أن يحافظ على ما تبقى له من عقل، ولا يسمح لأحد برؤية دموعه. زاد من ألمه شعوره بالذنب أنه أحضر شقيقه إلى الساحة، ليلقى حتفه دون ذنب جناه، غير جريه وراء لقمة عيشه. انتابته حالة من الذهول والصمت. وهو يرقب ويرى وصول المزيد من الجثث.

استأذن "يونس" من "مهدي" ليغادر، فلا يوجد ما يفعلانه لذلك الجسد المسجى أمامهما، غير المزيد من ذرف الدموع، لم يجد ما يواسي به "مهدي" فاحتضنه وربت على كتفه قبل أن يغادر الساحة محملا بوجع أثقل كاهله، فحاول جاهدا أن يلقيه أمام باب منزلهم، ويلجه هادئا حتى لا يظهر عليه شيء من هول ما مر به. راح يحدث أمه عن يومه الذي قضاه مستمتعا في اللعب مع أصدقائه! كان خلوده للنوم باكرا هروبا من نظرات والدته، التي بالتأكيد ستسأله عن شكله المرهق، وعن نظراته الزائغة، وعن شدة اتساخ ملابسه وكأنها مصبوغة بالدخان الأسود، ورغم ذلك لم ينم. ظل يتقلب في مكانه محاولا انتزاع تلك الساعات من ذاكرته؛ بل تلك اللحظات التي كان الموت فيها قريبا منه كصديق ثالث يرافق خطواته مع شقيق "مهدي".

●●●

١٩ مارس ٢٠١١

صباح غارق في حزنه. وجوه من في الساحة مشدوهة منذ البارحة. ومع ذلك تستقبل ربيعها باكرا "صنعاء"، وتطري زخات المطر وجوه

مرتاديها، تمزج بين دموعهم الحزينة وبين أمل المطر، فتلمع تلك القطرات وكأنها فضة تتعانق مع أشعة الشمس تصبح معها الساحة كأنها قطعة بللور.

صباح تئن الساحة فيه من شدة ألمها. مثقلة بفداحة ما حدث البارحة، تحاول الترحيب بخطوات الشباب الثائر، والابتسام، حتى لا تثبط عزيمتهم وإرادتهم على الاستمرار؛ ورغم قلة المتوافدين عليها هذا الصباح؛ إلا إنها منحت لهم عذرهم في التغيب: هناك من توجهوا لدفن موتاهم، وهناك من يرابط إلى جوار جريحه، وهناك من أصابتهم المناظر التي شاهدوها بحزن فانزووا في خيامهم ليبكوا بصمت.

أمضى "مهدي" ليلة ١٨ مارس مستكينا إلى جوار شقيقه، وكأن مآقيه تحجرتا من الألم الذي يقطع أوصاله. أخبرهم باسم الشهيد، قال إنه صديقه، وأنه يتيم. كتب لهم اسمه الأول والثاني، دون اللقب، متعللا بأنه لا يعرفه! أراد أن يفعل أشياء كثيرة في الليل تخرجه من حالته، كمساعدة المرضين أو القيام بإسعافات أولية للجرحى أو السهر على إعطاء الأدوية؛ لكنه شعر بأن قواه خائرة لدرجة أنه غير قادر على فعل شيء، واكتفى بمراقبة ما يدور.

كان مستغربا من نشاط تلك المرأة التي اهتمت بهم حال وصولهم بجثة شقيقه. لم ترتح ولو لدقائق. تتنقل بين المرضى، تساعد في ترتيب وهندمة أجساد الشهداء المسجاة على الأرض، تستقبل التبرعات من الأدوية والملابس والبطانيات التي انهالت على المستشفى الميداني. حاول أن يستمد منها بعض الصلابة للمساعدة؛ دون فائدة. إنه الحزن، يجعل جسدك أكثر من جثة هامدة.

في تلك الليلة، ألا يعود "مهدي" للمبيت في منزله فهذا أمر اعتيادي، تكيفت أمه معه، أو بالأحرى هو عوّدها، ليصبح الابن العاصي لأوامر

أمه دون أن يكترث. لكن ألا يعود شقيقه الأصغر إلى المنزل فهذه كارثة بالنسبة للأم. انتظرته في ذلك المساء طويلا. خرجت إلى أمام المنزل تسأل رفاقه إن كانوا قد رأوه! انتظرت حتى ما بعد أذان العشاء؛ ربما أراد الصلاة في المسجد قبل العودة. يفعل ذلك عندما لا يجد متسعا من الوقت للعودة لإخبارها. لم تنم أم مهدي في تلك الليلة، ولم تسأل نفسها لماذا لم يعد "مهدي" أيضا! شعرت بوخز دبابيس في كامل جسدها، ارتجفت، وراحت تردد طيلة الليلة: خير اللهم اجعله خير لغياب ابني.

عندما رأت "مهدي" أمامها، ضحى اليوم التالي، استنجدت به ليبحث عن شقيقه. انشغالها وارتباكها على شقيقه الأصغر أفقدها التركيز على بقع الدماء المتفرقة على قميص "مهدي"، التي كانت واضحة على قميصه الأزرق، وعلى وجهه المرهق وعينيه المتورمتين من البكاء. فقد كان واضحا أنه الآخر لم ينم، مثخن بالحزن الذي يجب أن يواريه حتى عن ذاته في تلك اللحظة. استبدل "مهدي" ملابسه وغسل وجهه، ووعدها بالخروج للبحث عن شقيقه. طلب منها ألا تقلق، فربما نام في أحد أركان السوق من شدة تعبه في نقل البضائع. لقد فعلها من قبل! يقول ذلك وهو يعلم أنها لن ترى ابنها الأصغر إلى الأبد. لا يعرف لماذا قرر أن يزرع في أعماقها الأمل في عودته، حتى يفكر فيما يجب عليه فعله. الشك يبعث الأمل في النفوس ويمنيها بالأفضل. المهم ألا يفقد "مهدي" أعصابه وينهار أمامها ويخر باعترافه لها بأنه كان سبب موت شقيقه، وهذا هو الذي لن تسامحه عليه طوال حياتها. إذن، سيخرج ليبحث عنه لتطمئن.

"يونس" في قلب محل الدجاج يقوم بالذباحة. اعتقد أن "مهدي" لن يأتي! تأخره جعل صاحب المحل يعتمد على "يونس" في أداء مهام اليوم. أثبت أنه على قدر المسؤولية. فجأة اتسع بؤبؤا "يونس" وهو يرى "مهدي"

ساحبا قدميه باتجاهه، قسمات وجهه وحركته تنضح بالحزن. يعلم "يونس" أن قدوم صديقه ليس سوى ارتباك من صدمة ما حدث لشقيقه. وجوده الطبيعي ليس هنا. تنحى "يونس" من خلف منصة الذباحة ليفسح لمهدي؛ لكن "مهدي" طلب منه ألا يفعل، فقد جاء فقط ليخبر صاحب المحل أنه لن يعمل معه ويأخذ بقية حسابه منه. أخبر "يونس" أنه سيركن لعمله في "ساحة التغيير" ويكتفي بما يجنيه. حاول "يونس" أن يسأله عما فعله مع أمه؛ لكن "مهدي" أومأ له بالسكوت، فهو لا يريد أن يتكلم. لم يتردد صاحب المحل في قبول انسحابه، خاصة وقد وجد البديل، حتى أن ملامح وجهه المرهق لم تثر فيه أدنى فضول للسؤال عنه، أو المبادرة في إعطائه مبلغا إضافيا من المال.

•••

تردد "مهدي" فيما يفعله بعد ترك عمله! هل يعود إلى المنزل؟! لكن أمه ستسأله عن نتيجة بحثه عن شقيقه؟! أم يتجاهل الأمر ويذهب إلى الساحة ليرى كيف سيتم دفن شقيقه وبقية الشهداء؟!. قرر العودة إلى المنزل، حتى لا يثير شكوك أمه، ويؤكد أنه مستمر في البحث عن شقيقه. عاد إلى المنزل، ولم يصدق ما رآه! نساء الحارة، لا، بل نساء منطقة "مذبح" كلها متكومات في منزلهم، أمه في ركن الصالة تلطم خدها وتصيح بأعلى صوتها أن ابنها قد مات، قتلوه شباب الساحة!!! تقدم باتجاهها بثقة محاولا معرفة كيف وصلها الخبر! قالت إن جارتها رأت شقيقه بين الأموات في التليفزيون، وأنه كان جثة هامدة إلى جوار الجثث الكثيرة.

ثبت "مهدي" في تلك اللحظة، واصطنع الهدوء كممثل محترف وقال لأمه برباطة جأش لا توحي إلا بصديق كلامه إن جارتها اشتبه عليها،

وإن شقيقه ذهب مع صديقه لمساعدة أحد التجار في نقل بضاعة خارج السوق. لقد سأل وأخبره بذلك كل من في السوق؛ لكنهم لا يعرفون التاجر، فقد جاء في مهمة أخذ حمالين، وشقيقه وصديقه وافقا ولم يقاوما إغراء المبلغ الكبير الذي عرضه عليهما. مسحت وجهها المندى بالدموع، وانفرجت أساريرها، فقد عاد ابنها للحياة! وبسجية طبعت قُبل متزاحمة على وجنتيه، ورنتْ بنظرها إلى النسوة بفرح، ووجهت كلامها إلى الجارة بلطف:

- الحمد لله، يخلق من الشبه أربعين، حتى أنت مش متأكدة؛ قلتِ إنه يشبهه؟!

انصرفت النسوة من المنزل وقد ثبت في وجدان الجميع أن الغائب عائد لا محالة. احتضنت الأم "مهدي" مجددا، وطلبت منه العودة إلى السوق، وانتظار شقيقه، وألا يعود إلا به، وهي ستجهز الغداء حتى عودتهما. الأب المقيد بالسلاسل يرقب ما يدور بصمت، مبحلقا في عيني "مهدي" المرتبكة، وكأنه يقرأ فيهما بخط واضح أن ابنه الصغير لن يعود. نهض "مهدي" من أمامهما مصدقا كذبته، بل وأكثر. في هذه اللحظة شعر بأن شقيقه ارتاح، محاولة أراد أن ينجو بها من عذاب الضمير ولو مؤقتا. ومضى إلى الساحة كمن أناخ حملا ثقيلا من على ظهره ومضى كريشة في مهب الريح.

حال المستشفى الميداني كما تركه صباحا، خلية نحل لا تتوقف عن العمل، تنضح من أركانه رائحة الحزن. لم يستطع "مهدي الريمي" الدخول لكثرة سيارات الإسعاف في وسط وأطراف الساحة. أخبرهم أن قريبه شهيد في الداخل، فسُمح له بالدخول. اقترب مذعورا من الساحة الداخلية. كانت الجثث قد اختفى معظمها. راح يبحث كتائه من حوله

عمن يسأله عن جثة شقيقه! لمح من بعيد الممرضة التي استقبلتهم البارحة. سارع باتجاهها. كانت منشغلة بالحديث مع أهالي الشهداء.

- أين قريبي؟!

وجه "مهدي الريمي" سؤاله لها دون مناداتها باسم أو لقب أو حتى استئذان. قطعت حديثها، أشارت إلى سيارة الإسعاف الجاهزة للانطلاق بالانتظار. قالت لمهدي: "اتبعني!". حدثت السائق بأن هذا قريبه الوحيد ويحق له مرافقته إلى ثلاجة المستشفى استعدادا لتشييع جثامينهم غدا. فتحت الباب الخلفي لسيارة الإسعاف، وقالت له: "اسمي صبحية، وستجدني هنا دائما لو أردت شيئا". أومأ لها برأسه، واقفلت عليه باب السيارة.

امتقع لون وجهه من شدة الخوف حال رؤية جسد شقيقه ممددا أمامه، ملفوفا بالبياض. خف ضوء الشمس، وشعر أنه فقد رؤية ما في سيارة الإسعاف؛ وراح يناجي أخاه ويودعه في صمت:

- ما الحياة التي كانت تنتظرك يا أخي؟! وما المستقبل الذي كنت ستكد لتصله؟! هل رأيت أحدا منا، نحن، أشقاءك وأمك وأباك، ينعم بحياة رغيدة؟! نم بسلام يا أخي! أنت الآن في أمان الله وفي حمايته، دون معاص ارتكبتها، ودون ذنوب جنيتها في حياتك القصيرة التي لم تكن غير كد وتعب. عند الله ستنموْ أظفارك الجريحة، وسيشفى جلدك المتسلخ من أعباء ما تحملته على ظهرك الصغير، ستصفو بشرتك التي أكلتها الشمس، وستنتظرنا من أعلاك وتقول لقد أحبني الله فاختارني إلى جواره.

قطع وقوف السيارة استرسال مناجاة "مهدي" لشقيقة. نزل من السيارة لا يملك غير مراقبة ما يدور. شعر بأنه غير قادر على البكاء،

واكتفى بوداع شقيقه صامتا. حمل الجثة ممرضان من المستشفى لوضعها في الثلاجة حتى يتم تشييع الجثامين غدا إلى مقبرة الشهداء.

عاد "مهدي" لأمه وقد فكر بما سيقوله لها. سألته عن شقيقه، بلهفة، رغم صوتها الواهن، الذي جعل "مهدي" يشفق عليها، لذلك سارع وأخبرها بما ألجمها عن الكلام وبعث في نفسها أملاً جديدا للانتظار:

- لم يعد أخي وصاحبه إلى السوق. كل من في السوق يتحدث عن اختطاف الأطفال في سنه وتهريبهم للعمل في السعودية. وأنت تعرفين أن هذا طموحه ليكسب المال بسرعة، من شدة تعبه في الأعمال المنهكة التي يقوم بها. والد صديقه قال إن ابنه دبر الذهاب مع المهرب دون علمه وسيخبرني أي جديد؛ لأنه غير راض عن ذهابه! وانت يا أمه افرحي؛ لأن ابنش بايرجع لش بالزلط السعودي.

نام "مهدي" في تلك الليلة بعمق. أراد أن يستعد لوداع شقيقه يوم غد وهو في كامل وعيه. هكذا تتحول المعادلة إلى نقيضها ويصبح موت شقيقه رحمة له، رحمة أغنته عن العيش في وطن لم يمنحه غير الشقاء، وفي عائلة لم تجد ما تمنحه، فتركته للريح تعبث به؛ تارة حمّالا، وتارة مناديا، وأخرى باحثا في أكياس القمامة عما يسد الرمق.

●●●

٢٠ مارس ٢٠١١

استيقظ "مهدي" على جلبة كبيرة في منزله أحدثتها جاراتهم. كُنَّ على أتم الاستعداد لاعتلاء سطح منزله لرؤية تشييع جثامين شهداء الكرامة. رفضت أم "مهدي" في البداية؛ لكنها عادت وتراجعت عندما علمت أن إحداهن ستودع ابنها الشهيد لآخر مرة.

غافل "مهدي" أمه واتجه مباشرة إلى مستشفى جامعة العلوم والتكنولوجيا، حيث جثمان شقيقه ومعظم جثامين الشهداء. بعد الظهر كانت الحشود قد تجاوزت عشرات الآلاف. صور الشهداء مرتفعة عاليا، وأهل كل شهيد وأصدقاؤه يحيطون بنعشه، ومتطوعون يحملون الجنائز ويهللون بصوت عال: "لا إله إلا الله، والشهيد حبيب الله". صوت القرآن يتعالى من سيارات متفرقة في مسيرة التشييع. "مهدي"، بكل قوة وجلد، يمسك بطرف نعش أخيه. يردد معهم: "لا إله إلا الله، والشهيد حبيب الله". عندما تقدمت الحشود باتجاه "مقبرة الشهداء" وأصبح في مقدوره أن ينظر إلى الخلف لرؤية أمه في أعلى جبل "مذبح"، شاهد عددا كبيرا من النساء في أنحاء متفرقة منه. هناك من تودع ابنها، وهناك من تستغرب كيف مات هؤلاء، ولماذا؟! وهناك من تسخر منهم كيف ضحوا بأرواحهم وعلامَ؟!

يعلم أن أمه من النوع الأخير. إنها تسخر من هؤلاء المخربين الذين كانوا في نعمة؛ لكن في أعماقه يتمنى لو كانت معهن، تنظر وتودع ابنها، الذي لن تراه أبدا، كانت هذه اللحظة كافية لتجعل "مهدي" يفكر مليا في حياته السابقة، وحياته القادمة.

من أعلى الجبل، بدا منظر التشييع مهيبا. رؤوس البشر كنمل أسود يسير بانتظام على الأسفلت. جثامين الشهداء ملتفة بالعلم الوطني، كطعام يحمله النمل للتخزين. سيارات بين الحشود وفي الأطراف تتوجه للمقبرة. القبور جاهزة لاستقبالهم كأفواه رطبتها زخات المطر المتساقط منذ بدء التشييع. انتهت مسافة الكيلومتر سريعا من "شارع الستين" حتى "مقبرة الشهداء". لم يعتقد "مهدي" أن لحظة نزول شقيقه في القبر ستكون بهذه الصعوبة! انهمرت دموعه التي كبتها منذ يومين. انبطح على

الجثمان وراح يقبله ويبكي بحرقة مجروح ومقهور وحزين معا. أمسكه المحيطون به وراحوا يهدئونه. ناوله أحدهم مصحفا ليقرأ معهم "سورة يس". وهكذا تحول صوت المشيعين وهم يقرؤون "سورة يس" و"سورة المُلك" حول كل قبر إلى سيمفونية وداع رخيمة، يصل مداها عنان السماء ويرتد إلى قلوبهم سلاما وطمأنينة.

انفض المشيعون كلّ لحال سبيله. أما "مهدي" فسحبته قدماه بدون هُدى، لا يدري إلى أين! ولا يريد أن يعرف في أي اتجاه تأخذه خطواته، ولا يهمه أن يجد شيئا. أقنع نفسه بأنه لا يريد ولا يحتاج شيئا، عليه فقط أن يستمر، يسير ويسير ويسير.. ثم يسير أكثر صوب لا شيء، تحدوه الرغبة في الضياع، في أن يبتلعه فراغ ما، تتلاشى فيه الأبعاد والاتجاهات، ويلقي عن كاهله هذا الإحساس المضني بالزمان والمكان. يتمنى لو أنه يفرغ ذاكرته حتى قعرها من كل ما علق بها من وجوه وألوان وأصوات وأحزان ورغبات. ظلت قدماه تحملانه بتثاقل. كان يرى نفسه بثقل جبل هدته الأحزان، وأقعدته متيبسا على قدمين مرتعشتين، منتظرا سقوطه في وهدة فراغ سرمدي بلا قرار، يتلاشى فيه ويصير عدما كأن لم يكن. استمر في تيهه حتى دخل الليل. خارت قدماه وألقتا به خلف خيمة مظلمة تقبع آخر الشارع القريب من المقبرة. بدت الخيمة مثله، جسدا بلا روح. سحب جسده المتهالك ليسند ظهره إلى عمود الخيمة، وألقى بنظرة منكسرة إلى داخلها. طفرت من عينيه دموع غزيرة، لا يعلم من أي حزن داهمته، مُشعلة في أعماقه بركانا من الحسرات اللزجة. حملق في ظلمة الفراغ الممتد داخل الخيمة، ثم قطب حاجبيه وراح يفكر:

- هل شقيقي الصغير وجد أخيرا مكانه الخاص، وألقى عن كاهله كل هذا الشقاء؟! هل وجد راحته الضائعة في المكان الذي انتقل إليه؟! هل

استراح رأسه الصغير مما كان يعصف به وهو يبتدع الأعذار لأمه ليقنعها بأن حظه كان اليوم عاثرا فلم يجمع الكثير من المال لذلك يضع القليل من النقود بيدها مرتبكا في سرد أكاذيبه عن الطريقة التي جمع بها تلك النقود؟!

ألقى "مهدي" نظرة فاحصة على صفحة الفراغ المتكوم داخل الخيمة، وعاد ينتزع من جدار ذاكرته الصدئة أسئلة أخرى:

ـ هل يشعر شقيقي الآن بالوحشة وسط ظلمة القبر الذي حُشر فيه جسده الصغير؟! أم أنه استراح من وحشة الحياة وقسوتها؟! الفراغ موحش وبارد وثقيل؛ لكن مطاردة الحياة وانكسارات الفشل المتكررة كل يوم لا يختلف بما ينضحه من وحشة وبرودة وإحباط ثقيل. كانت عظامه، آدميته، جسده الغض، تُسحق كل يوم. الآن، جميعها تقبع في الظلمة، ينخرها الموت، وعما قليل ستغدو عدما! لا فرق يا أخي! كان الشقاء يمضغك في النهار وينجعك في المساء! ها أنت في قبضة وحشة جبارة ستمضغك كرة أخرى وإلى الأبد. هل كان ذلك البلطجي الذي أطلق عليك رصاصته القاتلة يعلم أنه فك إسارك وحررك من وحشة الحياة، ليتوقف شلال آلامك فيها وإلى الأبد؟! نحن الفقراء لا نخسر شيئا عندما يُلقى بنا في الهلاك، نجد في الهلاك خلاصنا، نتحرر من عنت البؤس والشقاء. كنت يا أخي تجاهد بلا جدوى لتحصل على مذاق آخر للحياة، وها هو قاتلك أعتقك من شقاء لا يُحد، وآلام لا حصر لها كانت تترصدك في القادم من الأيام. آاااه يا أخي! أنت الآن في حال أفضل، أو قل أقل سوءا، فالقدر الذي ظل يلهو بك لن يعبث بك مرة أخرى.

●●●

٢١ مارس ٢٠١١

السوق بأكملها تردد أن "علي محسن" انضم للثورة، أصبح مع شباب الثورة، سيحمي الثورة. لم يجد "يونس الحوتي" من يشرح له ما يدور من نقاش حول هذا الموضوع. شعر بالخجل من عدم فهمه لما يدور، وخشي أن يضحك عليه أحدهم إذا سأله عن كيف تنضم سوق للثورة، وهل تستطيع السوق المشي للثورة لتنضم إليها!

حتى تلك اللحظة لم يكن "يونس الحوتي" يعرف أن تسمية السوق الكبيرة هي نسبة إلى اسم رجل. لم يجد من يسأله عن سوق كبيرة يباع فيها كل شيء انضم للثورة! لم يجد من يصارحه بهواجسه عن سوق تستطيع أن تمشي وتذهب للثورة وتقول لها: أنا معك يا ثورة!!! لذلك عندما عاد لأمه لم يجد حرجا في سؤالها عما يدور في رأسه الصغير. أخفت الأم ضحكة خفيفة في أعماقها، حتى لا تشعره بسذاجة تفكيره، التي ساهمت هي فيها. شعرت بالشفقة على ابنها؛ فقد أصبحت "سوق علي محسن" هي عالمه الذي لم يخرج منه منذ كان عمره ستة أعوام. احتضنته وراحت تشرح له أن من انضم للثورة هو قائد عسكري، وهناك من يقول إنه صاحب هذه السوق الكبيرة. طأطأ "يونس الحوتي" رأسه خجلا، ثم رنا ببصره نحو اللا شيء، كمن يلومها على وجوده في ذلك العالم الذي لم يغادره.

هو إذن اسم رجل! فهل كل هذه السوق ملك له؟! هذه السوق الكبيرة التي لا يستطيع أن يرى نهايتها حتى لو اعتلى تلك التبة التي يقبع أعلاها منزلهم، هي ملك لرجل واحد فقط؟! لديه مال كثير، بل لديه سوق

بأكملها فيها كل ما تشتهي الأنفس؛ فما حاجته إذن ليكون رجلا في الجيش؟!

تركت أم "يونس" ابنها في حيرته وهرعت إلى الجيران لتشاهد التليفزيون الذي يبث خبر انشقاق القائد "علي محسن" عن نظام الرئيس "علي عبد الله صالح"، ويعلن تأييده للثورة. كانت عبارة: "نزولا عند رغبة زملائي وأبنائي في المنطقة العسكرية الشمالية الغربية والفرقة الأولى المدرعة، وأنا واحد منهم، أعلن نيابة عنهم دعمنا وتأييدنا السلمي لثورة الشباب السلمية" تتردد في القنوات الإخبارية. خرجت أم "يونس" وعادت بابنها ليرى "علي محسن" في التليفزيون. كان يرتدي البزة العسكرية المرقطة الخاصة بمعسكر الفرقة الأولى مدرع الذي يقوده، تعلو كتفيه شارات باللون الأصفر ويرتدي نظارة طبية وهو يقرأ البيان.

دماغ "يونس" أبيض، لم يكتب على صفحاته أي شيء، سوى حلم كبير بامتلاك محل لبيع وذباحة الدجاج؛ فكيف يستوعب أن "علي محسن" هو قائد المنطقة الشمالية الغربية والفرقة الأولى مدرع، والرجل الثاني في نظام "صالح"، وفي ذات الوقت هو مالك السوق الكبيرة؟

اقترب "يونس" من التليفزيون، ليسمع. كان صوت "علي محسن" واضحا، لا تشوبه نبرات عالية أو منخفضة تنسجم مع الخبر المهم الذي يعلنه. كان صوتا باردا كالثلج، وميتا كأوراق الخريف، بعيدا عن روح الثورة وجلجلة صوتها المرتفع عاليا إلى عنان الحرية. لم يفهم ما يعنيه بقوله "قتل المعتصمين السلميين"، ولا ماذا يعني "التبادل السلمي للسلطة"، "الانتخابات".. لذلك لم يكترث يونس وراح يهز كتف أمه وسألها:

ـ هل هذه دبّابة التي على المكتب؟ وهل يدفعها باليد والا بالبطارية؟ وبعدا هو رجّال كبير وعيب يلعب بدبابة حق أطفال!!

اعتقد "يونس" أن الدبابات ليست سوى ألعاب للأطفال. لقد رأى منها في محل الألعاب، وجارهم اشترى لابنه دبابة قبل أيام، يلعب بها في الشارع، يحركها بيده، لأن البطارية غالية، والمتحركة بالريموت كنترول أغلى. نظرت إليه الأم وهي تقول له بحزم:

- إنها دبابة للزينة على المكتب وليست للعب.

فاجأها بسؤال آخر:

- الكوفية اللي لابسها مثل حق أبي؛ لكن حق أبي بدون طير. أين البدلة حق أبي يا أماه!

لم تجبه، متعذرة بإنصاتها للخطاب. لقد نكأ جراحها دون أن يعلم. لقد ودعها وهو يرتدي البدلة المبرقعة وذهب للحرب؛ لكنه لم يعد لتغسل بدلته وتحتفظ بها، ذهب مرتديا البدلة؛ لكنه ألبس "يونس" القبعة وتركها على رأسه. كأنَّ شعورا خفيا كان يقول له: دعها للذكرى، قد لا تعود! لم يكن لقبعات الجنود نسور من نحاس تعلق عليها، بينما القادة الكبار يزينون جباههم، ليس بالنسور النحاسية فقط، ولكن بنياشين تفوق عدد جنودهم المقتولين.

كان "علي محسن" يلقي خطابه على كرسي خلف مكتب بني اللون، على يمينه علم اليمن، وعلى يساره مجسم صغير لدبابة ترابية اللون أنيقة المنظر، أمام الأوراق التي يقرأ منها ويمكن رؤية بعض منها أمام لوحة معدنية كتب عليها بين نسرين: "اللواء علي محسن الأحمر، قائد المنطقة الشمالية الغربية والفرقة الأولى مدرع. وبجوارها درع في إطار دائري أحمر اللون، وخلفه مكتبة بعض أدراجها تحوي دروعا تذكارية، وبعضها الآخر حوى كتبا حبيسة خلف زجاج المكتبة المغلق.

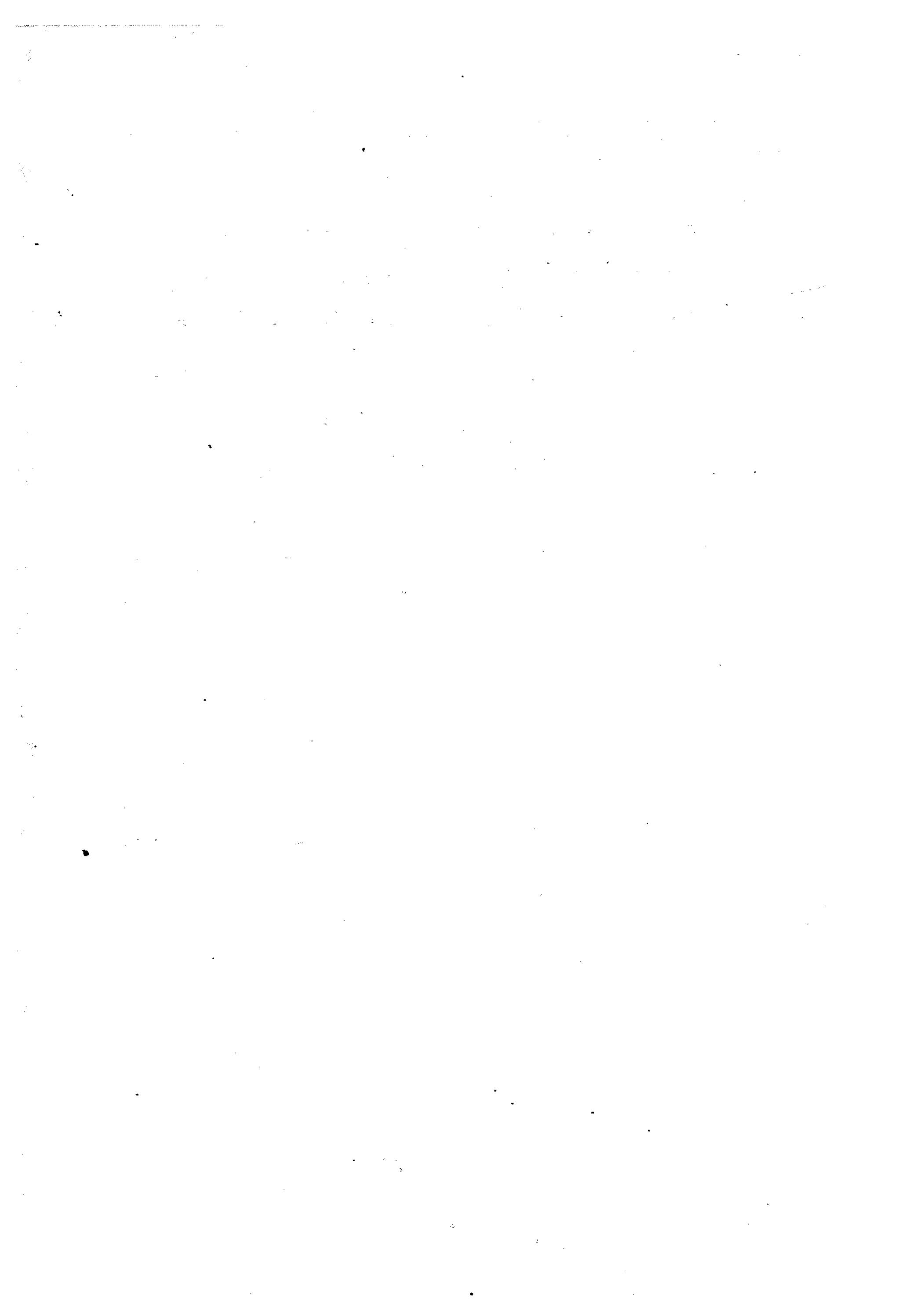
أنهى "علي محسن" خطابه، بينما "يونس" يقترب بين فينة وأخرى لعدّ عجلات الدبابة ويعاود سؤال أمه:

- خمس عجلات، وهذه السادسة اللي فوق كيف تمشي وهي مش على الأرض؟!

لم تجبه؛ لكنها زمّت شفتيها وقالت كلمة اعتقد "يونس" أنه سمعها صح؛ ولكنه لم يسأل أمه لماذا قالتها حتى لا يزيد في همّها. يبدو أنها لا تطيق هذا الرجل ذا الوجه المستطيل والأسنان المتفارقة؛ لذلك قالت بقرف وحزن وقهر:

- مجرم!!

●●●



أحلام مهدي الريمي

(١)

صباح ٢٢ مارس بداية جديدة في حياة "مهدي الريمي". مرَّ على محلات بيع وذباحة الدجاج، القريبة من "ساحة التغيير"، ليتفاوض على شراء بضاعته. فكّر أن هذا سيمكّنه من البدء في عمله لفترة بعد الظهر، إذا وافقوا على بيعه معد وأكباد الدجاج. ويمكن ليونس أن يبيع ما يتركه الزبائن في "سوق علي محسن"، ويمنع عنه مشوار الساحة. يكفي ما حدث لشقيقه. أقنع نفسه بأنه لن يكون سببا في حضور أحد إلى الساحة.

عاد "مهدي الريمي" لعربته، بعدما جمع بعضا مما أراد. بدأ في تسخين الزيت، وراح يجهز المعد والأكباد بالبهارات. موقع عربته يمكّنه من رؤية منصة الساحة بوضوح. منذ الصباح يتزايد المؤيدون للثورة: وزراء، قادة عسكريون، رجال أعمال، موظفون، مذيعون، قادة وأعضاء أحزاب وسياسيون. بهذا التأييد أصبحت "جمعة الكرامة" علامة فارقة في تاريخ الثورة. مازال عدد القتلى في ازدياد، نتيجة موت بعض الجرحى، ومع ذلك تم إعداد لوحة كبيرة، على يمين "مهدي الريمي"، عليها صور الشهداء؛ باستثناء شقيقه! لقد أقنعهم أن أهل قريبه يفضلون ألا تظهر صورته، حتى لا تعرف أمه المصابة بمرض ارتفاع الضغط والسكري.

تُجلجل على المنصة، بين فقرة وأخرى، أصوات أغان ثورية، لكل من غنى للثورة الأم، ثورة ٢٦ سبتمبر: الفنان أيوب طارش يصدح: "وهبناكِ الدم الغالي وهل يغلى عليكِ دمٌ"، والفنان علي الآنسي وفرقته يرددون:

"لبيك يا وطن الحضارة والشموخ، لبيك، لبيك"، ومحمد الحارثي بصوته الدافئ: "هذه أرضي وهذا وطني، سوف أفديه بروحي ودمي، ثورتي حق وعدل وبناء، أمتي وحدها رب السماء". وفي المقطع الأخير يتحمس الناس ويرفعون سباباتهم، وتشهق أعينهم نحو السماء.

عصرا، بدأ توافد الكثيرين على الساحة، رجال، شباب، وأطفال. ما أدهش "مهدي"، ولم يرَ في حياته شيئا مثله هو المسيرة التي تمر أمامه! نساء كثيرات يَجُبْنَ الساحة، يحملن في أيديهن زهورا ملونة يوزعنها على مرتادي الساحة؛ يحتفلن بيوم الأم، رغم الألم. اتجهن صوبَ المكان المخصص للنساء، وكان على يسار المنصة، يفصل بينهن وبين الرجال حبل ذو لون أزرق، عند طرفيه يقف ثائران من الشباب يُنبهان كل من تعداه بالجسد أو بالنظر إلى النساء!

لم يرَ "مهدي الريمي" هذا العدد من النساء ذات الوجوه البهية، غير المغطاة باللثام. أمسكت إحداهن بالميكروفون وراحت تتحدث عن الأم، وعن الشهداء، وعن الثورة. ناولت الميكروفون لأخرى راحت تهتف وهن يهتفن بعدها: "ثورة ثورة حتى النصر. ثورتنا ثورة نضال، النساء مع الرجال".

بتؤدة أقرب إلى الوهن، صعدت على المنصة أم أحد الشهداء. سألتها مقدمة برنامج المنصة: "ماذا تقولين لابنك الشهيد؟!". صوتها الأليم وبحته اختزل وجع الأمهات الثكالى اللاتي فقدن أبناءهن يوم "جمعة الكرامة" تقول إنها بكته بحرقة منذ وصول خبر وفاته. لم تجد ما ترد به غير صمت مهيب لثوانٍ، تبعه كلمات مكلومة أبكت كل من سمعها:

- قتلوا ولدي! ولدي مات! آاااه!!!

- ماذا تريدين أن تقولي للشباب الثائر في الساحة؟

عادت للصمت والأنظار محدقة بها من كل صوب، ثم قالت:

- نصر الثورة هو ثمن دم ابني الشهيد. اصمدوا يا عيالي، ويا بناتي، والله معكم..

أجهشت بالبكاء؛ لكن هذه المرة بحرقة، وقهر الفراق. صوتها أبكى الجميع، بكاء مريرا لن يعيد ولدها؛ لكنه أشعل مشاعر متناقضة لأمهات شباب الساحة. الوجوه، رغم اندماجها في أنشطة المنصة، أو استمرار النقاشات في الخيام لكل الائتلافات والحركات الشبابية التي تكونت، إلا أنها زائغة، حائرة، يدور في عقولها ألف سؤال وسؤال عما حدث وعما سيحدث، عن القادم المجهول والمصير الذي سيلاقيه الوطن المذبوح تحت وطأة جهل الساسة وأطماعهم الشخصية.

في غمرة هذه الآلام مازال هناك أمل واحتفال بيوم الأم وتوزيع الورود والهدايا الرمزية على أمهات الشهداء. اقتربت من "مهدي" امرأة وناولته وردة. نظر في وجهها وهو يشعر بالخجل؛ كانت لا تضع لثاما على وجهها. غطاء شعرها الملون يغطي نصف شعرها الأسود، تضع في جهة وجهها اليسرى وردة صفراء و"مَشْقُر" ريحان أخضر. ناولته الوردة فزاد ارتباكه. ابتسمت في وجهه وإذا بها تسأله عن حاله بعد استشهاد قريبه. أمعن في وجهها فإذا بها تلك المرأة التي اهتمت بشقيقه في المستشفى الميداني. تناول منها الوردة وراح يردد: "شكرا! إحنا الحمد لله بخير". ارتباكه جعلها تقول له إذا احتاج شيئا أن يخبرها، وأشارت باتجاه خيمتها، تلك التي خلف المنصة من اليمين. أومأ برأسه أنه فهم ما قالته، ومضت في طريقها مستمرة في مهمتها. ظل يرقبها حتى انتهت من توزيع وردها وتوجهت إلى خيمتها خلف المنصة. لا يعرف "مهدي" لمَ شعر بالارتباك! هل لأنها أعطته الوردة وهذا لم يحدث له من قبل، أم

لأنها سألت عن حاله، وتعرف قصة قريبه وحادثة وفاته، وخشي أن يصل الخبر إلى أمه؟!

الوردة في يده لا يعرف أين يضعها! ألقى نظرة على من حوله، فإذا بلون الورد الأصفر بهيج المنظر تنعكس عليه أشعة الشمس قبل غروبها لتزيد في بهائه. هناك من يمسكها في يده ويشم عبقها بين حين وآخر، وهناك من وضعها على جيب قميصه أو كوته الجانبي، وهناك من جعلها تعتلي "مشدة" رأسه، وهناك من وضعها إلى جواره واكتفى بالنظر إليها. كثيرون فضلوا أن تكون على حزام الخاصرة سواء كان "جنبية" (١) بحزام ذهبي أو "قايش" (٢) بخيوط حرير، أو حزام جلدي لمآزر من القطن الخالص. وكما جاهر البعض بالوردة الصفراء، كلٌّ على طريقته، أخفاها البعض؛ لا بل قتلها في ظلام جيب كوته أو بنطلونه، وكأنها عيب خادش للرجولة يجب ألا يظهر!

نظر "مهدي" جهة النساء، وكأن شيئا خفيا يحرضه على ذلك، ليرى أين وضعن الورود. ودون أن يشعر ارتسمت على قسمات وجهه ابتسامة طرية انتزعته من غور حزنه؛ لأن بهجة ما رآه فاقت توقعات خياله البكر، وكأن الورد الأصفر قطع ذهبية في ذلك الغروب تزين رؤوسهن كتيجان، جعلت منهن، أمهات وفتيات وشابات، ملكات ثائرات في أطهر بقعة في أرض اليمن، في "ساحة التغيير".

●●●

بعد أن أدى الثوار في الساحة صلاة المغرب بدأت الساحة في الازدحام أكثر وأكثر. لم يدرك "مهدي" أن الخوف مازال عالقا في قلوب

---

(١) الجنبية: الخنجر الذي يوضع على الخاصرة بحزام حول الخاصرة.
(٢) القايش: حزام له ألوان متعددة يلفه الرجال حول الخاصرة.

الناس بعد "جمعة الكرامة". لكن في الليل يشعرون بالاطمئنان. مرت من أمامه امرأة المستشفى فلم يجد ما يناديها به، صاح وقد تجاوزت عربته بمراحل:

- يا.. يا.. يا..!

التفتت إلى الخلف بعد أن استشعرت أنها المقصودة. تقدمت نحوه وبادرته:

- ناديني صُبحية؛ أنا اسمي صُبحية!

لا يدري لماذا احتار لبرهة؛ هل يقول لها: "أمي"، كما ينادي صديقات والدته وجاراتها، بل وكما ينادي أم "يونس" بـ"أماه سعادة"، أم يقول لها: "خالة صبحية"، كما قالت له مرة إحدى السيدات في"سوق علي محسن" وهو يحمل لها ما اشترته من خضرة وفاكهة إلى سيارتها، أم يناديها كما كان ينادي مُدرّسته في المدرسة قبل أنَ يغادرها: "أستاذة صبحية"؟! لمحت التردد البادي على وجهه وقالت له:

- ناديني صبحية ولا تحتار! والآن ماذا تريد يا..؟!

رد عليها سريعا:

- مهدي، اسمي مهدي الريمي، من محافظة ريمة.

ومن ثم طلب أن يحدثها في أمر:

- لكن مش الآن، ومش هانا!

أشفقتْ عليه لما اعتراه فجأة من ارتباك أقرب إلى الخوف، وقالت له:

- شاراعي لك بعد صلاة العشاء في كافيتريا "البركة" التي على يمين المستشفى مباشرة.

أومأ برأسه موافقا. مضت "صبحية" باتجاه مكان النساء القريب من المنصة.

انشغل بعدها "مهدي الريمي" بعمله حتى بعد صلاة العشاء وتوجه لكافيتريا "البركة". لملاقاة "صبحية". كان مندهشا وربما يسأل نفسه: كيف ستجلس "صبحية" في هذه الكافيتريا وهو أمر لم يتعود عليه أو حتى يراه في أي كافيتريا مر بها، بل إنه في حياته لم يرَ امرأة تجلس في كافيتريا! ومع ذلك انتظر. دقائق ورأى "صبحية" قادمة باتجاهه، لابتسامتها إشراقة شمس في يوم ربيعي مزهر بالأقحوان. أسنانها ناصعة البياض وأنيقة التراص وتجعل من وجهها جذابا. وجدته لم يطلب شيئا ليشربه. سألته:

- أيش تشتي تشرب؟

منعه الخجل من طلب شيء. قالت له:

- إذن أنا سأختار لك.

واجهت النادل بالابتسامة ذاتها لتقول له:

- اثنين شاي حليب مفور على كيفك!!

التفتتْ إلى "مهدي الريمي"، نظر إليها مرتبكا لا يعرف كيف يبدأ حديثه. راح يعدل "مشدة" رأسه، ويعدل جلسته على الكرسي. شعر بأنه غير قادرعلى الحديث. المربك له هو جلوسه أمام امرأة، وعلى كرسي في مكان عام، كافيتريا؛ لذلك وجد نفسه يقول وبسرعة، بعد أن استجمع قواه وبدأ دون مقدمات:

- الذي استشهد في تلك الليلة هو أخي الزغير مش قريبي كما قلت لك! خليته يجي الساحة يلقّط قوارير، ويبيعها؛ عشان يوم الجمعة الناس في الساحة كثير، وقعت له رصاصة وهو يمر بين المصلين. ما أدري ليش ما فكر يهرب لأي زُغط أول ما سمع الرصاص! المهم الله يحفظك ما أشتي أحد يدري، عشان ما يصل الخبر لأمي!

راح يحكي لها كيف أقنع شقيقه و"يونس" بالقدوم إلى الساحة لبيع الماء وجمع القوارير. حدثها عن أحلامه وأحلام "يونس الحوتي" في امتلاك محل دجاج. انساب كنهر جار وهو يحدثها عن شعوره بالارتياح من استشهاد شقيقه؛ لأنه عندما رآه ميتا تساوت لديه فكرتا الموت والحياة. قال لها:

- إذا كانت الحياة مثل ما أعيشها الآن، وكان بايعيشها أخي، فهي حياة ما اشتيهاش. عشان كذا أقول لك إنه ارتاح! فكرة أن تعيش أمي على أمل رجعة أخي أحسن من شعورها بأنها ماشتبصروش للأبد. لقد صدقتْ أمي ما قلته لها؛ أن واحدا اختطفه للسعودية، والآن تحلم برجعته مغتربا وعنده فلوس كثير ليعوضها عن حرمانها ومعاناتها في الحياة.

ارتفعت نبرة صوت "مهدي":

- تصوري أنها ضد هذه الثورة، وضد هؤلاء الشباب، ولديها أفكار غريبة عنهم، ومنعتني أنا وأخي من الحضور، لأنهم مخربون للنظام وللأمن والأمان الذي تعيش فيه. ترى بؤسها وبؤس أبنائها وبؤس المنطقة التي تعيش فيها وهي ترى الجانب الآخر من المدينة مضاء، مبانيه فخمة وشوارعه نظيفة ومجاريه مُصرفة، أبناؤه ينعمون بالمدارس، وآباؤهم في أعلى المراتب الوظيفية. دون أن تسأل نفسها: ألسنا جزءا من هذا الشعب ليكون لنا جزء أو حتى نصف ما ينعمون به؟!

صمت "مهدي الريمي" عندما وصل شاي الحليب المفور. تناوله حارا لدرجة لفتت انتباه "صبحية". شعر بذلك. ضحك وقال لها:

- أهل ريمة هكذا يشربوا الشاهي، وأهل مذبح عادهم؛ لأنهم لو راعوا أن يبرد الشاهي أو الأكل ما بيلاقوا شي ياكلوه، من قلة الطعام والشراب، وكثرة الأفواه الجائعة!

لم تعلق على كلامه؛ ربما لأنها كانت تعرف أن كل هذا يحدث لأكثر من ثلثي سكان اليمن. ارتسمت على وجهها نظرات إعجاب، بتلقائيته وصدق حديثه.

أصبح "مهدي الريمي" بعد استشهاد شقيقه؛ يغمض عينيه بشكل لافت للنظرعندما يتحدث وكأنه بتلك الإغماضات الطويلة والمتتابعة يحاول التركيز في حديثه. رد فعل صبحية بدا طبيعيا حتى لا تجعله يشعر بالخجل؛ وكأن الأمر عارض ليس إلا! طمأنته أنها لن تُحدث أحدا، ورجته أن يعتبرها بمقام أخته الكبيرة فيما لو احتاج شيئا ما. رد عليها بشكل سريع:

- نعم أريد؛ أريد أن أكون مثل هؤلاء الشباب! أريد أن أكون ثائرا، وأفعل أي شيء لتنجح هذه الثورة!

واغرورقت عيناه بالدمع، ثم أردف:

- حتى يظل أخي عالقا في ذاكرتي، ولا أشعر بأن دمه ضاع هدر!

قالت له بودّ، وهي تشير إليه بإصبعها:

- أنت بالفعل ثائر؛ ما تفعله الآن هو واجبك نحو نفسك في كسب العيش الحلال، وواجبك نحو الثوار في خدمتهم. كل من في الساحة هو ثائر، مهما كان دوره صغيرا.

فجأة انتقل إلى طاولتهما شاب من الطاولة المجاورة. قدم لهما اعتذاره عن سماعه الجزء الأخير من حديثهما. لم يمهلهما للرد أو التفكير، ووجه كلامه لمهدي:

- الثورة يا أخي العزيز عمل تاريخي، الهدف منه التغيير نحو حياة أكثر إنسانية ورفاهية للمجتمع. وأنت طلبت من الأخت أن تكون مثل هؤلاء الشباب الثائرين، وتسهم معهم في نجاح الثورة. ومع احترامي لما

قالته لك، إلا أن عملك سيثمر إذا تسلحت بالمعرفة، وأصبحت هي ثروتك الحقيقية التي ستملأ بها ذاتك، ولن تشعر بالدونية، لأن عملك سيصبح وسيلة للعيش، وليس غاية العيش! تعال وانضم لندوات خيمة "شباب مع الحدث"، بعد هذه الخيمة التي أمامك، في أي وقت يناسبك، وياريت يكون وقت بعد العصر، أو بعد المغرب. ستسمع وتعرف كل ما ينقصك عن الثورة.

انبهر "مهدي الريمي" من حديث الشاب. أومأ برأسه موافقا. أما "صبحية" فلم يثر استغرابها ما فعله الشاب؛ معظم شباب الساحة كانوا بتلك الروح المبادرة الجلية لتوعية كل من يحضر إلى الساحة. كانت هناك أشياء كثيرة غابت عن الثوار: هوية وطن يبحثون عنها، تاريخ لم يكونوا جزءا منه، ثروة لم ينالوا منها، سلطة لم تتغير وجوه من يملكونها منذ عقود.. وقبل أن يعتذر للمرة الثانية داهمته "صبحية" وقالت له:

- أهلا بك! أنا اسمي صبحية، وأنت؟

نظر إليها بإعجاب وقال:

- أعرف، وأعرف ما تفعلينه في الساحة، وقد التقينا في بعض المحاضرات، وسرْنا معا في بعض المسيرات. انهماكك في الإلقاء أو حماسك في المسيرات لا يسمح لك بالتركيز على أحد، وأنا اسمي كمال، كمال ناجي.

"كمال" شاب في آخر الثلاثينيات، مثقف، ويعبّر عن أفكاره بوضوح، واسع الاطلاع، ولديه قدرة فائقة على الإقناع، بما يملكه من معرفة غزيرة، ثوري متحمس؛ غير متهور، هادئ الملامح، وفي ذهنه تعتمل مخططات لبناء مجتمع جديد؛ لذلك يبادر ويعرض ويتقبل ردود الأفعال، مهما كانت مختلفة، بين مرتادي الساحة. لم يأت الجميع بهدف الثورة؛

هناك من أتى للفرجة، وهناك من أتى لإثارة المشاكل، وهناك من أتى للاستفادة والعمل مع أطراف ضد أخرى، وهناك من أتى لكسب العيش مثل "مهدي".

نظرت إليه "صبحية" بإعجاب هي الأخرى. إقدامه مميز، ومبادرته وصدقه ولج قلبها. قالت له دون خجل:

- تشي جيفارا! ألم يخبرك أحد عن الشبه بينك وبينه؟!

نظر إليها مبتسما:

- نعم، أخبروني، خاصة في لحيتي الخفيفة غير المهندمة مثله تماما؛ لكني لم أكن أصدقهم، والآن من بعد قولك صدّقت!

ارتاحتْ لتلميحه وابتسمت. انصرفوا دون تحديد موعد آخر؛ كأن الأمر متفق عليه دون كلام، بأن هذه الكافيتريا ستكون هي حلقة الوصل بين ثلاثتهم. في ساحة الثورة، أصبح بإمكان النساء والفتيات المجاهرة بالجلوس على الكافيتريات والمطاعم الموجودة في محيطها. تقبل الناس الأمَر بسهولة. هناك عمل ثوري ينبغي التركيز عليه، ولم يعد الاهتمام بمراقبة النساء يشغل الرجال كالسابق. شعور عمَّ كل مرتادي الساحة من الألفة والمحبة والاحترام؛ لذلك لم تجد "صبحية" حرجا في دعوة "مهدي"، ولم يجد "كمال" حرجا في الانضمام إليهما.

أحيانا كثيرة كانت "صبحية" تسير إلى الكافيتريا في منتصف المسافة بين المنصة و"شارع العدل". تشرب الشاي المغلي مع الحليب، وتأكل "خبز طاوة"، يُعد على المقلاة. تختار طاولة على الشارع. تنظر إلى الناس بمحبة. يبادلونها التحية والدعوات بالنصر. يعرفها معظم المارة. فهي من أكثر الوجوه التي تعمل في صمت.

وجدت "صبحية" وطنها الذي كانت تبحث عنه. ترى وطنها في الساحة يتخلق يوما بعد يوم. تنتظر اللحظة التي ستراه مولودا كاملا

يكبر أمامها بصبر وعزيمة الثوار. بحثها عن هوية في وطن آخر عاشت فيه الغربة، وهوية وطن عادت إليه بعد طول غياب.

●●●

(٢)

بدا من نظرات "مهدي الريمي" الزائغة في كل اتجاه مدى تأثير كلام "صبحية" و"كمال" عليه. هي المرة الأولى التي يجلس فيها مع سيدة في مكان عام، والمرة الأولى التي يسمع فيها حديثا ساعده في فهم ما يدور من حوله في "ساحة التغيير". غادر "مهدي" الساحة من جهتها الشمالية، القريبة من المواصلات العامة. كانت منصة الساحة في أوج ألق أغانيها الثورية، وفي تتابع تقديم الاستقالات من مؤسسات الدولة العسكرية والمدنية. أخذ حافلة صغيرة أقلته إلى "سوق علي محسن"، تحديدا إلى منزل "يونس". فضّل ألا يعود لمنزله باكرا الليلة، ليؤكد لأمه أنه لا يشعر بالقلق على شقيقه، وواثق من عودته عاجلا أم آجلا!

طرق "مهدي" باب منزل "يونس". نهضت أم "يونس" تسأل من الطارق في هذه الساعة. يشعر "مهدي الريمي" بأن معاملة أم "يونس" الطيبة جعلته واحدا منهم، يحن للقائهم، ويُلقي بتعب أيامه على عتبة منزلهم؛ لذلك لم تتفاجأ أم "يونس" بأنه الطارق؛ لكنها فوجئت بشحوب وجهه. سألته مباشرة عن حاله، ولماذا يبدو وجهه شاحبا؟ أجابها بأن عمله الجديد متعب ويحتاج إلى أن يتعود عليه. طلبت منه الدخول. توجه إلى "يونس"، وتوجهت هي إلى ركن المطبخ لتجهز له العشاء.

دائما ما يضع "مهدي الريمي" أمه وأم يونس في مقارنة، تنتهي لصالح أم يونس؛ يشعر بأن حبها له وحنانها وعطفها عليه، ومعاملته

كيونس، تعوضه عن سوء معاملة أمه واهتمامها بالمال فقط! كيف لحظتْ أم يونس شحوبه وهزاله وحركة عينيه، التي لا يستطيع التحكم بها، بينما أمه لم تتنبه لبقع الدم على قميصه، ولم تلحظ اصفرار جلده من هول ما رأى وعانى من زوابع مفجعة في يوم جمعة الكرامة؟! لم تضع عينيها في عينيه لتسأل بلهفة وحب وحزم في الوقت ذاته عن أسباب حركتهما الجديدة، أو حتى تسأله عن عمله الجديد؛ لا يهم مادام يصلها المال دون تفاصيل لا تعتبرها مهمة.

أم يونس كانت الاستثناء الذي جعل "مهدي الريمي" يغفر لأمه، بل يجد لها مبررا لقسوتها معه ومع أشقائه. يتذكر يوما كريها، قبل خمسة أعوام، قدمت فيه أمه إلى المدرسة، انتزعته من وسط فصله الدراسي، وزرعته في قلب محل بيع الدجاج في مؤخرة "سوق علي محسن". وجدتْ فرصة حصوله على هذا العمل مُربحة أكثر من الدراسة. لم تتردد في أن تقول لصاحب محل الدجاج، الذي كان يبحث عن عامل: "انتظر ساعة فقط وسأحضره لك". يومها قالت لمهدي:

- قل الحمد لله! هذا عمل يتمناه الكثير؛ عَيدِّي لك زلط خيرات، والدراسة تشتي زلط، وأنا ما معي بعد مرض أبوك!

لم يجد ما يردّ به عليها. دخلت معه إلي المحل وراحت تعلمه كيف يمسك الدجاجة، وكيف يذبحها، ويضعها في قُمع تصفية الدم وأفضل طريقة لتقطيعها إلى أربع قطع متساوية. شعر يومها بأنه يريد الصراخ في وجهها حتى ينفجر حلقه، ليصيب عينيها بالشلل للحظات، تمكنه من الهرب والعودة لمدرسته وأصدقائه. لم تمنحه فائض وقت ليودع كل هؤلاء، أو يتبرع بكرسيه لأحد الطلبة الجالسين على الأرض، وما أكثرهم في فصول المدارس الحكومية!

ظلت أم "مهدي الريمي" واقفة على باب المحل تراقب أداءه، وفي الوقت ذاته تضمن عدم عودته إلى المدرسة. تومئ له برأسها ويديها بما تريده منه، دون كلام. وعندما تفتح عينيها يصل التماعهما كبرق يشق "مهدي" إلى نصفين؛ فهذا "يعني أن ما تفعله غلط يا مهدي!"، فيعدل "مهدي" من طريقة التقاط الدجاجة أو جزّ عنقها بنصل حاد يكون قد جهزه إلى جواره. منذ ذلك اليوم وغاية "مهدي الريمي" وحلمه هو امتلاك محله الخاص، ليعطي أمه ما تريده من مال، ويعيد شقيقه الأصغر إلى المدرسة، ويريحه من الأعمال الشاقة التي يقوم بها.

•••

(٣)

يتبادل "يونس" و"مهدي" الحديث أمام منزل "يونس"، المطل على السوق. حال انتهاء "مهدي" من الحديث عمّا دار بينه وبين "صبحية"، وأنها وعدته بالحفاظ على سرّ موت شقيقه. انتقل "مهدي" بعد ذلك للحديث عن مشروعه. قال ليونس إن فترة واحدة لن تُدرّ له دخلا كافيا كما توقّع؛ لذلك فكّر أن يضيف عربة بيع سندويتشات البيض والبطاطس في الصباح؛ لكنه يخشى مالكي تلك العربات من حوله. اقترح عليه "يونس" شراء فاكهة الموسم وبيعها على عربة صغيرة إلى جوار عربة المقلاة أفضل من الدخول مع مالكي العربات في مشاكل. بدت الفكرة لمهدي مسالمة وغير مُجهدة لفترة الصباح. أضاف:

- وبعد الغداء مباشرة، وقبل مقيل تخزين القات، أمرّ على الخيام لبيع الماء البارد حتى بعد العصر، وبعدها أجهّز قلاية معد وأكباد الدجاج، وأكون بذلك قد استغللت الوقت في مكان واحد.

أعجب "يونس" كثيرا بأفكار "مهدي"، وتمنى لو أن أمه تسمح له باستغلال وقته ليتمكن من الإسراع بتوفير مبلغ امتلاكه المحل؛ لكن لا فائدة؛ فخوفها عليه ومنعه من العمل، إلا في المحل، وفترة الصباح فقط، وإصرارها على تحذيره من الذهاب إلى الساحة، لن يمكِّنه من جمع المال بالشكل السريع الذي يريد. يحتار "يونس" كثيرا من خوف أمه عليه، في حين أن كل أصدقائه في السوق، وأيضا معظم أصدقاء "مهدي" في منطقة "مذبح"، يخرجون في الصباح الباكر ولا يعودون إلا في المساء، لا يسألهم الآباء أو الأمهات أين كانوا؛ بل أغلبهم يسأل كم جلبوا من المال، أو كمية ما جمعوه من صدقات الخضر والفاكهة والملابس، في السوق وخارجها.

تهدّجَ صوت "مهدي" عندما تذكر شقيقه وكيف كانت أحلامه أكبر منه في العودة إلى المدرسة عندما يمتلك المحل. كان "مهدي" يعطيه جزءا مما يجنيه في يومه، حتى يساعده، ويعطي الباقي لأمه. قال له يوما إنه يشعر بأن "مهدي" والده، وأن أخته الوسطى المتزوجة، التي أصبح لديها ثلاثة أبناء، هي أمه؛ من فرط حنانها عليه عند زيارته لها. لم يكن لديها ما تجود به عليه غير احتضانه وتقبيله وحثه على الانتباه لنفسه أثناء عمله. أما مبيته عندها أحيانا فكان غاية أمانيه. لم يجد "يونس" ما يرد به لمرور طيف شقيق "مهدي" عليهما، غير الصمت.

كانت "أمل"، شقيقة "يونس"، تخبط بيديها الصغيرتين على زجاج النافذة، تطلب منهما أن يدخلا، لأن الرياح كانت شديدة والأم تخشى عليهما من المرض. إنها أواخر مارس، بداية الربيع؛ طقس متقلب تسوده الرياح المخصبة، المحملة بأمشاج الأشجار، وغيم يُلقي زخات مطر على جذورها فيروي ظمأها الذي دام عاما.

ودّع "مهدي" "يونس"، وألقى التحية على أمه، وعاد إلى منزله، يحدوه أمل الوصول وقد نامت أمه، حتى لا تسأله عن شقيقه وأين وصلت رحلة بحثه عنه! كان له ما أراد. بل إن منطقة "مذبح" كلها غارقة في ظلام انقطاع الكهرباء، تتقاذف أركانها أصوات رياح قوية تأتيها من كل صوب، وينذر البرق المتلامع في السماء بهطول مطر يخشاه أهل المنطقة؛ بسبب الخراب الذي يسببه لطرقهم التي شقوها بأنفسهم، ويؤدي أحيانا إلى طفح المجاري، ولا قدرة لهم على إصلاح كل هذا الدمار. يفضلون الجفاف على المطر.

دخل "مهدي" إلى المنزل بهدوء نملة تسحب خلفها غذاء الربيع القادم لتخزنه في جُحر لا يعرف أحد عنه شيئا. أمه كانت تغط في نوم عميق. أبوه مقيد القدمين في ركنه، ادعى النوم ليهرب من مواجهة نظرات "مهدي" المعاتبة له. "مهدي" يعرف تماما أن جنون والده قرار اتخذه للهروب، وليس مرضا.

حدث "مهدي" نفسه وهو ينظر إلى والده.. قبل أن يكون لنا غرفتان وصالة وحمام ومطبخ على جبل مذبح، كنا نعيش في غرفة وصالة فقط، صغيرتين. إخوتي الكبار كانوا ينامون في الصالة، ونحن الصغار في الغرفة مع أبي وأمي. قالوا إننا صغار ولن نفهم ما يدور بينهما ليلا. في تلك الليالي كان صوت أمي دائما مرتفعا، ورافضا شيئا ما، أو متألما من شيء ما! وحده أبي كان واثقا بأنه لا الرفض ولا التذمر سيثنيه عما يريد القيام به. عندما كبرنا قليلا قسمت أمي الغرفة بستارة جعلت من مخيلتنا عالما تجاوز صوتها وسار نحو ذاته ليفعل بها ما يريد.

لذلك ربما تشعر أم "مهدي" بأن القيد الذي يطوّق قدمي زوجها هو حماية لها منه، وشعور بالأمان؛ فقد عانت معه أياما صعبة، لم تمنحها

لياليها غير الخوف منه ومن معاشرته القاسية، ومن تعاظم مسؤولياته وهروبه من تحملها بجنون مصطنع، ليلقي على كاهلها حملا ثقيلا. لم تجد غير القسوة لتعامل بها الأولاد، وتزويج البنات لتلقي بحملهن على غيرها.

لم ينم "مهدي" سريعا. أخذه التفكير في كل ما مرّ به؛ كأنه كابوس! يتمنى لو أن عجلة الزمن تعود إلى الوراء، ليمنع كل ما حدث، أو تسير إلى الأمام بسرعة ليفتح فيها عينيه فيرى أحلامه كلها قد تحققت. كانت أحلام "مهدي الريمي" صعبة، رغم بساطتها، وتحقيقها يحتاج منه إلى العمل ليلاً ونهاراً. في تلك اللحظة لمعت في ذهنه فكرة انفرجت لها أسارير وجهه، وقفز من مكانه، وعلا صوته دون أن يشعر:

- لماذا لا نتشارك أنا ويونس محلا واحدا في البداية؟

فكرة كهذه جعلت نوم "مهدي" كنجمة بعيدة في السماء، فأنهى الليلة مبحلقا فيها. أحلام "مهدي الريمي" أصبحت للتو بلا حدود. في الصباح اندهش "يونس" وهو يرى "مهدي" واقفا على باب المحل ينتظر لحظة يخلو فيها المحل من الزبائن ليحدث "يونس" بفكرته الجديدة. لم يطق صبرا للمساء، فقرر الحديث معه وشراء العربة التي سيبيع عليها فاكهة المواسم.

الحلم بالنسبة لمهدي ويونس هو الاستمرار في الحياة. حال الفقراء هكذا؛ أشياء بسيطة تحرض على الاستمرار في الحياة، وربما على تحمل الحياة دون وجود ما يسد الرمق، أو يغذي العقل، أو يمنحهم كامل الحقوق.

•••

(٤)

هذه المرة سمحت حراسة بوابة "ساحة التغيير" لمهدي أن يدخل هو وعربته من بوابتها الغربية؛ لكنها أخذت من عربته بعض الخيار. لم يكن هناك فاكهة موسمية مناسبة؛ لذلك قرر أن يبيع الخيار. أواخر مارس ينتهي موسم البرتقال واليوسفي، ولم يعد في السوق ما يشجع على الشراء وتحمل حرارة الطريق إلى الساحة. الخيار من الخضر دائمة التوافر. رشَّ عليه "مهدي" ماء طوال الطريق، حتى يظل طريا. مرّ من البوابة الشرقية للساحة ووقف لحظات يتأكد مما يرى.

كانت "صبحية" في خيمة كُتب على واجهتها: "ثورتنا فن"، تتحدث لمجموعة من الأطفال والشباب حولها. ترك "مهدي" العربة من يديه، وراح ينصت لما تقول. انتبهت لوجوده، ودون أن تقطع حديثها وجّهت له ابتسامة وحيَّتْه بإيماءة من رأسها ورفع يدها للأعلى. لم يفهم كثيرا مما كانت تقوله لهم، رغم حرصه على الاستماع إليها حتى النهاية. بعد لحظات بدأت في توزيع ورق أبيض وأقلام رصاص على من بقي حولها. طلبت منهم الجلوس على الأرض ليستندوا على ركبهم لكي يرسموا. وضعت أصغرهم سنا على الطاولة أمامهم، وراحت تشرح لهم كيف يتم نقل طول الصغير وعرضه بالرسم على أوراقهم البيضاء بمقاسات حقيقية، أكبر أو أصغر لو أرادوا. هناك من ابتهج للفكرة، وهم الأكبر سنا، وهناك من الصغار من أمسك بالورقة والقلم وراح ينظر إلى صديقه ويضحك بتلقائية شديدة، ويكتم صوته حتى لا تسمعه "صبحية"، وينظر إلى الأرض حتى لا تحرمه من الدرس لو اكتشفت ضحكه!

امتصت "صبحية" كل ردود الافعال كإسفنجة كبيرة. تعرف أن ما تقوله هو أبجديات الرسم، الذي أهمل مع الموسيقى في المدارس، ولم يهتم به "نظام صالح" اهتمامه بشراء الأسلحة وتخزينها في الجبال حول العاصمة كمعسكرات بغيضة تهدد سكينة الناس بل تهدد حياتهم. قبل الثورة أنشأت "صبحية" مرسمها الصغير في قلب مدينة صنعاء القديمة، لتمرّن الناس على التذوق الفني وتعليم الصغار الرسم، وها هي تفعل الشيء ذاته في قلب "ثورة التغيير".

تعرف أن صنعاء، التي تعشقها، بلا صالات عروض فنية ولا مسرح ولا دور سينما. لذلك يضحك الصغار، ويستغرب الشباب! إنها المرة الأولى التي يرون فيها عينا تغمض وعينا تفتح لتنقل مقاس إنسان على ورقة بيضاء. بعد لحظات من الشرح الجاد والرسم على اللوح الأبيض، أنهت "صبحية" رسم الصغير، جعلتهم يتناقلون اللوحة التي أنهتها للتو فيما بينهم بهدوء، وتلقت دهشة العيون بفرح جعلها تعلق اللوحة على جدار الخيمة الأمامي وتوزع كمية من علب الألوان للصغار جميعا. عندما اقتربت من "مهدي" ومدت له الألوان رفض وقال إنه لا يعرف كيف يستخدمها. وقبل أن ترد يدها بما ناولته، خطرت على باله "أمل"، أخت "يونس" الصغيرة، واعتقد أن الألوان ستفرحها، فأخذها من "صبحية" ووضعها في جيبه، وزاد على ذلك أنه ثنى الورقة الكبيرة حتى أصبحت ربع حجمها ووضعها مع القلم الرصاص إلى جوار الألوان في الجيب ذاته.

اجتهدت "صبحية" حتى لا تُحدث أي رد فعل لما فعله "مهدي"، غير أن تنتقل لتناول علبة ألوان أخرى للتالي. وبينما هي تفعل ذلك، أمسك "مهدي" بمقبض عربته، متجها إلى قلب الساحة. استظل بالشجرة التي

إلى جوار عربة المقلاة. استمر في رش الخيار بماء بارد، وتقطيعه وإضافة الملح أو السكر لمن يرغب. لم يصدق أن الكمية انتهت في الظهيرة، وأن ما جناه ثلاثة أضعاف ما خسره. لو كان "يونس" أمامه لعانقه امتنانا لفكرته المربحة. ارتفع أذان الظهر من مكبرات المنصة فربط مهدي عربة الخيار إلى عربة المقلاة وتوجه إلى المسجد.

•••

(٥)

فترة الظهيرة هي أكثر أوقات الساحة هدوءا. يركن الجميع فيها إلى الخيام لتناول طعام الغداء ومن ثم الانتقال إلى مرحلة "مضغ القات. "مهدي" يجهز "القلاية" ليبدأ بيع معد وأكباد الدجاج، بعد أن مر لشرائها من محلات قريبة اتفق معها البارحة. يتحدث أغلب زبائنه عن الزحف يوم الغد. إنها الجمعة الأولى بعد مجزرة "الكرامة". سيزحف الثوار إلى القصر. تزايدت الشائعات والأخبار، وأصبح النقاش بين مؤيد ومعارض للزحف. في المساء كان الخبر قد تأكد من أنها "جمعة الزحف إلى القصر". أمسك "مهدي" رأسه من هول ما سمع، وما إن انتهى من بيع ما لديه توجه إلى الكافيتريا. لم يجد "صبحية". انتظر؛ قد يراها أو يرى "كمال"! دون فائدة. تذكّر الخيمة التي حدثه عنها "كمال"؛ فتوجّه إليها.

كان "كمال" يتوسط ثلاثة من الشباب، خلفهم لوحة بيضاء كُتب عليها عنوان المحاضرة: "الشباب والتغيير"، وعلى الأرض جلس المستمعون، غير مبالين باتساخ ثيابهم. اندس "مهدي" بينهم وحاول أن يكون أقرب ما يكون، ليسمع حديث "كمال" عن الثورة. كانت نبرة صوته خافتة يطغى

عليها الحنو. تفاوتت أعمار الشباب المستمعين له؛ لكن أكبرهم لم يتجاوز العشرين عاما، وربما هذا ما كانوا يحتاجونه، أن يستمعوا إلى كلام مهم يلامس عقولهم. هذه كانت ميزة الشباب المُحاضر في الخيام: خلق وعياً جديداً لدى الشباب الذين غيّب النظام عن سابق إصرار حقوقهم رويدا رويدا حتى أصبح كل ما يجود به عليهم نعمة. بدأ "كمال" محاضرته باقتباس من غاندي: "كن نموذجا للتغيير الذي تحب أن يكون"، وبعدها استرسل في شرحه وكيف يمكن للشباب أن يكون كل واحد منهم هذا النموذج في محيطه وفي الساحة. وكلما أبدى الجمهور إعجابه بكلام "كمال"، تجلى في الاقتباس والاستشهاد من التاريخ ومن السياسة ومن الفن ومن الأدب. كان لديه معلومات جزيلة عن كل شيء، واستطاع أن ينهي محاضرته، وأن يستقبل الأسئلة منهم لم يتوقعها هو شخصيا. وعندما لمح "مهدي" بين الحضور، أولاه بعض الاهتمام، وألقى عليه بعض النظرات كأنها رسائل يفتح بها ذهنه. كان يعلم أنها المرة الأولى التي يسمع فيها مثل هذا الحديث. بعد الانتهاء من المحاضرة طلب "مهدي" من "كمال" مرافقته إلى الكافيتريا، فرحّب؛ لكن بعد الانتهاء من بعض الترتيبات مع الشباب المسؤولين عن أنشطة الخيمة.

كانت "صبحية" تجلس لوحدها على طاولة الأمس. أمامها نصف كوب من الشاي بالحليب. ما إن جلس "كمال" حتى بادرهما "مهدي" بسؤال لم يتوقعاه:

ـ هل سيزحف الثوار باكر للقصر؟! ما يعرفوش أن هذا خطر عليهم؟ وأن الرصاص شيخزقهم قبل ما يوصلوا لنص الطريق؟

وهن صوت "مهدي" حتى شعر "كمال" و"صبحية" كأنه أصابه شيء، وأضاف:

ـ كم أُم ما شيرجعش ابنها لحضنها باكر؟

واغرورقت عيناه بالدموع. استغرب "كمال" من انفعال "مهدي". وأومأت صبحية بيدها تطلب من كمال أن يصمت، وربتت على كتف مهدي بحنان، كأم تفهم تماما فجيعة ولدها السابقة:

ـ لا يا مهدي! اطمئن! الزحف إلى الساحة لأداء صلاة الجمعة فيها من الناس الذين قالوا إنهم متضررون من الساحة والشباب، ليعرف النظام أن الرصاص لن يثني الثوار عن السير في طريق ثورتهم حتى رحيله.

مساء الليلة السابقة كان الرئيس علي صالح قد تقدم بمبادرة لم يعرها الشباب في الساحة أدنى اهتمام، رغم أهمية ما فيها، من تنظيم انتخابات مبكرة وتشكيل حكومة أخرى. لم ينصت أحد لتلك المبادرة، وظل كلام الزحف إلى القصر يدور في كل مكان يمر به "مهدي". لم يجد ما يرد به على "صبحية" و"كمال" فغادر وهو يشعر بالقلق. هجمت عليه صورة أخيه كلما مر حديث مسيرة أو مظاهرة، فما بالك بأن تكون إلى القصر؟!! شاشات التليفزيون التي مرَّ بقربها تتحدث عن جمعة الغد، والشريط الإخباري يقول "الناطق الرسمي لأحزاب اللقاء المشترك محمد قحطان يصرح بأن الجمعة القادمة ستكون جمعة الزحف، سيزحف مئات الآلاف من الثوار بصدورهم العارية إلى القصر الرئاسي". وزاد بل سيزحفون لغرف النوم.

تصريح كهذا كان كافيا ليفقد بعض الناس إيمانهم بالثورة، فتراجعوا ولزموا منازلهم دون أن يكونوا مع أو ضد.

أثناء مرور "مهدي" بين الخيام في طريقه لمغادرة الساحة، شاهد وسمع تناقضا، على شاشات التليفزيون، فردد بشكل تلقائي وبصوت لا

يسمعه غيره: ما لعاركم تشتوا تموّتوا الشباب والمساكين؟! تعالوا ازحفوا أنتم!

عندما وصل "مهدي" لمنزل "يونس" كان قد شعر ببعض الهدوء، ولم يشأ أن يحدثه عن الساحة وما يدور فيها، بل طلب منه الرد على ما عرضه عليه في الصباح من أمر المشاركة معه في محل الدجاج. قال له بحماس وكأن موافقة "يونس" محسومة:

ـ اليوم كان مكسبي كثير بعد أن نفذت فكرتك واشتغلت الصبح على عربة الخضار، والعصر على القلاية، ولو استمر الحال هكذا شنقدر باللي جمعناه في السابق واللي نكسبه أن نستأجر المحل ونشتري الدجاج ونبدأ العمل على طول.

صمت "يونس" عن الرد، أو المشاركة في الحديث، فأيقن "مهدي" أن أم يونس لم توافق على مقترحه. رغم حبها ومعاملتها الحانية له. وقبل أن يرد "يونس" مبررا، سمع صوت أمه تناديه وتطلب منه الدخول مع "مهدي".

قد لا تدرك أم يونس أن المال كان سببا في ضياع شعوب ودمار دول؛ لكنها تدرك، بفهمها البسيط، أن الشراكة في المال من أكثر الأسباب التي تؤدي إلى مشاكل بين الناس، لذلك راحت تحدث "مهدي" بهدوء. تعرف أن تحقيق حلمه هو هدفه في الحياة، وتعرف كم تعب في السابق وكم يتعب الآن من أجل امتلاك محل بيع الدجاج:

ـ أنت بمعزة يونس وأمل ومحمد، ويونس يعتبرك أخوه الكبير من يوم ما عرفك وعرفته في السوق قبل ثلاث سنين، ولا شيء يفسد النفوس يا ابني مثل الفلوس، ولا شيء يفسد المحبة بين الناس مثل الفلوس. وأنا ما او فرش كثير، ولو بديت مشروعك وحدك أحسن لك. أنا ويونس

سنساعدك في كل ما تريد. شاغسل لك المحل مرتين في اليوم، ويونس شيدور لك عن الزبائن وشيبيع لك ما تشي. المهم ابدأ؛ لكن مش شراكة. كن حر نفسك، وافعل ما تشي!

كانت نظرات مهدي إلى أم يونس تقول: "معك حق؛ لقد فقدت أخي من أجل المال! وأمي لم تعد تسأل عنه بسبب المال، وسأحافظ على علاقتي بيونس وبكِ، ولن أجعل شيء يحرمني منكما أبدا".

عاد "مهدي الريمي" إلى منزله مشوشا، غير قادر على اتخاذ قرار، وغير قادر على أن يزيل يوم غد من ذهنه.

●●●

(٦)

كم أُمًّا ستفقد ابنها اليوم؟! وكم أخا لن يرى شقيقه بعد اليوم؟! وكم أسرة لن يعود عائلها في المساء؟! هل حقا سيزحف الثوار اليوم إلى القصر؟! هل حقا سينتقمون اليوم لشهداء الجمعة الماضية؟! هل..؟! وهل..؟! هذا ما سأل "مهدي الريمي" نفسه عندما استيقظ من النوم حزينا على شقيقه في أول جمعة تمر منذ وفاته، وفي الوقت ذاته مهموما بالساحة ويخشى تكرار ما حدث الجمعة الماضية! هل يذهب، أم يبقى في المنزل؟ وإن ذهب، هل سيزحف معهم كما كانوا يتحدثون البارحة بذلك الحماس، أم سيبقى في الساحة يكسب رزقه مثل سائر الأيام؟

وبينما هو مستغرق في حزنه، وصله من الحجرة الأخرى صوت، حط على رأسه كصاعقة قسمته نصفين. كان صوت أمه، تطلب منه النهوض والذهاب إلى "سوق علي محسن"، لانتظار الرجل الذي أخذ شقيقه، ربما

يعود به اليوم! حاول أن يتجاهل نداءها؛ لكنه يعلم أنه إن لم يفعل ويذهب فستذهب هي! ما لم يتأكد منه هو هل سؤالها عن شقيقه نابع من قلبها كأمّ وتريد الاطمئنان عليه، أم هو قلق على عدم حصولها على المال المعتاد منه؟! أجابها بالموافقة؛ لكن بعد أن يغتسل للجمعة. ارتدى "مشدة" شقيقه، المعلقة على الجدار. كان على جدار حجرته مسماران غرسهما فيه، يعلق عليهما هو وشقيقه ثيابهما. لم يكن لهما دواليب لحفظها، أو حتى كراتين ورقية مثل شقيقاته قبل زواجهن. على أرض الحجرة فرْشٌ له وفرْشٌ لشقيقه. بارتداء "مشدة" شقيقه سيشعر ببعض الاطمئنان؛ لذلك أحكم ربط "المشدة" جيدا على رأسه وأخفى تحتها شعره الناعم.

احتار "مهدي الريمي" إلى أين يتوجه؛ هل إلى الساحة أم إلى السوق؟ ولأن الساحة في هذه اللحظة قد تكون دما ملطخا في قميص الجمعة الأبيض، قرر أن يذهب إلى السوق، وتحديدا إلى "يونس". رفع "فوطته" قليلا حتى لا تتسخ في شوارع "مذبح" الترابية. نزل من الجبل باتجاه "سوق علي محسن". يعرج كل يوم جمعة على منزل حبيبته، "حبيبة"، ابنة الجيران في الشارع الخلفي لمنزلهم. تطل عليه من الباب بقامتها المتوسطة وهي تضع على وجهها لثامها الأسود، ولا يرى غير عينيها. لم يتبادل معها أي حديث، فقط يرد عليها عندما تقول له: "جمعة مباركة"، قائلا: "مباركة على الجميع". منذ عام وهو يخرج في الوقت ذاته، من اليوم ذاته، ليرى "حبيبة" لتقول له ويقول لها العبارتين ذاتهما.

لفتت "حبيبة" انتباه "مهدي الريمي" منذ عام. ما إن رأته قادما حتى أسرعت لتضع الستارة الملونة على رأسها وأسدلتها إلى الأرض فأعاقت حركتها وسقطت أمامه. عندها قال لها:

- الله، الله معش! أوبهي!

أمسك بيدها ليساعدها على النهوض وهو يتلفت مستطلعا الشارع، وهل رآه أحد! ولما لم يجد أحدا، لأن خروج الناس نادر يوم الجمعة، ساعدها على النهوض. ولتلفت انتباهه ضغطتْ على يده حتى صرخ من الألم! أطالت النظر بعينيها اللتين لا يظهر من وجهها سواهما، لتؤكد له أنها مهتمة به. أربكه هذا التصرف أكثر. ما إن استقامت حتى تركها وأسرع الخطى للنزول من جبل "مذبح". هذا أقصى ما يستطيعان فعله في بيئة تقليدية تراقب كل ما يدور بحذر. ومن تلك اللحظة أصبحت "حبيبة" هي أمل "مهدي الريمي"، والتي يتمناها زوجة له؛ لكن بعد أن يملك المحل. لم يحدث أحدا عنها، ولا حتى "يونس"؛ يخشى أن ينتشر خبرهما فيسبب لها مشكلة ويُحرَم منها.

وصل "مهدي الريمي" إلى منزل "يونس". قَبَّل جبين أم يونس حال رؤيتها، وقال لها:

- جمعة مباركة يا أماه سعادة!

بعدها استأذن ليونس أن يذهبا معا لصلاة الجمعة في المسجد القريب من السوق، فوافقت. لم يذهبا إلى السوق، بل انزويا يستظلان عند ركن أحد الدكاكين تحت منزل "يونس". لم ينطقا بكلمة. كانت ذاكرتهما تموج بذكريات وأحداث الجمعة الماضية، مع جلجلة ضحكة شقيق "مهدي"، وحماسه للذهاب إلى "ساحة التغيير" لكسب المال؛ سبقته أمانيه بالعودة إلى أمه برزق وافر. ستدعو له بالصلاح؛ لكن الأهم أنها كانت ستحتضنه وتطبع على جبينه قبلة شكر. هي لا تفعل ذلك إلا عندما يكون ما جناه وفيرا. تنهدا معا في اللحظة ذاتها! هكذا الحزن يعتقه الزمن ويصبح علقما كلما مر على البال أو استكان في الذاكرة.

مر الصباح، وتلاه الظهر، واقترب العصر دون أن يسمعا أي أخبار سيئة. قاما بجولة في أرجاء "سوق علي محسن" علهما يسمعان شيئا عن زحف الشباب، أو عن مواجهات بينهم وبين رجال الأمن. لم يحدث ذلك، ولم يظهر على من مرا عليهم حتى اهتمام بما يحدث ويدور في الساحة. عاد "يونس" إلى أمه، وتوجه "مهدي" إلى عمله في الساحة؛ لا يريد أن يُضيِّع ولو يوما واحدا دون عمل؛ وإلا فكيف سيحقق حلمه؟

عند ولوج "مهدي الريمي" الساحة من مدخلها الغربي، لاحظ اكتظاظ الساحة بالناس؛ هذا معناه أن الصلاة كانت في الساحة ولم يحدث أي زحف! لاحظ أن أغلب الموجودين في الساحة، من نساء ورجال وأطفال وشباب، يحملون قصاصات حمراء مكتوبا عليها بلون أبيض جلي كلمة "ارحل". تم التعامل مع هذه الكلمة كأمل قريب التحقيق. هناك من علقها على صدره، وهناك من دسها في مئزره، والبعض وضعها على غطاء رأسه. كلّ عبّر عن شعوره ووضعها في مكان يليق به ولا يشبه غيره. تعبير البسطاء في الساحة، يفوق الوصف، ويجعل منهم نسيجا بديعا لا تتشابه أجزاؤه.

كان "مهدي الريمي" في طريقه إلى عربته حين لمح "صبحية". كانت تضع قصاصتها على قلبها، وشبكت تحتها قطعة معدنية مدوّرة للعلم الوطني بألوانه الثلاثة: الأحمر والأبيض والأسود. ابتسمت له، ودَعته أن يتقدم نحوها. ناولته قصاصة "ارحل". بادلها الابتسام، ودسّ القصاصة في أعلى الجزء الأمامي من "مشدته"، ليشكّل رأسه هرما متسقا؛ قاعدته وجهه، والمشدة وقصاصة "ارحل" قمته.

وصل "مهدي" إلى عربته ووجد ولدا كلفه بجمع أكباد ومعد الدجاج من المحلات وموافاته في الساحة مقابل مبلغ من المال. أخبره الولد بأن

الخير وفير اليوم، فمعظم الناس تغدت في الساحة، ومعظم ساكني المنازل المحيطة بالساحة تبرعوا بوجبة الغداء للثوار، ومن خلال تلك الوجبات يقول كل السكان إنهم ليسوا قتلة وليسوا من فعل بالمصلين ما فعل الجمعة الماضية؛ بل يقولون: نحن مثلكم تماما؛ ننشدُ وطنا عادلا للجميع. ألسنا نحن من رشَّ على رؤوسكم الماء في المسيرات لتخفيف حرارة الشمس؟ ألسنا من ألقى لكم بالبصل لينقذكم من الغازات السامة؟ ألسنا من تحمل وسيتحمل انقطاع سُبل عيشه وإغلاق محلاته من أجلكم ومن أجل بقاء خيامكم شامخة في الشوارع المحيطة بالساحة؟

كانت حُجة النظام أن هذه الأسباب هي التي أدت إلى أن يستخدم سكان الأحياء المجاورة الرصاص في وجوه ثوار الساحة. قالها علانية الرئيس في خطابه: أهل صنعاء قتلة، وأنهم فعلوا ذلك من أجل الدفاع عن لقمة عيشهم وعن أمنهم واستقرارهم في منازلهم، وأن الثوار لم يراعوا كل ذلك، بل راحت خيامهم تنتشر كل يوم كأخطبوط في الشوارع المحيطة بمركز الساحة في البوابة الشمالية لجامعة صنعاء يطالبون برحيل النظام وإلا البقاء في الشارع حتى يتحقق مطلبهم.

المستفيد من هذه الوجبات هو "مهدي الريمي" بالطبع. نظر إلى ما جلبه الولد وفكّر: هل حقا سيتمكن من بيع هذه الكمية الكبيرة اليوم؟! لذلك بدأ العمل فورا. أخرج الزيت وبدأ تسخينه. غسل معد وأكباد الدجاج ووضعها في مصفاة لتجفيفها من قطرات الماء، حتى لا تسبب فورانا للزيت عند قليها. جهز الكَمُّون والملح والفلفل الأسود في طبق وضعه أمام الزبائن، حتى يكون في متناول أيديهم عند الاحتياج. تبدو عربته تلقائية حسب حاجته، صمّمها ليلائم حجمها موقعها.

يستمع "مهدي الريمي" من موقع عربته لكل ما يدور في المنصة: الأغاني الثورية، الفقرات التمثيلية الحماسية، والجمل الثورية التي تُقرأ أو يتم ترديدها بين فقرة وأخرى. يحاول أن يلتهم كل هذه المعرفة الطارئة على حياته ليعوض نقصا فاته رغما عنه، ويجد نفسه الآن متعطشا لها. لم يفهم كثيرا من محتوى محاضرة "كمال" عن التغيير؛ لكنه يحاول أن يربط كل ما يسمعه ويراه في أرجاء الساحة ليفهم أكثر. سيُعلِّم نفسه عوضا عن شقيقه، الذي كان يرجو له مستقبلا أفضل منه. سيحقق أحلامهما معا.

قبل أذان المغرب علا صوت شجار كبير بين الشباب حول المنصة. تنحت النساء جانبا، حتى لا يصبن بالأذى. كل من في المكان القريب يحاول أن يفهم أسباب الشجار، الذي وصل حد استخدام العصي والأسلحة البيضاء. لم يفهم "مهدي الريمي" ما يدور، ولم يحاول حتى أن يسأل. صب جُلَّ إهتمامه في عمله، وبدأ يرتب في ذهنه سيناريو إنقاذ عربته لو امتد الشجار واقترب منها. انتهت المشاجرة، وأنهى "مهدي" عمله بعد أن صلى الناس العشاء في الساحة، بعضهم في المسجد المقابل لعربته والبعض أمامها تماما. شعر بنفسه متعبا. هندم عربته وأعاد كل شيء إلى مكانه وأغلق على أدواته الصندوق الذي يحوي أيضا إسطوانة الغاز والزيت. جلس على الأرض يفكر في الخطوة القادمة لنهاية يومه؛ هل يعود إلى المنزل أم يذهب إلى كافيتريا "صبحية"، أم يسمع ما سيقوله "كمال" في محاضرة اليوم؟ كانت خيمة "شباب مع الحدث" هي الأقرب إلى تفكيره.

قبل أن يصل الخيمة بعدة أمتار ارتفع صوت مناقشة في طريقها لأن تتحول إلى شجار. تكررت فيها العبارات ذاتها التي لم يفهمها في

المشاجرة الكبيرة التي كانت أمام المنصة. أحد الشباب يوجه كلامه إلى آخر بحدة وتحدّ:

- ليس من حقك أن تمحو الاسم من القائمة. ليس معنى انضمامه إلى الثورة أنه قد تطهر من أعماله السابقة، من الدماء التي سَفكها في صعدة، والأراضي التي نهبها في كل اليمن؟!

رد عليه الآخر بصوت متشنج:

- هو الآن حامي الثورة، وانشقاقه عن نظام الرئيس صالح دليل على نواياه الحسنة، وكل ما تقوله سببه رأس الأفعى علي عبدالله صالح وليس علي محسن، هو ينفذ ما يقوله رئيسه وليس من تلقاء نفسه..

التفت الشاب الأول نحو ورقة كبيرة مكتوب عليها: "شجرة الأسرة الحاكمة ٣٣ عاما"، واحتوت جدولا يضم واحدا وأربعين اسما من أقارب الرئيس وعائلته وأنسابه، وأمام كل اسم المهنة. اسم "علي محسن صالح الأحمر" (الأخ غير الشقيق)، والمهنة: "قائد الفرقة الأولى". كانت حروف هذه الأخيرة قد كشطت باللون الأسود، وعلى ذلك احتج الشاب، وعلى عدم إعفائه مما ارتكبه في السابق، وعدم اعتبار انضمامه إلى الثورة تطهيرا أو تكفيرا عن ذنوبه، والإصرار على وجوب محاسبته.

خرج "كمال" من الخيمة بعد أن ارتفعت الأصوات وانقسم المتشاجرون في تلك المشاجرة البسيطة إلى فريقين، فريق مع كشط الاسم وفريق ضد الكشط. ولولا أن بعض الشباب يتميز بالرشد وحب الجوار لاحتدت المشاجرة وربما انتهت باستخدام السلاح الأبيض كما حدث أمام المنصة. فهم "مهدي الريمي" أن هذا كان سبب الشجار أمام المنصة. حاول أن يعرف عن هذا الأمر أكثر، ولماذا الموافقة والترحيب بالانضمام، والعكس.

منذ انضمام "علي محسن" إلى الثورة أصبحت الساحة منقسمة إلى فريقين؛ هناك من رأى أن الثورة يجب أن تحافظ على مكونها الأول: الشباب، وعلى سلميتها وعدم عسكرتها بالجيش. وهناك من رأى أن قبول "علي محسن" وأمثاله فيه قوة للثورة لتحقيق أول هدف لها، وهو رحيل نظام الرئيس "صالح". سبق ذلك رفض وتأييد مشابهين، بشأن انضمام بعض الأحزاب إلى الثورة ومحاولة بعضها السيطرة على الساحة.

كان لانضمام الأحزاب و"علي محسن" أثره السيء على الثورة عامة، وعلى مناصريها. عاد الكثيرون إلى منازلهم، وتم تسميتهم "الفئة الصامتة"، التي لم تقاوم، وفضلت العودة إلى منازلها، دون أن تعي خطورة ما فعلته، ولم تدرك أنها بذلك تسلم الثورة والشباب على طبق من ذهب، ليشكلوه كما يريدون. من يومها التفّت الأحزاب على الثورة. تطهّر المذنبون واعتقدوا أن الثورة تجُبُّ ما قبلها. وقد كان!

فض "كمال" المشاجرة داعيا إلى احترام وجهة نظر كل طرف. دعاهم إلى سماع محاضرته حول هذا الأمر داخل الخيمة. دخل مهدي مع من دخل ليسمع ما سيقوله "كمال". تحدث "كمال" عن الاختلاف كظاهرة طبيعية وصحية في الوقت ذاته تعدل من السلوك وتجعل من التنافس أمرا حتميا لخدمة الشأن العام أو الخاص إن وجد. قال إن ما يحدث في الساحة هو مخاض متعسر لولادة ثورة من رحم مظلم لم يشهد بصيص أمل طيلة ٣٣ عاما، في التعليم والصحة والاقتصاد، ومن الطبيعي ألا يتفق الجميع على رأي أو موقف موحد.

لم يفهم "مهدي" بشكل جيد ما قاله "كمال"؛ لكن فهمه يحدثه بأنه لا يصح أن يقبل الثوار هذا الرجل وتاريخه ملوث بالدم والفساد. بعد

الانتهاء من المحاضرة طلب "كمال" من "مهدي" مرافقته إلى الكافيتريا. لم يكن في ذهنه شيء محدد؛ لكن كل ما يقوله أو يفعله "كمال" هو محرض لمهدي ليتعلم ويعرف ويفهم.

في الكافيتريا كانت "صبحية" على طاولتها المفضلة، تحتسي الشاي بالحليب، غائبة في ملكوت ذهنها عما حولها، لدرجة أنها لم تلحظ قدومهما. لا تعرف لماذا أربكتها نظرة "كمال" حال جلوسه أمامها. كانت نظرة تحمل شيئا مختلفا عما سبقها، لدرجة أنستها الترحيب بمهدي إلا بعد دقائق عندما لاحظت وقوفه حتى تأذن له بالجلوس. سألته عن حاله وحال أمه. هز رأسه بأن كل شيء تمام. سألها مباشرة:

- هل ما زالت فكرة الزحف موجودة؟!

نظرت إليه وهي تعرف كم هو صعب على الكثيرين تقبل فكرة الزحف. طمأنته ألا زحف، وأن الأمور إلى انفراج قريب. ولتخرجه من رعب ذاكرة مليئة بالفقد وملطخة بالدم باغتته بسؤال:

- لمن خبأت علبة الألوان والورقة والقلم؟!

بدا عليه الخجل؛ لأنه لم يستخدمها أمامها كما طلبت، بل خبأها في جيبه. رد على سؤالها مبرراً ما فعله:

- أمل، أخت صاحبي يونس، لا تخرج من البيت، وأمها غير مهتمة بشراء ألوان لها، ففكرت فيها وبفرحها بالعلبة والقلم والورقة. ولو تشوفي كيف كانت سعيدة! وكملت شخبطة ورسم على الورقة في نفس اليوم من أمامها ومن خلفها، حتى أصبحت سوداء.

ابتسم وهو يقول جملته الأخيرة، وكأن "أمل" تقف أمامه في قمة سعادتها بهديته. نهضت "صبحية" يملؤها الحماس بعد حديث "مهدي". طلبت منه مرافقتها. استأذنت "كمال" بأنها ستغيب دقائق، فابتسم وأومأ

لها برأسه موافقا، وأفسح لها الطريق. أمسكت بيد "مهدي". شعر بالخجل أكثر. لم تمسك امرأة يده، حتى أمه. وهذه "الصبحية" تعتبر الأمر عاديا. شعر بحنانها وخطواتها تسبقه لا يدري إلى أين تقوده. وصلا إلى مكتبة تبعد عن الكافيتريا حوالى مائة متر.

الشارع الذي عليه الساحة يسمى "الخط الدائري"، قريب من بوابة الجامعة، تنتشر على جنباته المكتبات ومحلات تصوير الكتب الجامعية ومحاضرات الكليات المختلفة. اشترت "صبحية" من المكتبة علبة ألوان جديدة، ودفاتر عليها رسوم للتلوين، وأخرى "أكمل الرسم"، وثالثة "لوِّنْ واكتبْ"، ورابعة "قص اللون والصقه على الصورة". دفعت ثمنها ثم ناولت "مهدي" كل ما اشترته. قالت له: "قل لأمل إن هذا منك؛ ستفرح وقد تستعد للمدرسة في العام القادم". لم تعطه الفرصة ليرد. أخذ كل ما ناولته. ودّعها، وغادر. في تلك اللحظة ربما كان وجه "أمل" وفرحتها بما أحضره هي السعادة التي يتمناها من الدنيا. عقد النية أن يستمر في شراء كل هذه الأشياء التي يراها في المكتبة للمرة الأولى كل فترة وأخرى.

عادت "صبحية" إلى الكافيتريا، مازال "كمال" منتظرا عودتها أمام نصف كوب الشاي الذي تركته. جلست على كرسيها وكمال ممعنا النظر إليها، متعمدا إرباكها، مبديا إعجابا لا يخفى على امرأة. بجرأة لم يتوقعها واجهت نظراته بمثلها. تتحدى المكان العام والمارة أمام الكافيتريا. وبمنتهى الجرأة سألته:

ـ هل يمكن أن تفسّر لي سر هذه النظرة المُربكة لي منذ وصولك؟!

استمر في صمته ونظرته لها؛ كأنها لم تقل شيئا. وأمام تحديها وتحديقها في عينيه اضطر إلى أن يكف عن تلك النظرات، مراعيا الزمان

والمكان؛ لذلك سـألها: أين ذهبت بمهدي؟ وما حكايته؟ ولأنه لم يرد على سؤالها، ولم يبرر ما فعل نهضت من أمامه واستأذنته مغادرة. قالت له: "في وقت آخر".

"صبحية" لا تحب هذه الأساليب الملتوية في التعبير عن المشاعر. يعتقد الرجل أنه قادر على المبادرة بهدف إرباك وتحدي من أمامه، وهي ترى أن هذا أسلوب بدائي للتعبير عن مشاعر الود إن وجدت. ربما هي تقارن ما فعله "كمال" بالرجل الذي أحبته منذ عام ونصف العام. تقارن كمال بحميد، الحبيب التقليدي العاشق لصنعاء القديمة، مدينتها الأثيرة. تقارن كلاسيكية كمال في التعبير عن الحب رغم حداثة أفكاره والتعبير عنها في محاضراته وحديثه مع الشباب، مع "حميد" وتقليدية أفكاره، إلا أن أسلوبه صريح في المواجهة والتعبير عما يريد. التقطت أنفاسها من حنق أصابها من "كمال"، وأرضت حنقها باستمرار المقارنة بينه وبين "حميد". إن ما يفعله "كمال" هو جس نبض لقبول أو رفض لما يفعله، ثم المواصلة. أما "حميد" فقد كان يفعل ما يريد دون انتظار موافقة أحد!

المقارنة السريعة تلك أمَدَّتها بفرحة طرية هزت أوصالها دون أن تجد لها سببا. مضت باتجاه خيمتها. ربما هي المرة الأولى التي تلفظ "حميد" من جوفها؛ ليس بسبب وجود "كمال"؛ لكنه قرار ومض في أعماقها للحظات فكسر قيدا كبلها طويلا. هناك ما يستحق أن نبصقه من جوفنا لنتعافى. ما سببه لها "حميد" من ألم جعل قرارها سهلا. تراقصت خطواتها، وربما هو رقص قلبها الذي يتناغم مع موسيقى نظرات "كمال" الرومانسية!

قطع تناقض وتشابك تلك اللحظة في أعماقها رجل يسير أمامها، حاملا لوحة عليها صورة في كل جهة، ممسكا بها بمقبض خشبي بيده

اليمني، يدوّرها بين حين وآخر ليرى المارة الصورتين. كان على وجهها الأول صورة للرئيس الشهيد "إبراهيم الحمدي"(١)، وعلى الوجه الثاني صورة لبطل فك حصار صنعاء، الشهيد "عبد الرقيب عبد الوهاب"(٢). هجمت على ذاكرتها هذه الصورة من مذكرات والدها. هل ممكن أن يكون هذا الرجل صديق والدها الذي تبحث عنه؟! هل يمكن أن يكون الرجل الذي حدثها عنه "غمدان"، ابن صديق والدها، وقال لها إن اسمه "عبده سعيد"، وأنه اختار ادعاء الجنون ليظل في مدينته ومعشوقته، صنعاء، التي أحبها وقدم للدفاع عنها من مسقط رأسه في تعز؟؟!

(١) في ١٣ يونيو ١٩٧٤ قاد المقدم إبراهيم الحمدي انقلابا أبيض سمي بـ"حركة ١٣ يونيو التصحيحية" لينهي حكم الرئيس القاضي عبد الرحمن الأرياني الذي كان يرى إدارته ضعيفة وغير فعالة. وصعد إبراهيم الحمدي للحكم برئاسة مجلس عسكري لقيادة البلاد ومنذ ذلك الوقت اتسع الدور الذي يلعبه الجيش في النظام السياسي والحياة العامة. كان يريد إعادة هيكلة الجيش اليمني لمواجهة المشيخات القبلية الموالية للسعودية. وبدأ بالتقليل من دور مشائخ القبائل في الجيش والدولة وألغى وزارة شئون القبائل التي كان يرأسها عبد الله بن حسين الأحمر باعتبارها معوقا للتنمية الاقتصادية والاجتماعية. واغتيل إبراهيم الحمدي ليلة ١١ أكتوبر ١٩٧٧، ولم تُجر أي تحقيقات للكشف عن الفاعلين، ودفن في مقبرة الشهداء بالعاصمة اليمنية صنعاء. (ويكيبيديا).

(٢) الشهيد عبد الرقيب عبد الوهاب الذبحاني. ولد في قرية (ذلقيان) ،في بلدة (ذبحان)، في ناحية (الشمايتين)، من بلاد (الحجرية)، في محافظة تعز. وقتل في مدينة صنعاء، وفيها دفن في مقبرة (خزيمة). تلقى علومه الأولية في قريته، ثم انتقل إلى مدينة عدن؛ فالتحق بالمدارس الابتدائية والإعدادية، وعمل إلى جانب ذلك لتوفير لقمة العيش، ولما قامت الثورة الجمهورية التي قضت على النظام الملكي في شمال اليمن عام ١٣٨٢هجري ـ ١٩٦٢ميلادي انتقل إلى مدينة صنعاء، والتحق بالجيش، وشارك في كثير من معارك الدفاع عن الثورة، ثم سافر إلى القاهرة، والتحق بالكلية الحربية، وتخرج فيها عام ١٩٦٤. وحصل على دورتين عسكريتين: في الصاعقة والمظلات، وبعد عودته إلى صنعاء رقّي إلى رتبة (ملازم)، وعين قائدا لمدرسة الصاعقة، ثم قائدا لقوات الصاعقة، وعين عام ١٩٦٨ رئيسا لهيئة الأركان العامة، إضافة إلى عمله السابق، ورقّي إلى رتبة (مقدم). (ويكيبيديا).

كانت مدينة صنعاء قد تعرضت لحصار استمر سبعين يوما عام ١٩٦٨، من أنصار الحكم الإمامي السابق الذي قضت عليه الجمهورية في عام ١٩٦٢، في محاولة منهم لإعادته من جديد؛ لكن الذين حاصروا مدينة صنعاء من المرتزقة في الداخل والخارج، ومن ساندهم من الدول القريبة، وأولها السعودية والأردن، فشلوا؛ فلم تصمد مدافعهم ونيرانهم أمام حُب أهل صنعاء لمدينتهم ومن قدم طائعا وراضيا للدفاع عنها دون مقابل، من كان مستعدا للموت من أجلها والدفاع عن حريتها حتى لو كان الثمن حياته. والد "صبحية" ورفاقه من هؤلاء. وهذا الرجل السائر أمام "صبحية" أيضا منهم. ما يحمله من صور يقول ذلك. ما يفعله الآن في ساحة الثورة يقول ذلك. أسرعت "صبحية" الخطى باتجاه الرجل لتحييه وتسأله لماذا الصورتان؟ نادته فلم يسمع، فقد كانا قريبين من المنصة. اقتربت منه أكثر وربتت على كتفه. التفت ليرى من الذي يريده وإذا به أمام "صبحية"، التي يبحث عنها، وتبحث عنه دون أن يعرف. صمت للحظة، كمن يستدعي الزمن من أغوار بئر سحيقة. ولما لم يستجب له، ألقى في وجهها ابتسامة وواصل سيره باتجاه المنصة. تسمرت عيناها تراقبانه، وكلما غاب عنها تقدمت قليلا لتراه؛ أحيانا ترى لوحته وأحيانا أخرى "مشدته" التي تعلو كتفه، وأحيانا لا تتبع إلا حدسها في مكان ظهوره. وصل إلى قرب المنصة. أراد الصعود فوجد ممانعة من الشباب الواقف تحت المنصة ولا يسمح بصعود إلا من يأذن له مسؤولو المنصة.

اختلف وضع المنصة بعد أن انضمت الأحزاب وقائد الفرقة الأولى مدرع، "علي محسن"، للثورة. حُبست الثورة في سجنهم الكبير، وكأنّ الأحزاب و"علي محسن" لا يستطيعون ألا يكون لهما سجن وسجان، منذ أن تعارك الشباب فيما بينهم بسبب رغبة الشباب المستقل في إنشاء

منصة خاصة بهم. علِقوا في معركة شديدة وربما فتية ثم مُنعوا بعدها مما يريدون. أصبح خطاب المنصة واحدا ورتيبا، اختفى وهج المنصة الذي كان في الأيام الأولى للثورة. اختفت الحرية والتسامح والخطاب الثوري.

بدا من حركات يد الرجل والحارس أن حوارا شديد اللهجة قد يؤدي إلى عراك. تجمع من حولهما الشباب بكثافة. "صبحية" تحاول الاقتراب منهما لتمنع ما قد يحدث له؛ لكنها لم تستطع. خشيت أن يقاد إلى سجن الساحة. "هههههه"! هكذا قهقهت في أعماقها! نعم إلى سجن الساحة، في ساحة المستشفى الميداني ذاتها. مسكينة هذه الساحة الصغيرة! تحولت من مسجد إلى مستشفى، وتحولت ساحتها في كل جزء منها إلى وظيفة، أصبحت مقدمتها مقرا للجنة الأمنية، وجانبها الأيمن حمامات عامة، وإلى جوار الحمامات غرفة السجن. كانت هذه الغرفة تثير حزن "صبحية"، وتناهض وجودها كلما ألقت محاضرة أو التقت بأفراد اللجان الأمنية. تقول:

ـ نحن في ساحة حرية، ساحة كرامة، ساحة بحث عن وطن وعن هوية تجمع الثوار! لا يمكن تكرار أخطاء النظام! لا يمكن تكميم الأفواه عن قول ما تشاء؛ لأن وجودهم في الساحة أكبر دليل على الحلم بوطن آخر. رغم الاتهامات المجانية التي كانت توزع على من انتقد أو جاهر بأخطاء الساحة، بأنه مدسوس عليها من النظام، أو بأنه من جهاز الأمن القومي، الذي ينقل أخبار الساحة للنظام!

كانت فكرة عدم شق الصف الثوري، بهدف تحقيق إسقاط النظام، تؤرق "صبحية"؛ لأنها كانت تُسكتها عن تجاوزات كثيرة في الساحة، أولها وأكثرها خطورة وجود سجن في داخل الساحة. لم تسكت كثيرا،

وشكلت مع من أيد فكرتها جماعة مدنية لمناهضة العنف داخل الساحة. في الأيام اللاحقة سيزداد عدد المسجونين، وستصبح الغرفة في ساحة المستشفى صغيرة، وسيتم أخذ الثوار إلى سجن "علي محسن" في نفق الفرقة الأولى مدرع المظلم.

اقتربت "صبحية" أكثر من "عبده سعيد"، إذا كان هو الرجل الذي تظنه، فهكذا اسمه. أوشكت أن تصل إليه لولا أن هناك إشارة وصلت للحارس من شاب يعتلي المنصة بالسماح لعبده سعيد بالصعود. كان الشاب ضعيف البنية، حاد الملامح، عريض الجبهة، زحف شعره إلى الخلف حتى جعل من رأسه نصف صلع. يرتدي كوتا أسود. ومن خلال وقفته ونظراته الثاقبة تشعر باستعلاء مهين لكل من حوله. صعد "عبده سعيد"، وحال وصوله إلى المنصة، أمسك الميكروفون بيده اليسرى، وفي اليمنى حاملا الصورتين. رأى الساحة من أعلى فبدت له كفاتنة حسناء راح ينظر لها من كل جانب. أدار رأسه في كل الاتجاهات، التي أصبحت مليئة بالخيام، كمن يقول:

- انظروا إليّ، إلى جسدي النحيل، وإلى هيئتي، لتعوا ما أقول، إن كنتم ثوارا حقيقيين وتبحثون عن التغيير، بل إن كنتم صانعيه!

كان يتحدث بلغة عربية فصحى تدل على ثقافته وقراءاته:

- أنا هنا لأحدثكم عما غاب عنكم! أنا هنا لأحدثكم عن تاريخ لا تعرفونه، ولم تقرؤوا عنه؛ تاريخ حاول الطغاة أن يخفوه عنكم لكنهم لم يفلحوا، وحاول المتجبرون أن يقضوا على صانعيه وعلى شهوده لكنهم لم يفلحوا؛ بل حاول الأفّاقون أن يزوّروه في مذكراتهم وسيرتهم لكنهم لم يفلحوا، وها أنا أمامكم لأقول لكم الحقيقة، ولا شيء غير الحقيقة.

رفع يده اليمنى التي تحمل الصورتين. ورفع الحامل بيده اليسرى إلى أعلى ما يكون، وراح يديره في كل الاتجاهات ليراه كل من يستمع إليه:

- هل تعرفون من هما؟! هذا عبد الرقيب (ثم أدار الحامل على الصورة الأخرى) وهذا إبراهيم..

ذكر اسميهما دون ألقاب، وكأنهما صديقان حميمان له، يعرفهما جيدا، والأكثر إدهاشا كأنهما لا يزالان على قيد الحياة، ويربطه بهما تواصل لم ينقطع. لكنهما في الحقيقة لم يكونا كذلك؛ فضحه صوته المتهدج، فضحته عيناه الغارقتان في حزن الماضي، ويده المرتعشة التي راحت تُدير صورتيهما ليراهما الجميع. ربما في تلك اللحظة كانت صورة الرئيس إبراهيم الحمدي عالقة في ذهنه، بضحكته الملائكية الخجول التي لم تغب عنه وعن أذهان اليمنيين كشمس تسطع كل صباح، لتذكرهم بحلم تم وأده في المهد بيمن مدني؛ كان سيجعل منهم أداة نهضته وتقدمه ورقيه. كل ما حولهم يذكرهم به: إنجازاته التي لم تزد في عهد النظام الجديد وكل ما فعله هو تغيير أسماء حدائقه ومدارسه ومشاريعه التنموية.

فجأة طلب من المذيع أن يمسك بالميكروفون. فتح قميصه وأخرج من داخله صورة "عبد الرقيب عبد الوهاب"، بطل فك حصار صنعاء، والتفت إلى الخلف، إلى النُّصب الشامخ خلفه من الحجر الأبيض والأسود والمنحوت عليه بانسيابية: "الإيمان يمان والحكمة يمانية". أحكم عضة فمه على الصورة، وتناول "مشدته" من أعلى كتفه وراح يتسلق النصب كأنّه قرد يتسلق بمهارة نخلة باسقة. وصل إلى أعلى جزء في النصب وعلق صورة البطل. كان صوته جهوريا وهو يردد:

- هنا مكانك يا بطل؛ القمَّة خُلقت لك، رغم خيانة الرفاق! القمّة هي أنت، رغم خيانة الوطن! نعم، خانك الوطن يا عبد الرقيب؛ فلم يسمِّ

شارعا باسمك أو يحتفل بيوم مولدك أو استشهادك! خانك الرفاق عندما لم يَذكروا للأجيال ما فعلته لمدينتهم الشامخة، صنعاء! خانك الوطن عندما قدمت لإنقاذه دون قيد أو شرط وهو أراد بقاءك بشروط الرجعية والتخلف! أحبك الناس لأنك وطني، وقتلك الساسة لأنك وطني! اختلفوا عليك يا عبد الرقيب وضيّعوك!

حاول مذيع المنصة أن يقرب له الميكروفون ليسمعه كل من في الساحة؛ لكنه كان بعيدا، مما اضطره لترديد كلامه على الملأ كما كان يردده.

نزل "عبده سعيد" من أعلى النصب. لم يلتفت إلى أحد، ولم يجب على بقية أسئلة المذيع؛ لكنه أمسك بحامل الصورتين بيديه وأحكم ربط "فوطته"، "التعزية"(١) ، حول خاصرته، ونزل من على المنصة.

أسرعت "صبحية" تستقبله. أسرعت لتكون أول من يحدثه؛ لتذكره بوالدها وبيوم المقبرة؛ وكيف كان حزينا على فراق والدها. لتقول له إنها عرفت الحقيقة وأصبحت تعرف تماما حكايته مع والدها ورفاقه. لكنه تعمد الاختفاء كزئبق يسيل في قاع فسيح، فلا تتمكن من الإمساك به أو رؤيته. اختفى من أمامها، وعن ناظريها. زاد ما فعله من حيرتها. تتلاطم في ذهنها الآن عشرات الأفكار والذكريات التي تثقل كاهلها. تسمرت برهة. توجهت إلى خيمتها بخطى وئيدة محاولة جمع شتاتها قبل أن تلج خيمتها القريبة من المنصة.

●●●

---

(١) نسبة لمدينة تعز، المميزة بنوع من القماش يتم ربطه حول الخاصرة، يشبه "الجزنلة الأسكتلندية لكنه يصل تحت الركبة.

(٧)

وصل "مهدي" إلى منزل "يونس". فتحت له "أمل" الباب، ناولها مهدي كيس الألوان والصور فأطلقت صيحة فرح طفولية. كانت أمها "سعادة" في المطبخ تعد العشاء، هرعت لتتبين سبب سعادة أمل، احتضنتها وأخذت تقبلها وتقول لها:

- فجعتيني (١) يا كلبة!

نظرت "أمل" إلى "مهدي" لا تعرف ما تقول أو كيف تعبر عن امتنانها. أخذته من يده باتجاه شقيقها "محمد" وهي تردد أنها ستعطيه نصف الكمية ليشعر بالفرح مثلها.

استكثرت الصغيرة الفرحة على نفسها. استكثرت أن يكون لها كل ما جلبه لها "مهدي"؛ فأرادت مشاركة أخيها فيه. هذه الدفاتر والألوان والصور تراها في تليفزيون الجيران في الساعة التي تسبق المغرب وتقضيها لديهم فقط؛ لكنها اليوم استطاعت أن تلمس ما تراه، وستلوّن ما تلمسه. أي نعمة منحتها إياها يا "مهدي"؟! وأي فرح منحتيه إياها يا "صبحية". انسجمت "أمل" مع هديتها، بينما توجه "يونس" و"مهدي" إلى مكانهما المفضل، أمام المنزل. بدا على "يونس" أن هناك ما يريد أن يحدث به "مهدي". بادره:

ـ اليوم ذهب ابن جيراننا إلى ميدان السبعين. صلى أنصار الرئيس صالح فيه، وباع هو وزملاؤه ماء، وأعلام اليمن، وكسبوا فلوس كثير،

(١) فجعتيني: خوفتيني

وقال إن المكان آمن وما بش رصاص. ما رأيك نكون نسير أنا وأنت نبيع من الجمعة القادمة؟

في تلك الجمعة، ٢٥ مارس ٢٠١١، كان الرئيس علي صالح قد أخرج مؤيديه إلى "ميدان السبعين" لأداء صلاة الجمعة، كما يفعل الثوار في "ساحة التغيير". هو غباء الحاكم الذي يطغى على تفكيره الحفاظ على مجده، ليقول: "انظروا! هناك من يريد بقائي في السلطة. هناك من يؤيدني ويرى أن كل ما أفعله صائب. هناك من يرغب بقائي، فماذا أنتم فاعلون؟!". لم يدرك الشرخ الذي أحدثه في صميم الشعب، ومثله لن يدرك.

منذ ذلك اليوم انقسم الشعب نصفين، بدت هذه حقيقة جلية، مع الثورة وضدها. الفئة الصامتة كانت طرفا ثالثا؛ لكن بلؤم المنتظر لمن سينتصر. في تلك الجمعة أعلن الرئيس صالح مبادرته بالرحيل؛ ولكنه يريد أن يسلم السلطة لأيد أمينة، بانتخابات مبكرة. لم يصدقه أحد، واستمر الثوار في مطالبته بالرحيل.

كيف يمكن أن يصدقه الثوار بعد تاريخ حافل بإنجازات شخصية ناضحة بالأنانية وحب السلطة، وترك الشعب يسبح في جهله وفقره ومرضه؟!

●●●

شجع "مهدي" "يونس" على أن يذهب الجمعة القادمة إلى "ميدان السبعين" ليكسب المال الوفير، وفي الوقت ذاته اشترط عليه موافقة أمه. لم يتوقع رد "يونس":

- أمي موافقة، قالت ستبدأ في نسج العلم الوطني من الصوف على هيئة شال يوضع على الكتف أو يربط على الرأس، كما شاهدتْ في

التليفزيون. وأضافت أن ابنة الجيران ابتكرت طريقة من الخرز الأحمر والأبيض والأسود، لعمل أساور لليدين، ومسابح للمصلين، وقلائد للصدور. وستحاول أن تقلدها؛ لنبيعها لها، أنا ومن سأختار من الأطفال الراغبين في الذهاب لميدان السبعين.

سيتطور الأمر لاحقا ليصبح العلم الوطني أكثر ما تراه يوم الجمعة بأشكال متعددة: مظلات الحماية من الشمس، ملصقات على السيارات، وعلى الجدران، أعلام صغيرة في أيدي الأطفال، شارات من قطع معدنية توضع على الصدر، وهكذا.

بعد تلك الجمعة سيتحول كل من في ساحة التغيير للصلاة في "شارع الستين"، بينما مناصرو الرئيس صالح سيؤدونها في "ميدان السبعين". وستتحول نساء المناطق الفقيرة والقريبة من "الستين" و"السبعين" إلى مبدعات ومبتكرات في صناعة ونسج وتطريز العلم الوطني. قد لا يكون للفقراء اهتمام بشأن الثورة أو التغيير أو غير معنيين بما يدور في كلا الميدانيين؛ لكنهم معنيون بلقمة العيش لأولادهم. يختبئ في عقل كل منهم حلم يسعى لتحقيقه، وحلم آخر يتمنى لو يتحقق له من السماء؛ كأن يستيقظ من النوم وجواره كنز من ذهب، أو يسير في الطريق ويتعثر بكومة من الحجارة رابضة على صندوق من المال، أو أن يغمض عينيه ويرفع يده للسماء كل يوم ويطلب حاجته فقط وحاجة أولاده دون تعب ينهك ظهره أو شمس تلفح وجهه أو مقبض صدئ لعربة يدمي يده.

ستشجع أم "يونس الحوتي" نساء الحارات القريبة من "سوق علي محسن" على بيع منتجاتهن في "ميدان الستين" للثوار، لأنهم يشعرون بالعلم الوطني وبقيمته؛ لكنها ستجعل ابنها يذهب ليبيع ما تنتجه هي في

"ميدان السبعين". وستشجع أم "مهدي الريمي" نساء حارات "مذبح" على بيع منتجاتهن في "ميدان السبعين"؛ ولكن ابنها سيبيع منتجاتها في "ميدان الستين". مفارقة مدهشة؛ لكل هدفه وغايته من الثورة. وحدهم الفقراء لا يريدون في نهايتها إلا أن توفر لهم لقمة العيش.

•••

(٨)

اليوم عند ذهاب "مهدي الريمي" للساحة لبيع فاكهة الموسم، سيعرج على خيمة "صبحية" الفنية. سيخبرها عن شدة فرحة "أمل" بما اشترته لها من ألوان وصور. سيحدثها عن شقيقها "محمد" وكيف كانت عيناه مبتهجتين باللون الأحمر الذي أمسكت به "أمل" أمام عينيه، وكيف راح يقلب نظراته بين اللون وبين "أمل" في منتهى السعادة. سيخبرها أن "محمد" لا يتحرك إلا عندما تقلبه أمه من جهة إلى جهة حتى لا يتقرح جسده النحيل، وأنه لا يتحدث، وأن حركاته اللا إرادية توحي بأشياء كثيرة؛ لكن عندما رأى اللون الأحمر نطق: "آ. آ. آ". سيقول لها إن الأم "سعادة"، بكت فرحا لسماعها صوت ابنها فاحتضنته وقبلته طويلا. سيقول لها إن هديتها أدخلت البهجة إلى قلوب الأسرة وأنطقت محمد، وسيوصل لها امتنانا لم يُقَل على لسان أحد؛ لكنه يُحَس من كل أحد.

لم يجد "مهدي" "صبحية"؛ لكنه وجد شبابا يدربون أطفالا من أعمار مختلفة على الرسم؛ أطفالا لا تبدو على ثيابهم إلا ملامح الستر للأجساد؛ هناك من بنطلونه قصير، ومن أحد كُميه بلون والكُم الآخر بلون مختلف، وفتيات "البالطو" ذي اللون الأخضر الفاتح للزي المدرسي

مهلهل؛ لأنه إما صغير أو كبير على أجسامهن الصغيرة. لذلك لا يبدو واضحا إلا رؤوسهن دون غطاء، وشعورهن التي تطلق نهاياتها العنان للريح من قلة التهذيب. كان إلى جوار كل هؤلاء الأطفال أشياؤهم الخاصة: "دبب" بيضاء وصفراء يجلبون بها الماء النادر الوجود في صنعاء من الساحة إلى منازلهم، أو أكياس كبيرة يجمعون بها القوارير البلاستيكية والعُلب الفارغة للمشروبات الغازية والعصائر. ما جمعهم هو بهجة اللون الذي لم يجدوه في المدرسة ولم يشتره لهم أحد ليرسموا به في البيت. لذلك يستمعون بانبهار ينضح من وجوههم للشاب الذي يعلمهم أبجديات الرسم، سيرسمون بفرح، وبعدها سيمضي كلٌّ إلى حال سبيله، وستبقى ألوان "صبحية" وخيمتها عالقة في الذاكرة.

لم يسأل "مهدي" عن "صبحية". ربما أن شعور كل هؤلاء بما تفعله "صبحية" قد وصلهم؛ فقرر ألا يخبرها عن "أمل" وأخيها "محمد" وأمهما. توجه بعربته إلى موقعه المعتاد. يبيع اليوم التين الشوكي. استظل تحت الشجرة القريبة من عربته الأصلية التي يبيع فيها أكباد ومعد الدجاج. راح يرش التين الشوكي بالماء، بين الحين والآخر، ليظل باردا. لا يرتدي قفازا بلاستيكيا يقيه شوك التين عند تقطيعه. يمسك التينة بيده اليسرى والسكين باليمنى، ويناولها للزبون. طريقته تلك سبب انجذاب الزبائن إلى بضاعته؛ تماما كما يهتم بهندامه النظيف و"مشدته" المحكمة على رأسه و"فوطته" الملفوفة حول خاصرته بفنية عالية.

لمحته "صبحية" من بعيد منهمكا في عمله، لا يكاد يجد وقتا حتى للالتفات حوله مثل باقي البائعين. اقتربت منه وسألته:

- بكم البلسة اليوم؟!

ألقى ابتسامة في وجهها وقال:

- للحاليات ببلاش!

وقبل أن ترد عليه داهمهما "كمال" وقال:

- وللحاليين بكم؟!

رد عليه "مهدي":

- لو هم مثلك يدفعون السعر مضاعفا!

ضحك ثلاثتهم، ناولهما على إثرها "مهدي" ما جهزه لهما من حبات التين؛ ناول "صبحية" ثم "كمال"، وعاد ليناول "صبحية" ثم "كمال"، وفي المرة الثالثة رفعت "صبحية" يدها في إشارة إلى أنها اكتفت، ومد "كمال" يده ليتناول حبة التين وقال:

- سآكل نصيبها ونصيبي!

تناولها وهو يمعن النظر في "صبحية"، وهي كعادتها تواجه كل نظراته بتحدّ. قطع "مهدي" تدفق نظراته إلى "صبحية" وناوله حبة التين. التقطها ومد بها إلى "صبحية" ليعوضها كما قال عن حبتها التي أكلها. هزت رأسها وأشارت بكفها إلى أنها اكتفت، وبادرت "مهدي" قائلة:

- سنعود لاحقا لتذوق ما تقليه.

أردف "كمال":

- وأنا سأنتظرك في خيمة "شباب مع الحدث" لتسمع محاضرتي.

هز "مهدي" رأسه موافقا على ما اقترحاه، وراح يرقبهما وهما يسيران باتجاه المنصة، يتحدثان بانهماك شديد. كان نقاشهما يعلو ليصل ذروته ثم يهبط. وقوفهما أكثر من مرة، للحديث، وحركات يد "صبحية" بين الصعود والهبوط لشرح فكرتها، وانهماك "كمال" في الحديث رغم حرارة الشمس، توحي بأنهما غير متفقين في الفكرة التي يناقشانها، أو على الأقل يحاول كلٌّ منهما إقناع الآخر بما يريد. وصلا

إلى قلب الساحة، القريب من المنصة. توادعا، ثم توجهت "صبحية" إلى خيمتها، واستدار "كمال" عائدا إلى خيمته الأثيرة: "شباب مع الحدث".

كان "كمال"، ضمن مجموعة من الشباب الناشط المهتم بالثقافة والسياسة، قد حملوا أنفسهم مسؤولية التنوير في الساحة؛ يلقون المحاضرات، يجيبون عن أسئلة الشباب، يعطون الكتب والأفلام والمجلات لمن يطلب استزادة. كانوا أكثر من يدرك أن الأمية والجهل أوصلتهم إلى هذه الساحة ليطالبوا بالتغيير، بعد أن أصبح همّ الناس هو توفير لقمة العيش بعيدا عن الاهتمامات الأخرى في الشأن الثقافي والسياسي.

كان الشباب المثقفون يعدون محاضراتهم المختلفة ويأتون إلى الساحة في أوقات مختلفة، يفترشون الأرض ولا يهمهم على ماذا يجلسون، يتجمع حولهم كل من مرّ وأراد أن يسمع ما يقولونه، وكأنهم يحكون طلاسم عن تاريخ الثورات وعن عظماء ماتوا من أجلها. كان الأغلب يسأل عن صورة "جيفارا" التي ارتفعت في أنحاء الساحة وعليها مقولاته. كان يشغلهم ذلك الرجل النحيل الذي يرتدي نظارة ويظهر نصفه العلوي عاريا زاهدا في الحياة الدنيا ويُدعى "غاندي" وتحت صورته مقولاته. كانوا يتساءلون هل فعلا كان ذلك الرجل الوقور ذواللحية البيضاء والملابس التقليدية للقضاة التي يظهر بها على الصورة هو ثاني رئيس لليمن، وأنه فضل تسليم السلطة وترك البلاد بسلام على أن يراق دم يمني واحد. كانت هذه هي المقولة التي زينت صورة القاضي عبد الرحمن الإرياني. وغيره من عظماء اليمن مناضليها ومثقفيها الحقيقيون، الذين رحلوا ولم يبق لهم غير تاريخ عبق بذكراهم الفواحة بالخير والسلام.

لقد عرفوا تلك الشخصيات وعاشوا معها في الوقت نفسه في "ساحة التغيير"، وأصبحوا يرتدون قمصانا طبعت عليها صورهم، ويرفعون صورهم في المسيرات.

سيهندم "مهدي" عربة التين وينظف ما حولها، ثم سيتوجه كالعادة إلى محلات بيع الدجاج القريبة ليحضر منها بضاعته المعتادة من معد وأكباد الدجاج. لا يعرف لماذا لا يفكر في أن يهدأ قليلا أو يرتاح ليتناول غداءه! كم يشغله هذا الحلم الذي يُسمى محل "مهدي الريمي لبيع وذباحة الدجاج"! يريد أن يحققه سريعا، لذلك لا يهم إن أكل أو شرب. سيدعوه بعض من تحلقوا لتناول طعام الغداء لمشاركتهم؛ لكنه سيتعزز. سيقولون له إن هناك فاعلي خير هم من يوزعون هذا الطعام فلا يحمل دفع المال. سيرفض مرتين، وفي الثالثة سيقبل. يجتمع كل أربعة أشخاص على طبق مليء بالرز المصبوغ باللون الأصفر وعليه دجاجة متوسطة الحجم. في جانب الطبق بعض الطبيخ الممزوج ببعض المرق، وإلى جوار الطبق كيس بلاستيكي أبيض يحوي خمسة أقراص من الخبز. سيمر "مهدي الريمي" بنظره حول الساحة ليجد أن الأغلب يأكلون، وأن لون الأرز المصبوغ بالأصفر كان طاغيا على الساحة، حتى شعر أن الساحة بأكملها قرص شمس مبهج بأشعته الذهبية الممتدة إليها أيدي الثوار النقية. سينتهي من كل هذا وسيتوجه ليجلب بضاعته. لا يعرف لماذا داهمته رغبة شديدة في تناول وريقات "القات" والسكينة لقيلولة قصيرة على حائط ظليل قبل أن يبدأ عمله. سيتوجه ليشتري "القات" من السوق المجاورة. سيفعل ما يفعله الثوار في الساحة في هذه اللحظات. سيركن بجسده النحيل إلى حائط لينعم بظله، سيسند ظهره عليه وسيتكئ على طوبة من "البلوك" المصمت، سيجد الكثير منه على

الرصيف. سيخرج بعض وريقات "القات" من كيسها البلاستيكي، وسيمسحها ورقة ورقة ويدسها في فمه. سيطرد من رأسه حلمه للحظات، وينتشي بتلك اللحظة التي أصبح فيها رجلا بتناول تلك الوريقات، ومن ثم سيتوجه إلى عربته، وقد انتفخ خده الأيمن بالقات. سيبدو كرجل صغير يبحث كيف يكبر.

ها قد كبرت يا "مهدي الريمي" وتناولت "القات" كما يفعل الرجال!

●●●

(٩)

جاءت "صبحية" إلى "مهدي" قبل أذان المغرب، وهو منهمك في عمله. طلب منها الانتظار بعيدا عن الرجال الملتمين حول عربته للأكل، حتى يجهز لها ما وعدها به ظهرا. أخبرته أنها لا تريد أن تأكل؛ لكنها ستنتظره بعد صلاة العشاء في الكافيتريا؛ تريده في أمر مهم. أومأ لها برأسه موافقا.

كان يبدو على "صبحية" ملامح القلق والتوتر. لا يعرف "مهدي الريمي" "صبحية" منذ فترة طويلة؛ لكن وجهها كتاب مفتوح، يقرأ فيه حالتها القلقة والفرحة والحزينة. لا ينسى حزنها المهيب يوم "جمعة الكرامة"، وكيف استطاعت أن تتغلب عليه وتستمر في إسعاف الجرحى حتى ذلك الوقت المتأخر من الليل، وفي الوقت ذاته كيف سربت له وليونس الهدوء والطمأنينة من ملامحها كهالة ضوء تدخل من رآها في محيطها الآمن.

أدارت صبحية ظهرها لمهدي ومضت باتجاه المنصة. كانت السماء قد بدأت ترسل مُزنها الخفيف على الساحة، سقوطها في شهر نيسان غسل

وجع الثوار وآلامهم. نزول زخات المطر تلك جعلته يفكر في وسيلة يحمي بها عربته وزيت القلي. ورغم انشغاله بالعمل إلا أنه استمر في تتبع "صبحية" بعينيه حتى اختفت عن ناظريه. انشغل ذهنه بسؤال: ماذا تريد منه؟ وقبل صلاة العشاء كان في الكافتيريا ينتظر قدوم "صبحية". قدمتْ، وعلى مقدمة رأسها العلم الوطني على شكل ضفيرة تربط حول الجبهة. أشار "مهدي الريمي" بيده إلى صورة كبيرة أمام الكافيتريا وقال:

- أنت تشبهين هذا بربطة العلم على جبينك!

كانت صورة "جيفارا" واضعاً ربطة على جبهته. نظرت إليه وابتسمت وقالت:

- لديك حق، أشبه جيفارا في ربطة الرأس فقط! ارتفعت ضحكتها ومن ثم وجمت قليلا، كمن يفكر في مدخل للحديث:

- أمس رأيت في الساحة رجلا متوسط القامة، ضعيف البنية، يرتدي فوطة تعزّية مخططة، وشميز أزرق فاتح، يحمل بيده صورتين، توجه إلى المنصة وعلقهما على نصب "الحكمة يمانية" واختفى من أمامي وكأنه تعمد ذلك. لا أذكر أين رأيته من قبل! لكن الصورتين وما قاله على المنصة قريب جدا مما قرأته في مذكرات أبي. ولأنك تظل على عربيتك فترة طويلة، فربما تراه وتعرف أين سيستقر وتأتي لتخبرني. أنا في حاجة ماسة للحديث معه. هل ممكن أن تؤدي لي هذه الخدمة؟

قبل أن يرد "مهدي" كان "كمال" قد جلس على الطاولة موجها سؤاله لمهدي عن سبب عدم انضمامه لمحاضرته.

- أنهيت عملي متأخرا.

رد عليه "مهدي"، ثم التفت إلى "صبحية"، مبديا استعداده لتنفيذ طلبها. شعر من تعابير وجهها كم أن هذا الأمر يهمها، فكان رده

مسؤولا ومطمئنا لها، التلقائية سمة مميزة لأهل محافظة "ريمه". لا يجيدون تنميق الحديث، ولا يترددون في مد يد العون لمن يطلب. شعورهم بالعزة يجعلهم لا يمدون أيديهم للتسول؛ ويكدحون في أعمال توفر لهم العيش الكفاف. لذلك تحدث المفارقة ويصاب البعض منهم بالجنون. قسوة الحياة تفوق قدرة بعضهم على الاحتمال، فيهبونها عقولهم عن رضا، ويكتفون بالهروب من الواقع، والعيش في عالم من الخيالات مع ذواتهم ولذواتهم؛ تماما كما حدث لوالد "مهدي الريمي".

استأذن "مهدي" من "صبحية" و"كمال" وانصرف باكرا، على غير عادته، عائدا إلى منزله. استمر "كمال" في إرباك "صبحية" بنظراته الحانية. وكعادتها واجهتها لكن بحزم هذه المرة:

- هل ممكن أن تفسر لي سبب هذه النظرات؟!

توقع "كمال" سؤالها، وشعر في الوقت ذاته أنه يعرف هذه المرأة وردود أفعالها، رغم الفترة البسيطة التي عرفها فيها، بادلها جرأة بجرأة:

- معجب بك!

علت ضحكتها وقالت:

- لا يبدو عليك أنك مراهق!

- من يرى "صبحية" لا بد أن يراهق.

- ولماذا كل هذا الاهتمام؟!

- لأنك استثناء يا صبحية في كل ما يدور من حولي، بل في كل ما قد دار في حياتي. أرقب خروجك من الخيمة، أشبع شغفي بملاحقتك بنظراتي وأنت في عمل دؤوب كنحلة طيلة النهار، لتستقري آخر يومك على هذا الكرسي، ترتشفي كأس شاي الحليب وتنفضي عنك كل التعب.

وجدتْ "صبحية" أن حوارهما يتجه إلى طريق لا تريد أن تسلكه. تمهيده للحديث بهذا الشكل وجديته يمكنانها من استنتاج ما يريد قوله. وقبل أن يسهب "كمال" غيرت الحديث:

- دعني أحدثك عن قصة مهدي الريمي، فلم أستطع أن أحكيها لك منذ أيام!

اعتبر "كمال" هذا هروبا مما يريد أن يحدثها به. صمت احتراما لرغبتها، وهز رأسه لتبدأ بالحديث. كان غارقا في مراقبة طريقة حديثها وامتزاج تعابير وجهها بإيقاع حركات يديها. لم تكن ملامح "صبحية" صارخة الجمال؛ لكن ملامحها تجذب بهدوئها من يراها. المميز لها هو قامتها الطويلة والرشيقة، كما كان يخبرها بذلك "حميد"، الرجل الذي أحبته بكل جوارحها ولم يألُ جهدا في جرحها وتدمير مشاعرها وهدم ثقتها بنفسها وبمن حولها، لذلك قررت نسيانه وإجهاض كل محاولاته لاستعادة حبها. تعافت منه سريعا؛ لكنها لا تنكر أن ما فعله بها سبب حَذرها من الرجال وخوفها من قبول أي تجربة حب جديدة.

تلقائية معاملتها مع من حولها تثير لديهم الحيرة. "صبحية" خارج المألوف اليومي من النساء. جُلّ وقتها لغيرها، وليس لذاتها. قد تساعد طفلا يحمل كيسا ثقيلا. قد تجيب أي نداء وصل سمعها بدلا من المقصود.. قد تجلس على الرصيف لأنها شعرت بالتعب، وقد تتساقط دموعها لموقف مؤثر شاهدته أو سمعته.

انتهت "صبحية" من سرد حكاية "مهدي" بألم الفقد لشقيقه ولكل الشباب الذين استشهدوا "يوم الكرامة". ولأن هذا يدخلها في دوامة حزن لهجوم ذكريات ذلك اليوم العصيب شعرت بالإرهاق. استأذنت "كمال" وغادرت إلى خيمتها. هناك ما نكأ جرحها. هناك ما داهم ذاكرتها. هناك ما أيقظ مشاعرها من سباتها.

•••

(١٠)

في ذلك المساء وقبل وصول"مهدي" لمنزله سمع صوتا خافتا يناديه: "مهدي، مهدي، مهدي". المناداة باسمه ثلاث مرات متوالية جعلته يميز مصدر الصوت. التفت إلى اليسار فإذا بباب منزل "حبيبة" ينفتح وتخرج منه مرتدية الستارة على جسدها؛ لكن وجهها بدون لثام. تعمدت أن يرى وجهها، أن يقرأ فيه كم تحبه، وكم هي شغوف به؛ لذلك تراقب عودته ليلا دون أن يعلم، وتنتظر خروجه لصلاة الجمعة لتلقي عليه تلك النظرة الحانية، زادها الأسبوعي منه! ما رآه اليوم من فتنة جمالها جعله مبهوتا ومرتبكا. اقتربت منه أكثر. عاد إلى الخلف، لأنها كادت تلامسه. اجتمعت في مخيلته مخاوف عدة من أن يراهما أحد! أو أن يخرج أحد من منزلها فجأة! أو أن تتصرف تصرفا طائشا، فهو لا يعرف ما تريد. اقتربت حتى كادت تلتصق به. أمسكت يده، وجد نفسه يقترب منها أكثر، تلامس جسداهما فسرى في كليهما خدر لذيذ. تقاطع جسداهما في بروز مفاتنها ورجولته! تراجع قليلا إلى الوراء وسألها ماذا تريد! كان ما حدث يكفيها؛ لقد حققت ما تمنته وحلمت به كثيرا، لقد فعلت ما يمكنه أن يحرك راكدا في مشاعره ليعرف معاناتها ويعرف أن بنات منطقة "مذبح" لا يرفضن من يتقدم لخطبتهن، ليفكر في مصير علاقتهما بجدية قبل أن يخطبها رجل غيره. أخبرته أنها تطوعت لتنظيم وجمع ما حاكته النساء والفتيات من مشغولات لبيعها في الساحة وعليه أن يمر لأخذها يوم الجمعة.

دخلت "حبيبة" وظل "مهدي" مرتبكا ولم يقو على السير، ما نتأ من جسده حرضه على أن ينتبذ له جدار منزلها الخلفي، التقط فيه أنفاسه

وانسدل نتوؤه بهدوء ثم واصل سيره إلى المنزل. دخل فرحا على أمه. قفز مرات عدة كقرد يتناول ثمارا من شجرة عالية. أثار ما فعله انتباه والده، الذي لم يكن مقيدا، بل كان نظيفا وكأنّ أمه حمّمته، وقصت أظفاره، كعادتها عندما تشتاق لجسده، يحدث هذا لمرة أو مرتين في الشهر. يداهم "مهدي" الشك في جنون والده وهو الواثق أن أمه كانت أسعد نساء "مذبح" فقد سمع في صغره تأوهات وأصوات مكتومة لهما خلف حاجز القماش الذي كان يفصل بينهما وبينه، وها هو يدرك الآن ما كان، كما يدرك اهتمام أمه اليوم بنظافة والده وفك القيد عن يديه. اقترب "مهدي" من والده وقبله ومازحه:

ـ الليلة ليلتك يا بطل!

ردت عليه الأم بنزق خجول:

ـ تمسى الليلة وقل لي ما لك فاااارح؟!

اقترب منها وطبع قبلة على جبينها. مد يده إلى جيب كوته الداخلي وأخرج منه كل ما جمعه طيلة الأسبوعين من مال وناولها:

ـ هذه الفلوس من أخي، أرسلها اليوم مع صاحب دكان في السوق جاء من السعودية، وقال له: قل لأمي إنني بخير وتسامحني.

فرحت أم "مهدي" أن ابنها بخير، وفرحت أكثر بالمال. انشغالها بعدّ المبلغ ألهاها عن رؤية الحزن في عيني "مهدي"، وعن الدموع التي أوشكت أن تسقط في الجملة الأخيرة. هذا آخر ما سيصلها من ابنها. هذا هو الأمل الذي أراد "مهدي" أن يمدها به، وأن يفتح أمامها آفاق احتمالات كثيرة لاختفاء ولدها "المغترب في السعودية" ولعدم إرساله مجددا إليها بأي مبلغ مالي. لم يفكر في حل آخر قد يفعله لاحقا؛ لكن هذا الحل كان مرضيا له بقدر يخفف عنه شعوره بالذنب، تجاه أمه.

دخل مهدي حجرته. حاول النوم؛ لكن تماسات وتقاطعات جسد "حبيبة" حرمته من ذلك؛ كيف يمكنه النوم وهو يشعر بأن جسده قطعة ملتهبة؟! كلما مر ذلك الوجه الملائكي الذي أنار ليله المظلم! وذلك الجسد معتدل القامة الذي ناوش كل ما استكان في جسده فوثب استعدادا لتبادل اللعب مع ذاته وخيال امرأة لامس نتوءات جسدها يداهمه بقوة، تأوه بلذة حضورها العارم خيالا غدقا بكل ما يتمنى ويشتهي، ألقى في جوف الليل بياضه وغط في نوم عميق.

صباح مختلف؛ السعادة تعمّ كل من في المنزل. بين ليلة وضحاها تحول خيال كلّ منهم إلى حقيقة، فكيف لا يشعرون بالسعادة؟! أصبح لـ"حبيبة مهدي" شكل ولون وملمس وأنفاس شبقة. اقتربت منه وأشعلت فيه رغبة كانت ساكنة. ولوالده أيام يمارس فيها إنسانيته ويفرغ فيه احتقان هلوسات جنونه. ولأمه حرية دعوة والده متى ما أرادت، وكيفما ترغب؛ انتقاما من أيام عقله التي أجبرها فيها على أن تكون تحته، متى ما أراد وكيفما أراد.. النساء لا يضيعن حقوقهن متى ما واتتهن الفرصة لاقتناصها من فم الزمان والمكان.

في ذلك الصباح وللمرة الأولى تلكأ "مهدي" في خطواته عند مروره من أمام بيت "حبيبة"! لا بد أنها ستبادر كعادتها بإشارة تلفت انتباهه. تأخرت. دار حول منزلها مرتين دون أن يثير الانتباه. وفي المرة الثالثة أطلت من النافذة الوحيدة المطلة على الشارع، والتي لم تكن الستارة تفارقها. أزالت جزءا من الستارة بحيث يمكنها رؤية "مهدي". رقصت ملامحه فرحا عند ظهورها. مد يده باتجاه الشمس، وأعادها باتجاه "حبيبة". ابتسمت بخجل؛ فقد قال لها للتو:

ـ أنت شمسي. اعترى "مهدي" شعور غريب أثناء نزوله من جبل "مذبح"؛ كأنه يراه للمرة الأولى. أصاخ سمعه للعب الأطفال في الحارات،

ومتع نظره برؤية المنازل العارية من كسوة جدرانها بالحجارة، وسلم وصافح كل من رآه، بحرارة أثارت استغراب البعض منهم؛ فهذه ليست عادته! كان يمشي مكفهر الوجه، عابسا أغلب الوقت؛ ليس لأنه لا يريد أن يسلم أو يتحدث أو يسأل؛ لكن لأن هناك ما كان يشغل عقله وذهنه في كيفية تحقيق حلمه وكيف يبدأ يومه وما الطريقة المناسبة لكسب المال الوفير! لكن اليوم مختلف، لم يشعر بأنه فعل شيئا مختلفا عن الأيام السابقة؛ لكن نظرات من مر بهم تقول له: "أنت اليوم مختلف يا مهدي الريمي!".

توجه بعدها إلى منزل "يونس"، لينسق استعدادات النساء للغد من تجهيز مشغولاتهن التي سيبيعها "يونس" ورفاقه. وقبل خروجه فعل الشيء ذاته مع أمه، التي اتفقت معه على بيعها لأنصار صالح في "ميدان السبعين" وليس للثوار في "ساحة التغيير".

•••

(١١)

"كمال" و"صبحية" ينتظران "مهدي" في الكافيتريا بعد صلاة العشاء. تأخره حسم أمر عدم قدومه. هو يجهز ويرتب لما سيقوم به مع "يونس" لجمعة الغد، كلٌّ مع أولاد حارته الباحثين عن عمل. انشداه "صبحية" في التفكير جعل "كمال" يسألها عن السبب! ترددت بعض الشيء قبل أن تخبره؛ لكنها أذعنت لنداء في أعماقها يقول لها: "فضفضي". ستشجعها نظراته الحانية وإنصاته المدهش على الاسترخاء في الحديث كأنه "رأفت"، صديقها المصري أيام دراستها الجامعية في القاهرة، الذي لم

يخذلها يوما في الإنصات، فقط الإنصات، الذي يتحول إلى غاية الغايات في أشد أوقاتنا ضيقا وقربا من الانهيار.

البارحة رأيت رجلا حيّرتْني تصرفاته. شعرتُ أنني أعرفه، وذهب ظني أنه صديق والدي، الذي رأيته في باب مقبرة خزيمة عند عودتنا من القاهرة لدفن والدي، قبل عشرة أعوام. وإلى حدّ كبيرٍ تطابق ملامحه وصف غمدان، ابن صديقهما الثالث الذي حدثني عنه كثيرا. حيّرني عندما تعمد في المرة الأولى الهروب من نظراتي الحائرة في تصرفه المبهر تجاه جنازة أبي؛ وقف كمن لدغته حية، وألقى القات الذي كان في فمه، ونكس نظراته إلى الأرض، وبات وجهه كتلة حزن شديد. وهذه المرة تجاهل ندائي له، وهرب من ملاقاتي عند نزوله من المنصة ليلة البارحة. يخبرني حدسي أنه هو صديق والدي الذي لم يغادر صنعاء، عشق صنعاء وفضل ادعاء الجنون على الهرب منها، أو دخول أحد سجونها بعقله. وربما لذلك تذكرت أبي، وتذكرت إصراره على أن نعيش في القاهرة لا في وطننا الحقيقي! أردت أن أعرف منه ما أخفاه عني والدي متعمدا. مازلت حتى اللحظة عالقة، في تفكيري وفي وجداني، بين وطنين، أحدهما عشت فيه، والآخر ظل العيش فيه أمنية. قرار العودة للعيش فيه بعد موت والدي ودفنه في مقبرة خزيمة في صنعاء عام ٢٠٠٠ كان صعبا. أوقعتُ أمي في حيرة بين تركي أعود لوحدي، أو أن تعود معي وتبتعد عن ابنها الوحيد، أخي الوحيد الذي تزوج واستقر في القاهرة، وطنه الأول كما يقول؛ وطن تلقى فيه تعليمه ونال فيه شهادته، ويدير فيه عمله الخاص بمنتهى الحرية؛ وطن زوجته وأولاده؛ فلماذا يتعب نفسه بالعودة إلى وطن لم يمنح والده غير نكران الجميل لما فعله من أجله، ولم يقدر تضحياته وتضحيات زملائه بأرواحهم وأموالهم. هكذا حسم أمره

كشجرة وجدت أرضا لتنشر فيها جذورها، تنعم بما في جوفها من خيرات، لينمو ساقها سليما معافى بأوراق خضراء وثمار ملونة. فلماذا تبحث عن أرض أخرى؟! ولأني لم أستطع أن أكون مثله عدت. ولأني مازلت أبحث تعبت. وما إن سمعت عن تجمع الشباب في ساحة الجامعة، بعد نجاح الثورة التونسية في يناير ٢٠١١، وجدت قدمّي تقودانني إليها. شعرت فيها بما لم أشعر به طوال فترة بقائي في صنعاء منذ عودتي من القاهرة. شعرت في الساحة بالوطن القادم الذي أحلم به؛ وطن الحرية والعدل والمساواة. حاولت تقبل انضمام الأحزاب للثورة على مضض بعد أسبوعين من بقاء الشباب سليما معافى، نظم فيها نفسه وتناوب على حراسة أرضه الجديدة ووطنه القادم. تطوع الشباب كان أروع ما في الثورة؛ لكن انضمام الأحزاب أربكني، وأربكهم في الوقت ذاته، هل نقبل أم نرفض؟! هل نتفق على وحدة الصف ونزيل النظام الفاسد معا أم نستمر في ثورتنا لتكون نقية بيضاء من دنس السياسة والأحزاب! لم يكن القرار قراري، ولم يدرك الشباب الفخ الذي نُصب لهم. فشلوا في إيجاد قيادة، وأصبحوا أداة في يد الأحزاب. شعرت بغصة أكبر وأنا أرى البساط يُسحب من تحت أقدامهم؛ لكني لم أنسحب، وظللت صامدة؛ لا بد من مواجهة كل ما يحدث وسيحدث بقوة. هذا هو واقعنا، والعودة إلى البيت أصبحت مستحيلة بعد دماء الشهداء. وعندما انضم "علي محسن" للثورة شعرت بسرقتها الكاملة منا؛ نحن الباحثين عن وطن؛ ولم نطلب غير الوطن. هل تفهم ما أعنيه يا كمال؟! هل تفهم انهيار حلمك الذي تترجى به الخلاص، ليس لك فقط، ولكن لوطنك الذي تبحث عنه؟! هل تفهم المأزق الذي لم يستطع فيه الشباب أخذ قرار حاسم في ثورتهم وفي الوفاء لشهدائهم؟! الأموال راحت تغدق

على الساحة! من كان يتطوع راضيا في حراسة المداخل أصبح يريد مقابلا! من كان يجمع التبرعات ويشتري بها الغذاء والكاميرات والأدوات التي يحتاجها الثوار أصبح يذهب ليطلبها من الأحزاب! آه! كم أنا حائرة كمركب لا يرى اليابسة غير سراب يتقدم باتجاهه، وفي حقيقة الأمر يتقدم من حتفه في عمق البحر واتساعه!".

اغرورقت عيناها بالدموع. نكست رأسها، حاولت إخفاء دموعها؛ لكن الغصة كانت أكبر منها!

كان "كمال" مستمتعا بلحظة الضعف تلك التي اعترت "صبحية"، بشفيف مشاعرها تجاه الوطن الذي تبحث عنه، وتجاه الشباب الذي لامست مخاوفه عمق ما دار، واستبصار ما هو قادم. تأكد له أن اهتمامه بها كان في محله، وأن شعوره بأنها امرأة مختلفة كان صحيحا. لقد راقبها جيدا في "جمعة الكرامة"؛ أذهلته بشجاعتها وهي تتقدم باتجاه مصدر إطلاق الرصاص لتساعد في نقل الجرحى، ولولا الأصوات الرافضة لتقدمها، بل ردعها من بعض الشباب، لتقدمت أكثر، وربما نالتها رصاصة، مثل أولئك الشهداء. راقبها وهي تقتنع بصعوبة بكلام الشباب أن تتوجه إلى المستشفى الميداني لتسعف الجرحى وتحافظ على حياتها. رآها في الطريق وهي تقتعد الأرض وتبكي بحرقة دون أن يلحظ أحد انهيار تلك اللحظة. رأى يديها اللتين ارتفعتا إلى وجهها وراحتا تلطمانه بقوة وبهستيرية الخائف والحزين والمفزوع. رآها وهي تستجمع قواها وعزيمتها وتدخل في قلب المستشفى لتسعف وتطبب بقوة وشجاعة ورأفة لم يرها في امرأة أخرى!

في ذروة ضعف "صبحية" أمامه تمنى لو يمسك بيدها، بل تمنى لو يقترب منها ويطوق نصفها الأعلى بيده ويضع رأسها على كتفه. تمنى

أشياء كثيرة؛ لكن لم يسعه الزمان والمكان سوى أن يلقي في وجهها حواسه وتركيزه ليُهدئ مخاوف لم تكن أسيرة قلب "صبحية" فقط، بل أسيرة قلبه وقلب كل من يرى الأمور بوضوح في الثورة وفي قلب الساحة دون فائدة يرتجيها من الأحزاب أو من الوجاهات القبلية التي انهمرت بانضمامها للثورة، بل التي اتخذت الثورة جسرا تمضي عليه دون أن تلتفت لأعمالها السيئة السابقة بل المخزية تجاه الوطن الذي لم تقدم له سوى الفقر. وما إن رفعت عينيها من على الطاولة حتى بادرها "كمال":

- صبحية! هذا هو الواقع الذي وجدنا عليه أنفسنا طيلة ٣٣ عاما؛ واقع تحكمه ولاءات القبيلة، ولا تحكمه إرادة الشعب. واقع دولة مزرية ونظام فاشل لم يهمه إلا تلميع صورته في العالم الخارجي، وليس صورة بلده؛ جمع أمواله وأموال محيطه الفاسد، لا جمع إرادة الشعب وتنميته والقضاء على فقره وجهله ومرضه. في الساحة لن نستطيع نحن القلة القليلة تغييره إلا باستيعابه ومن ثم مقاومته بالكلمة، وهي التي نملكها، وفضح فساده وظلمه للشعب، وأن من انضم للثورة من أحزاب سياسية ووجاهات قبلية لن يغفر لها هذا الانضمام أو التأييد. ما نقوله لن يعجب أحدا، وسيتم اتهامنا كما يحدث للبعض الآن بالتخوين وبشق الصف؛ لكن لا يهم. لقد بدأنا ولن نتراجع إلى الخلف.

شعرت "صبحية" ببعض الراحة. ما سمعته من "كمال" ألقى في قلبها الطمأنينة. لم تجد ما تعلق به على حديثه غير علامات رضى طاغية على ملامحها. لم يدع لها مجالا للتفكير أو الرد على كلامه؛ واصل بصوت يفيض محبة:

- أما الرجل الغامض فمن خلال وصفك له يبدو أنه بالفعل صديق والدك، وأن هناك ما يريد أن يخفيه، أو لنقل لا يريد الحديث فيه معك.

صفاته وما يحمله من صور تدل على ذلك. سنجده وأعدك بالبحث عنه. مثله لن يتخلى عن الساحة، يتنفس فيها، ويشعر بحريته، وينتظر وطنه الآتي منها. سنجده صبحيتي فلا تقلقي، وستعرفين منه ما تريدين معرفته.

دوى اسم "صبحيتي" في أذن "صبحية" نغما عذبا. لم ينادِها أحد بهذا الاسم. كان والدها يناديها "صباحي"؛ أما ما ردده "كمال" للتو فله وقع خاص على سمعها وقلبها. لامس "كمال" ذلك الجزء الغامض من قلبها، الذي ظنت أن عواصف الثلج كسته فلم يعد قادرا على النبض، وها هو جليده يذوب بدفء كلمة "كمال": "صبحيتي".

شعر "كمال" بذلك. اتسعت حدقتا عينيه الصغيرتين. ارتفع حاجبه الأيمن من الدهشة والرضا في الوقت ذاته. فكر بينه وبين نفسه: "يا رب السموات والأرض، امنح صبحيتي السعادة التي تستحقها، أنا أعترف في حضرتك العليا أنني أعشقها. لم أتوقع أن يعود قلبي للخفقان من جديد بعد ما حدث له من قتل متعمد. لم يخطر ببالي أن أجد الإنسانة التي أشعر بروعة العالم من حولي عندما أراها. لا أعرف كيف استطعت أن أنمق اسمها: صبحيتي، في قلبي، لينطقه لساني ولأبتهج برؤية سعادتها به حال سماعه. نعم، شعرت بسعادتها وخجلها في الوقت ذاته. مازلتُ بالنسبة لها غريبا، ورفيق ساحة، وشريك ثورة؛ لكني لن أظل كذلك كثيرا يا رب! سأتحول إلى حبيب لهذه الصبحية، وستكون شريكتي في الحياة، وسأضحي بكل ما لديّ من أجل إسعادها. كلانا يحتاج إلى السعادة. كلانا عانى من ظروف قاسية وجد نفسه جزءا منها، وكلانا عليه أن ينال ما يتمنى من الحياة ومن السعادة ومن الحب".

تلعثما، "صبحية" و"كمال"، بعد تبادل نظرات الإعجاب الأولى. لم تكن هذه المرة تحديا وجرأة من "صبحية"، بل أولى خطوات الوله لما هو آت.

استأذنته وغادرت الكافيتريا، بينما ظل يرقبها من مكانه حتى غابت عن ناظريه.

•••

(١٢)

الجمعة، أصبحت اسما ليوم يمقته "مهدي الريمي"، مذاق ساعاته صار في ذاكرته علقما. يتمنى ألا يستيقظ من نومه فيه، لولا أن هذا التصرف سيثير تساؤل كل من في البيت والحارة؛ لأنه خارج عن طبيعته منذ سنوات؛ ومع ذلك ستكون هذه الجمعة مميزة لمهدي ولنساء حارة "مذبح"، وأيضا ليونس ولنساء حارة "سوق علي محسن". سيستيقظ "مهدي" مبكرا. سيمر على منزل حبيبته "حبيبة" كما اتفق معها البارحة. سيحدثها بجدية أمام الأطفال الذين تجمعوا أمام منزلها. ستخرج ورقة وقلما وستبدأ في إحصاء ما وصل إليها من مشغولات يدوية جاهزة للبيع، وأمام اسم كل طفل نوع العمل المكلف به وقيمته. كان أطفال منطقة "مذبح" يشعرون بالفرح لما سيقومون به اليوم؛ ليس لأنها تجربة جديدة وحسب، بل لأنهم سيكسبون مالا وفيرا. لا يوجد طفل في "مذبح" لا يعمل. هناك من ترك المدرسة ليعمل، ومن يعمل ويدرس في الوقت ذاته. ملابسهم تجعلك دائما ما تحتار في الأم التي تقبل اتساخها حتى ينعدم لونها. ولون بشرتهم الذي اقترب من السواد يجعل منهم أبناء الشمس. تولى "مهدي" ترتيب الأطفال في طابور حسب أعمارهم. لم يقبل من هم دون الثامنة، وقبل بعضا منهم تجاوز الثالثة عشرة. كمية المشغولات دلت على حماس كبير من نساء وفتيات "مذبح" لكسب المال

كلما منحهم الحظ فرصة. كان أغلب المشغولات محاكاة لألوان العلم اليمني. سيأخذ الصغار الميداليات وقلائد الصدر والمسابح. سيضع "مهدي" الكمية في حقائب صغيرة ويعلقها على الرقاب. لكل حقيبة جيبان، أحدهما للبضاعة والآخر للمال حتى لا يفقده الصغار. الشيلان تنوعت مواد حياكتها، هناك صوف مشغول باليد، وهناك أقمشة من القطن والحرير خيطت ألوان العلم الثلاثة منها بإتقان شديد. اشترى "مهدي"، بالإضافة إلى المشغولات، بعض المظلات للوقاية من الشمس، وبعض صور العلم اليمني التي في وسطها بعض الكتابات أو العلم الذي على شكل قلب أو خريطة لليمن أو صور الشهداء، وهذه تستهوي البعض أثناء صلاة الجمعة. الأطفال الكبار سيحملون كراتين للماء، لبيعه وأخذ أجرتهم. الله وحده يعلم كم يعاني أهل هذه المنطقة. كان "مهدي الريمي" و"حبيبة" قد استنفدا كل أفكارهما للأطفال. يعلمان أن لكل طفل منهم حلما، قد لا يتحقق، لكنه يساعد على الاستمرار في الحياة. سيتفق معهم "مهدي" على قضاء اليوم كاملا في "ساحة التغيير"، وليس وقت صلاة الجمعة فقط، فهناك مسيرات في وقت العصر، وهناك احتفالات على المنصة بعد العصر حتى المساء. وفي المساء عليهم موافاته إلى عربته ليعود بهم إلى منطقة "مذبح" وقد اطمأن عليهم جميعا. كان تحذير الأمهات شديدا. ورغم أن أبناءهن دائمو الخروج والعمل، إلا أنهن لم يكنّ على يقين من عودتهم مع أول خيوط الظلام. الخوف من تكرار ما حدث في "جمعة الكرامة" أفزعهن. فكر "مهدي" أن يحذرهم فيما لو حدث أي طارئ؛ لكنه تراجع عن ذلك؛ لا يمكن أن يُفزع الصغار، أو أن يفضح نفسه ومصير شقيقه.

ثوار "ساحة التغيير" سموا ذلك اليوم "جمعة الخلاص". سيتشعب المصلون من منصة الساحة حتى "جولة كنتاكي" من الجنوب، ووزارة

العدل و"جولة سبأ" من الشرق، و"جولة مذبح" من الغرب، وستُملأ الشوارع المحيطة بهذه الشوارع الرئيسة؛ لذلك ستكون مهمة "مهدي" سهلة في تقسيم الأطفال على هذه الشوارع. الصغار سيسبقون المصلين إلى الساحة. سيستعد كلٌّ منهم ببضاعته. سيدهشهم حشد المصلين المتوافدين على الساحة من كل إتجاه. أدى كلٌّ منهم الصلاة في المكان الذي وجد فيه، بمن فيهم "مهدي". استعدوا للصلاة في صفوف أنيقة؛ المصلون طغى عليهم اللون الأبيض، والنساء بالأسود. كان ترديد كلمة "آمين" بعد الإمام تهز صنعاء هزا من الخشوع والرجاء لله بأن يَمُنَّ عليهم بالخلاص دون سفك دماء، ودون المزيد من التضحيات بأبرياء لا يريدون غير وطن يتمتعون فيه بالحياة الكريمة.

النساء في مكانهن على يسار المنصة خلف ساتر بلاستيكي أزرق بينهن وبين الرجال خلفهن. لمح "مهدي الريمي" "صبحية" حاملة على كتفها أنبوبة ماء ترشه على رؤوس المصليات. ترْتدي قبعة بألوان العلم الجمهوري واقية من الشمس. الأول من أبريل اليوم ليس كذبة، بل حقيقة تلفح الرؤوس بحرارتها. ظهيرة صنعاء صارمة، لا تهادن في وضوحها وصفاء أشعتها واختراقها كل ما يواجهها؛ مثل هؤلاء النساء والرجال الباحثين والباحثات عن التغيير للأفضل. ستبتسم صبحية لمهدي من بعيد وحالها يقول: أين كنت البارحة؟!

ها هم صغار حارة "مذبح" تحت الشمس الحارقة يعملون بجد من أجل القليل من المال، ومكانهم الطبيعي في هذا اليوم هو التنزه واللعب في الحديقة، الجري والقفز والشقلبة بين عشب أخضر يمنح قلوبهم الصغيرة السكينة وأجسادهم الطرية متعة اللعب.

ستنتهي الصلاة، وسيمضي المصلون، كل إلى حال سبيله، سيجتمع الصغار حول "مهدي" كأب حنون. سيمضي بهم لتناول الغداء. سيكون

هناك في الساحة الكثير من الموائد المجانية التي تبرع بها الناس، وموائد تم الحديث عنها أنها لبعض الأحزاب. لم يهتم "مهدي" بهذا أو بذاك؛ لكنه اهتم كيف يطعم الصغار ويوفر لهم وجبة مجانية ليعودوا برزق يومهم كاملا دون نقصان. سيوزع "مهدي" الصغار على أكثر من مائدة. وبعدها سيجنح بهم للراحة في أحد أركان الساحة التي أمام المنصة. أراد للصغار أن يتمتعوا بفقرات المنصة قبل أن يواصلوا عملهم. تحلقوا حول بعضهم وراحوا يتباهون بالكمية التي باعوها من بضائعهم. كان بائع المسبحة التي بألوان العلم قد أوشك على استنفاد كميته. يفضل المصلون اقتناءها والتسبيح بها أثناء سماع الخطبة.

ستبدأ المنصة في بث فقراتها، وسيندهش الصغار لما يرونه ويسمعونه. سيقول أحدهم:

- والله العظيم هذا مسرح، وبعد شوية عيغنوا ويصفقوا.

سيرد عليه الآخر وبمنتهى الثقة:

- عيغنوا العشي، يا اخبل! أنا ابسرتهم في قناة "سهيل".

سينهض الصغار لمواصلة عملهم. سيقطعون الساحة طولا وعرضا. سيمرون على سكان خيامها، ومقتعدي أرصفتها والمارين فيها ليعرضوا بضاعتهم. سيشعر البعض منهم بالتعب لينتبذ له مكانا مناسبا للرؤية ويفرش بضاعته عليه. بعد أذان المغرب سيتوافدون على "مهدي"، ليعود بهم و لينهي مهمته مع "حبيبة" في إعداد كشوف المبيعات.

اللهفة كانت قليلة على شعور "حبيبة" وهي تنتظر عودة "مهدي الريمي" والصغار مكللين بالنصر. طلب منها المجيء إلى منزله مع الصغار لينهوا مهمتهم، بجمع قيمة بضاعة النساء وأخذ أجرة الصغار منها. لكن شقيقها الأصغر الذي كان أحد البائعين تصدر لمهدي وقال له:

ـ عيب ما ينفع تدخل حبيبة بيتكم! نتحاسب هانا! في الحوش حقنا.

تبادل "مهدي" و"حبيبة" نظرات الدهشة. ووافق "مهدي" دون أن يثير أي ضجة أو يبدي تذمرا. كان حوش منزل "حبيبة" صغيرا. هو فقط يسمح بكسر مدخل البيت حتى لا يفتح على الشارع الرئيسي. دخلت "حبيبة" إلى المنزل وخرجت بكشاف يدوي في ليل "مذبح"، التي لا تزورها الكهرباء في الأيام العادية إلا قليلا، فما بالكم في أيام الثورة، التي يمارس فيها عقاب جماعي على الشعب بقطع الماء والكهرباء!

أخرج كلٌّ منهم محتوى حقيبته. لم يتبق من بضاعتهم شيء. فرحتهم الغامرة بانتظار الأجر جعلت "مهدي" يتنازل عن أجرته لهم، وناول "حبيبة" بقية المبلغ وطلب منها توزيعه لمالكات البضاعة حسب ما لديها من أسماء. ودّعها دون أدنى نظرة أو تصرف قد يثير شكوك أخيها الصغير، ومضى في حال سبيله.

ستفتقد "صبحية" "مهدي" لليوم الثاني، وسيشعر "مهدي" عند عودته إلى المنزل بأنه يفتقد ما اعتاد عليه قبل عودته من الحديث مع "صبحية" و"كمال".

●●●

(١٣)

في الجهة الأخرى، تحديدا في الحارة الملاصقة لـ"سوق علي محسن" من جهته الشرقية التي تبعد مسافة مائتي متر عن منزل "يونس"، سيحدث شيء مشابه. سيكون "يونس" هو المسؤول عن كل المشغولات التي أعدتها نسوة وفتيات حارة "سوق علي محسن"، مع فارق أن

"يونس" ومن معه سيتوجهون إلى ميدان آخر، "ميدان السبعين"، المحتشد فيه مؤيدو الرئيس "علي صالح" ونظامه. سبب تسمية الميدان هو أنه كان مطارا حربيا قاومت منه صنعاء حصارها عام ١٩٦٧ من قبل قبائل ومرتزقة موالين لنظام الحكم الإمامي قبل قيام ثورة سبتمبر ١٩٦٢, ستسمى الجمعة هناك "جمعة الإخاء والوفاء للقائد"، وسيتوافد إليها الكثير من أبناء المحافظات والقبائل المجاورة لصنعاء.

كقائد مكلف بالإنجاز، سيتعامل "يونس" مع المهمة التي اتفق عليها مع "مهدي". سيوزع المشغولات على الأطفال. سيمنحهم حقائب لحفظ البضاعة وقيمتها. سيهتم بتفاصيل تجمّعهم بعد الصلاة للعودة. سيتطوع أحد السكان بإيصال الصغار مع بضاعتهم في باصه إلى الميدان وانتظارهم إلى حين الانتهاء من الصلاة ومن ثم عودتهم إلى الحارة بنصف أجره. ذهب "يونس" مع الصغار في وقت مبكر. لم يكن يعرف "ميدان السبعين"، ولا أين يقع؟ ولا كيف سيتم توزيع الصغار عليه؟ لم يسأل "مهدي" عنه؛ لأنه اعتقد أنه مثل "ساحة التغيير"، وأن الأمر لن يختلف كثيرا. نسي "مهدي" أن صديقه لم يغادر "سوق علي محسن" إلا إلى مزرعة الدجاج، ولا يعرف غير محيطه، و"ساحة التغيير". "يونس" باختصار لا علاقة له إلا بصنعاء شمالا، وأهلها المعدمين ونصف الميسورين. أما صنعاء جنوبا فهي للميسورين الذين يسمع عنهم من أمه ومن "مهدي". سيتعرف عليها اليوم، وسيبدأ بميدان السبعين. سيكون الشاب الذي طلب نصف الأجرة لباصه لكي يقل الصغار و"يونس" إلى الميدان، يدا معاونة ليونس في مهمته.

سيقطع الباص مسافة سبعة كيلومترات من "شارع الستين" إلى الميدان، الذي لا تتجاوز مساحته ثلاثة كيلومترات مربعة. ستطلب منهم

الحراسة وضع الباص في فسحة أمام الميدان من الجهة الجنوبية، والدخول سيرا على الأقدام؛ احتياطات أمنية حفاظا على حياة رئيس الجمهورية. سيفعل السائق ما طُلب منه. سيحمل الصغار بضائعهم ويتوجهون بخطوات ملائكية فرحة، تحف خطواتهم وتباركها الأمهات اللاتي تركنهم في حفظ الله ورعاية "يونس" من أجل لقمة العيش. سيقفون عند بداية الميدان. سيُبهِت المنظر عقولهم للحظات. ستظهر علامات الدهشة على ملامحهم. ستتجول أعينهم في كل ما حولهم، قبل أن يطوق شغفهم الميدان، الذي سيبيعون فيه بضاعتهم بعيون صغيرة متحمسة تتمنى البدء في المهمة. قدموا باكرين؛ لكن هناك من سبقهم إلى هناك: القادمون من محافظات ومديريات خارج العاصمة لتأييد ومناصرة الرئيس "علي عبد الله صالح"، بعض الوجاهات القبلية ومرافقوها، الحراسات والأمن المنتشر بشكل جليّ للعيان.

اعتمد نظام "صالح" على هذه الولاءات القبلية له ولنظامه. وتحول الرضى المتبادل بينهم إلى حرمان هذه المناطق من مشاريع التنمية والتعليم والصحة. لن يصدق أحد أن منطقة الرئيس، التي تدعى "سنحان"، بلا مَعْلَم مميز لها، بلا مستشفى تخصصي، بلا مدرسة للمتفوقين، بلا مركز أبحاث أو جامعة. لم يكن من المنطقة أيضا من له بصمة مدنية أو حضارية أو علمية، من له حلم بأن تنتهي أُمية أبناء المنطقة خلال أعوام، أو أن ينتهي أطفالها من مرض شلل الأطفال كنموذج لباقي المناطق، أو أن يدعم جائزة ثقافية أو علمية أو فنية. لذلك جاء هؤلاء لموالاته على ماذا؟! على ما يغدقه عليهم من أموال؟! على تركه لهم زمام مناطقهم يعيثون فيها فسادا، وينشئون فيها سجونا أمام مرأى ومسمع من الدولة، ودون أن يهز ذلك شعرة في رأسه أو يسأل نفسه أين دولته التي يقول إنه بناها أمام سجون هؤلاء الوجاهات.

جمع "يونس" الصغار حوله بعد أن قطعوا نصف المسافة، أمام نصب الجندي المجهول، الذي يتوسط الميدان. وأمامه، على بعد ما يقارب الكيلومتر، توجد منصة كبار الضيوف، عندما كانت تُقام في هذا الميدان العروض العسكرية في أعياد الثورتين المجيدتين سبتمبر وأكتوبر. النصب التذكاري مبني من الحجارة، يعتلي ست درجات، تبدأ بعدها قاعدته المستطيلة، يربض عليها عقد نصف دائري ضخم أعلى نقطة فيه ترتفع ستة أمتار، وخلفه بشموخ ينال عنان السماء يتدرج ارتفاع ستة أعمدة تعبر عن أعمدة سد مأرب العظيم في شكلها وعن أهداف ثورة سبتمبر الستة في عددها.

شهقت أبصار الصغار عاليا، وهم متحلقون حول "يونس"، عند رؤية تسلق ستة رجال أقوياء لهذه الأعمدة، لكلّ منهم قوة أسد وخفة قرد، للوصول إلى قمتها، ورفع العلم الوطني ليرفرف في كل الاتجاهات. لم يستطع "يونس" السيطرة عليهم، وشعر بأن كلامه لن يُسمع أو يُفهم إلا بعد أن يُشبع الصغار فضولهم برؤية كل ما حولهم. اعتلوا الدرجات الست وتمكنوا من رؤية كامل الميدان. يتوافد إلى المنصة أمامهم كبار الضيوف. لم يتحدد بعد حضور الرئيس من عدمه. ساريات الأعلام إلى جوار المنصة يرفرف في قمتها العلم الوطني، يعتلي رشاقتها بعض الشباب ليتمكنوا من رؤية الرئيس. بعضهم راح يتهجى ما استطاع الوصول إليه بنظره ما كتب على الأقمشة المرفوعة: أسماء القبائل الموالية، أو عبارات التأييد والمناصرة. بعضهم نزل من الدرج وتحلق حول الطبل الذي "يبترع" (١) على إيقاعه بعض الرجال يقبضون "جنابيهم" بأيديهم ويمايلونها بانسياب مبهر مع أجسادهم. أفسح من

(١) البرع: رقصة يمنية مشهورة

تبقى على الدرج الطريق لمجموعة يمسكون بصورة كبيرة للرئيس يريدون وضعها أعلى النصب لتكون أمام الرئيس لو حضر. إنها الصورة التي يحملها معظم من في الميدان أو يزينون بها جباههم. توافد الناس مستمر إلى الميدان، الذي راح يزدحم أكثر فأكثر بالشباب والأطفال والشيوخ؛ وخلا من النساء. الجميع بلا استثناء يرتدي الزي الشعبي لمنطقته: قمصانا بيضا، وفوطا ملونة، وأكواتا تعلو الأكتاف في حرارة الظهيرة؛ لكنها تكمل المظهر وتجعله يمنيا خالصا. تشهق أبصار الجميع كل لحظة إلى الأعلى وترتفع أصواتهم عند سماع طائرة هليكوبتر تحلق فوق رؤوس الجمع دون أن يعرف "يونس" والصغار لماذا!

لاحظ "يونس" أن أكثر ما يباع هو هذه الصورة للرئيس "صالح" التي رفعوها أعلى النصب التذكاري، بأحجام وألوان مختلفة، وقوارير الماء، وهذا ما لم يستطيعوا أن يحضروه معهم، ولا يوجد محلات قريبة من الميدان يمكن شراؤه منها وبيعها، كما في "ساحة التغيير". لذلك توقع أن تُباع بضاعتهم؛ فقط لو يستطيع التحكم في الصغار من انشداه عقولهم بما يرون. اقترب موعد أذان الظهر. تم إيقاف الأغاني والأناشيد الثورية الصادحة بالوطنية. وتوقفت الطبول عن الدق، ليرتفع الأذان من "جامع الصالح" في طرف "ميدان السبعين" الشرقي. تم تسمية الجامع بهذا الاسم لأن الرئيس "صالح" زعم أنه بناه من ماله الخاص وبمساعدة أصدقائه التجار في اليمن، ليكون أكبر جامع في اليمن. كلف بناؤه ستين مليون دولار، في واحد من أفقر بلاد العالم، اسمه اليمن.

تحلق الصغار حول "يونس" مع بضاعتهم. راح يصدر لهم تعليماته ويطلب منهم تكرارها حتى يتأكد منها. فهم كلٌّ منهم أن عليه المرور بين جموع الناس هذه بهدوء والإمساك بعينة مما في حقائبهم، وإدخال

الفلوس فورا إلى الحقيبة في حال البيع، وأن عليهم الحذر الشديد من أن تتعرض حقائبهم للسرقة، وأن على من انتهى من بضاعته أو شعر بالتعب الحضور إلى أمام النصب التذكاري وانتظار البقية. سألهم إن كانوا قد فهموا أو يعيد ما قاله. أومأ الجميع برؤوسهم بالفهم. توجهت أنظارهم نحو الميدان الفسيح المكتظ بالناس، وراح كل واحد منهم يرسم لنفسه خط سير وجد أنه يناسبه، في انتظار إشارة من "يونس" يسمح لهم بالانطلاق.

فكرة ما يبيع "يونس" هو والصغار فكرة ثورية بامتياز، لا يدركها الموجودون في الميدان؛ فكرة أن يظل الوطن حاضرا برمز ألوان العلم في التسبيح أو كأيقونة على الصدر، أو شال على الكتف. وبضاعة من في ميدان السبعين شخصية وهي صور الرئيس، والولاء للرئيس، حتى لو رفرفت الأعلام التي رفعوها، حتى لو حضروا بها أو اشتروها من المارين عند مدخل الميدان.

انتهى شغف الصغار بما حولهم. وبحماس ينتظرون "يونس" ليسمح لهم بالانطلاق. وقبل أن يفعل، مسح الميدان بعينيه ولاحظ انهمار الناس على الميدان من اتجاه "جامع الصالح" وامتداد الميدان من شارع كلية الشرطة. شعر لبرهة بالفزع على الصغار في هذا التدافع البشري. أمرهم بعدم التحرك.

كان المصلون في "جامع الصالح"، والمصلون في "ميدان التحرير" قد أنهوا صلاتهم وتوجهوا إلى "ميدان السبعين" لتأييد الرئيس "علي صالح"، لتتمكن الكاميرا من تصوير هذا الحشد المؤيد لشرعيته. الحشد قادم من كل حدب وصوب، ليسمع كلمته وليعلن ولاءه له. ارتفعت لافتات التأييد وتكاثرت حتى طمت الميدان. تنحى "يونس" بالصغار جانبا من

النصب التذكاري، بعد أن تقدم مجموعة من الشباب وتسلقوا العقد الكبير واعتلوه بإصرار وعزم لرؤية الرئيس وسماع خطابه. لم يستشعروا خطورة ما يفعلون، تهور قد يودي بحياتهم من أبسط اختلال في التوازن والسقوط من أعلى القوس، أو من أعلى الأعمدة الستة التي وقف عليها المتسلقون باتزان راقصي الباليه. هي الجبال اليمنية التي لا يخشون ارتفاعها، بنوا عليها منازلهم وحموا بها أنفسهم من غدر الطبيعة وغدر البشر، وها هم يتسلقون عمودا مربعا يتجاوز طول ضلعه نصف المتر، بثقة واتزان بديعين.

انهمار الناس إلى "ميدان السبعين" ألجم "يونس" والصغار. لم يعد يحمل همَّ بيع بضاعتهم بقدر ما يخشى أن يؤثر تدافع الناس على الصغار، ويتسبب في أذيتهم أو دهسهم: تشبث بهم وتشبثوا به، ألصقوا أجسادهم بالجدار القصير المحدد للنصب، فشعروا ببعض الأمان. لم يعد بإمكانهم رؤية المنصة؛ لارتفاع اللافتات أمامهم؛ لكن يصلهم صوت المذيع يجلجل في الميدان بمدح كل من أتوا إلى الميدان، في إخلاصهم وحبهم للوطن، في حبهم للرئيس ولشرعيته، في رفضهم لثورة الشباب المُغرر بهم في ساحة الجامعة ورفض مطالبهم غير المشروعة، وانتقل للترحيب بالرئيس، وشدد على لهفة الجماهير الغفيرة لسماع كلمته.

ما إن تماهى إلى سمع الصغار صوت الرئيس "علي صالح" حتى بدؤوا يرفعون رؤوسهم لرؤيته؛ لكن هيهات! المسافة بعيدة، واللافتات المرتفعة بعلو الأيدي تمنع الرؤية. طلب أحدهم من "يونس" أن يرفعه على كتفيه ليرى الرئيس. حرض طلبه بقية الصغار لأن يصعد أحدهم على كتفي الآخر لرؤية الرئيس. بحماس نفذوا ما أرادوا. اختل توازنهم، وسقط أحدهم على الأرض وكاد يُدهس. تدخل "يونس" وأمسك به. علا

صوت "يونس" طالبا منهم التوقف عن فعل ذلك. وليثبت لهم ألا فائدة مما يفعلون. رفع أحدهم على كتفه وسأله:

ـ هل ترى شيئا؟!

رد عليه وصوته يلمع من الضحك:

ـ ماشي؛ الميدان كله رأس واحد وعليه عمامة بيضاء كبيرة.

قهقه الصغار و"يونس"، الذي أنزله من على كتفه، واكتفوا جميعا بسماع ما يصل إليهم من صوت الرئيس، الذي كانت تقطعه هتافات الناس بالتأييد والمناصرة. وجد الصغار أنفسهم يهتفون مع من هتف في ذهول ملامح "يونس" مما يفعلون:

ـ الشعب يريد علي عبد الله صالح!

كانت هي الأكثر هتافا والأكثر اتفاقا بين الشعارات التي فهموها، ورددوها ربما لأنها كانت قد صدرت من المذيع في أول ترحيبه بالرئيس! كان حديث "صالح" موجزا. ورغم نبرة التحدي الواضحة على لهجته إلا أن صوته كان مُربكا، ومتلعثما. حتى في أشد اللحظات مازال يعتقد أن الارتجال أمام الجماهير وسيلة ناجحة. ربما كان هذا هو الخطاب الوحيد الذي كان يحتاج لتمعن ولنبرة تعقل واحتواء لموقف الشباب في "ساحة التغيير"!

أنهى خطابه، واستمرت الجماهير في الهتاف. أما "يونس" والصغار فقد عادوا بكلمته التي أصبحت لازمة لأنصاره ومؤيديه:

ـ قالوا: ارحل ،من يرحل؟ ارحلوا انتوا!

عاد "يونس" والصغار من "ميدان السبعين" بخُفي حُنين. ستشعر الأمهات بخيبة الأمل لعدم بيع بضاعتهن. سيتمنى "يونس" لو أنه استمع لكلام "مهدي الريمي" وذهب بالصغار إلى "ساحة التغيير" عوضا عن

"ميدان السبعين"؛ لكن لم يكن أمامه خيار. كانت هذه رغبة أمه ورغبة الأمهات اللاتي يخشين على أولادهن من الساحة وما قد يحدث فيها. مازال شبح "جمعة الكرامة" جاثما على قلوب الجميع.

•••

(١٤)

كعادتها "صبحية" في الكافيتريا بعد صلاة العشاء تتناول الشاي بالحليب. سينضم إليها "كمال" بعد انتهاء محاضرته المعهودة.. يبدو على ملامحه اللهفة لرؤية "صبحية"، بعد حديثها البارحة. حركة رأسه من بعيد مشدوهة تبحث بين المارة عن الكافيتريا ومن يجلس فيها. سلامه على "صبحية" يسيل منه دفء شوق لرؤيتها. سألها عن حالها منذ البارحة، وكيف أمضت يومها؟ ردود "صبحية" مقتضبة جدا، قاطعة لأي مجال للأخذ والرد أو التعاطي مع يومياتها أو إشراك "كمال" فيها. سيشعر "كمال" بالخيبة والاستغراب من تصرفها، وكأنها لم تحدثه البارحة عما كان يقلقها، وعن بحثها عن صديق والدها. سيهرب من هذا الجفاء الذي كسر حماسه للحديث، وسيسألها عن "مهدي" وعن سبب عدم مجيئه ليومين. سترد بعدم معرفتها بالسبب! ستنهش الحيرة "كمال" من ردة فعلها، وسيسلم أمره لرغبتها في عدم الحديث معه: بضعف البارحة أو جدية اليوم.

لم يحضر "مهدي" لانشغاله بترتيب وضع ما باعه لنساء "مذبح"، ومشغول بحبيبته، "حبيبة"، وبمشاعر تداهم فؤاده للمرة الأولى. سيدخل إلى منزله ليستأذن من أمه بأنه سيذهب لزيارة "يونس" ليعرف نتيجة ما

حدث في يومهم وأنه لو تأخر فسيبيت لدى "يونس". وافقت؛ لكنها سألته عن المبلغ الذي كسبه نتيجة قيامه بالعمل المضني مع الصغار ونساء "مذبح" منذ الصباح. أخبرها أنه هذه الجمعة تنازل عن نصيبه للصغار حتى يشجعهم على العمل في الجمعة المقبلة. نهرته؛ لكن ليس كثيرا، وطلبت منه ألا يتنازل مستقبلا عن أمواله بسهولة، فمن يتعب لا بد أن يحصد. سألته عن أخبار شقيقه، فأخبرها ألا جديد لديه، ومضى هاربا منها ومن أسئلتها التي يعلم أنها لن تتوقف. لاحظ للمرة الأولى منذ وفاة شقيقه بتهدج صوت أمه وهي تسأل عنه، شعر بشدة شوقها له، وأن انكسار سؤالها عنه حقيقي وليس عما يكسبه من مال؛ فمضى سريعا.

لن يصدق "مهدي الريمي" ما حدث ليونس والصغار. لن يصدق أنهم لم يستطيعوا بيع بضاعتهم! لم يقبل ذهنه أن العدد المهول الذي قال عنه "يونس"، وتباهى به الرئيس "صالح" وقناته التليفزيونية، لم يتحمس لشراء مسبحة أو شال أو قلادة بألوان العلم الوطني! لم يستوعب أنه لم تُفرش ولو مائدة يتناول فيها الفقراء الطعام ممن كانت ثيابهم مهترئة، ونصف أقدامهم تجر خيبات وطن لم يستطع رئيسهم أن يمنحهم فيه إلا نصف حذاء.

اتفق "مهدي الريمي" مع "يونس" على أن يتوجه صغار "مذبح" وحارة "علي محسن" من الجمعة القادمة إلى "ساحة التغيير" وليس إلى "ميدان السبعين"، لبيع الوطن حتى لو كان على شكل مسبحة في اليد أو شال على الأكتاف أو أيقونة وقلادة على الصدر. وبعد أن طغى اليأس على "يونس" وأصدقائه البائعين وأمهاتهم بث فيهم "مهدي" حياة أخرى.

طمأن "مهدي" الأمهات بألا خطر على الصغار في الساحة، وأنه يعدهن بالمحافظة على أولادهن وعلى البضاعة. حكى لهن عما كسبته

نسـاء منطقـة "مـذبح". تحـمـسـت بـعض الأمـهـات فـقـط. الخـوف يـنـهش عـقـولهن. يسـمـعن الإذاعـة ويشـاهدن التليـفزيـون الرسـمي طوال اليـوم تناهض السـاحـة والشـبـاب وتفـتـري عليـهم بشـتـى الحكايات والقـصـص المخـتلقـة! كـان منهنّ أم يونس. رفـضت ذهـابه إلى السـاحـة وبإصـرار، وطلبت من "مـهـدي" تولي المهـمـة نيـابة عنه لو أراد أو يذهب الأولاد الصـغـار وجدهـم مع إخوانهم أو أمـهـاتـهم. قـرارها كـان صـادمـا ليونس؛ لأنها تعوق تحقيق حلمه برفـضها وخـوفها عليـه. وهو لن يثنيه شيء عن تحقيق حلمه، حتى لو اضطر للكذب على أمه!

رفض أم يونـس خـوف من فـقـده؛ لكـنـهـا الوحـيـدة من الأمـهـات التي تعرف أن الشـبـاب في السـاحـة على حق. موت زوجـهـا وهـو في عز شبابه هو الباطل الذي ارتـكبته الحكومـة عندما أغوتهم بالمال ليخوضـوا حربا لا ناقة لهم فيها ولا جمل. إنها حـروب صـعدة الست (١) السـابقة لقيام ثورة الشبـاب. المقاتلون أنـفسهم لم يكونوا يعرفـون أيضا لماذا يحـاربون وماذا فعل بهم أهل صعدة ليحاربوهم!

●●●

---

(١) حروب صـعـدة أو الحروب السـت: معارك بين حكومـة علي عبد الله صـالح من جـهة وحـركة أنصـار الله المعروفة باسم الحوثيين الزيدية المسلحـة، بدأت الحـرب في يونيـو ٢٠٠٤ عندمـا اعـتقلت السلطات اليـمنية حـسين الحوثي بـتـهـمـة إنشـاء تنظيم مسلـح داخل البلاد. معظم القتـال كان في مـحافظة صـعدة وانتقل إلى الجوف وحجة وعمران. اتهمت حكومـة علي صـالح الحركة بالسـعي لإعادة الإمامـة الزيدية وإسقاط الجمهورية اليمنية أمـا الحـركة فتتهـم الحكومـة بالتمييز ودعم القوى السلفيـة لقمع المذهب الزيدي. جلب الصـراع اهتمامـا دوليا في ٣ نوفمبر ٢٠٠٩ عندما شنت القوات السعودية هـجومـا على مـقاتلين حـوثيين سيطروا على جبل الدخـانفي منطقة جازان جنوب غربي البلاد متهمة الحكومة السعودية بدعم النظام اليمني ماليا واستراتيجيا عن طريق السـمـاح للقوات اليمنية باسـتعمـال الأراضـي السـعـودية كقاعـدة لعملياته (ويكيبديا).

أحــلامهـــا



(١)

نعم، هربت "صبحية" من "كمال" بنظراتها وجديتها في الحديث، مساء اليوم التالي. ورغم جرأة مواجهتها لهذه النظرات في السابق إلا أنها الآن تفر منها بأقصى سرعة، كسارق أطلق ساقيه للريح حتى لا يظفر به عسس الليل. هي هاربة من تجربة قاسية ولا تريدها أن تتكرر. أصبح لديها ما يشبه اليقين بأنه لا يوجد رجل في هذا العالم سويّ الذات تجاه المرأة، يمنحها حقوقها الإنسانية ولا شيء غيرها، يعتبرها مثله تماما ويهبها كل ما لها عن طيب خاطر، وليس عن منّ وإذلال.

ستهرب منه ومن أي رجل يحاول التقرب منها. بهذا تنتصر لذاتها، ولا تعتبر ذلك نصرا لحميد، حبيبها الذي لم يحسن معاملتها واعتبرها فائض نعمة ليس إلا! امتهن كرامتها بشكوكه الآثمة وأسئلته الغبية عن علاقتها السابقة بغيره، وكأنها شيء رخيص لا قيمة له. وكأنها لم تمنحه إحساسا راقيا ومشاعر طيبة وأخلاقا كريمة! وكأنّ كل علاقة لرجل وامرأة لا بد أن تكون آثمة، وأن تكون المرأة هي المسؤولة فقط عن هذا الإثم إن كان، لا يحاسب الرجل نفسه، أو هو لا يريد؛ بل يريد أن يظل هو الملاك وهي الشيطان، هو من يطلب وهي من تنفذ من أجله، وبعد أن تفعل يقذعها بأبشع الاتهامات! أين العدل في ذلك أيها الرب في علو سماواتك السبع؟!

كان "حميد" حبيبا "شدف" (١) عقل "صبحية" بحبه لمدينتها الأثيرة ومعشوقتها صنعاء، بمعرفته بحاراتها وحماماتها وأسواقها. بتشعب

(١) شدف: أخذ جل اهتمامها

خياله بحكاياتها وأساطيرها المترعة بالحياة للرجال والنساء والأطفال والشيوخ. بسيرها معه في أزقتها دون شعور بالخوف. كان تسرب رائحة التراب من منازل المدينة وأزقتها يخترق اوردتهما نشوة، فلا تعنيهما نظرات الاستغراب من الكبار أو الدهشة من الصغار، من رجل يمسك بيد امرأة ويسير معها جهارا نهارا في أزقة مدينة محافظة.

حبيبا عاش مغامراته النسائية طولا وعرضا، وحَرَم من حَرَم منهن من الحياة والاستقرار. بهلوانا يجيد التلاعب بغباء مشاعرهن وعدم تمييزهن لاستغلاله لهن. تتذكر صبحية "بدة بحر رجرج"، "حورية"، التي كان "حميد" يطلق عليها "حوريتي مسك"، وكيف منحته كل ما تملك من مال وجسد روح هائمة في عشقه، ومقابل ذلك منحها الجحود والنكران؛ حرمها الاستقرار، وحرمها إنجاب الأبناء؛ قابل صبرها بالتمرد، وحبها له بالاستغلال، حتى عندما اختفت من الحارة ومن المنزل لم يسأل عنها، ولم يبحث في سر اختفائها! كأنها شيء لم يكن!

ما الذي تريده "صبحية" من حبها السابق "حميد" الآن لترفض "كمال" الذي يحاول زرع بذرة حبه في قلب امرأة ممتلئة بالثقة والرغبة في التغيير، غنية بإصرارها على النجاح في كل ما تفعله داخل الساحة؛ نجحت في خيمة الفنون التي أعدتها كحلم ملون لوطن يبنيه عُشاق اللون والحياة، ونجحت في مسيرات شاركت فيها بحماس وأثبتت قدرة على القيادة والهتاف بشعارات التغيير القادم. نجحت في أن تكون نموذجا في حديثها مع الصغار والكبار مع العابرين على ساحة التغيير والمقيمين فيها.

كل هذا لفت انتباه "كمال" إلى امرأة ظل يبحث عنها طويلا، وسيفعل ما يستطيع الآن ليفوز بحبها. "صبحية" لا تعرف سرا أخفاه عنها

"كمال"، ولا ينوي حتى مصارحتها به؛ سرا سمعه "كمال" أثناء حديثها مع "حميد" في بدايات أيام الثورة:

جاء "حميد" إلى الساحة بعد أن علم بوجود "صبحية". طلبت منه الجلوس معها في الكافيتريا ليتحدثا. امتعض من طلبها؛ فهذا في نظر حميد "قلة أدب"؛ كيف تجلس امرأة في كافيتريا عامة، فما بالك مع رجل، وتتناول معه عصيرا أو شايا؟! بادرها "حميد"، بصوت مرتفع؛ ربما لذلك انتبه "كمال" لوجودهما، سألها "حميد":

- هل هذا هو التغيير الذي تبحثين عنه؛ الجلوس في الكافيتريا أمام الرجال؟! هل هذه هي الثورة التي تريدينها؟!

امتصت صبحية غضبها من حديثه؛ لسببين: أنها تعرف حدود فكره فيما يخص المرأة؛ فقد اعتاد أن يفعل ما يريد لكن في الظلام أو في أماكن مغلقة؛ لذلك كانت "صبحية" بالنسبة له المرأة المختلفة التي تفعل كل شيء في النور؛ سارت معه في الأزقة أمام الجميع، شربت معه القهوة في "سمسرة وردة" في الفجر والمغرب أمام المارة؛ تحدثت إليه في مرسمها الذي تملكه في "حارة شارب" في صنعاء القديمة، وعرّفته بزوار المرسم من النساء والأطفال وبائعات المنتجات اليدوية في المرسم. وعندما حاول أن يخلو بها في منزله في صنعاء القديمة، رفضت عرضه وتركته بين الرجاء واليأس من عودتها. ما الذي تغيّر في "حميد" الآن حتى تصاب بالغضب من كلمته تلك، من امتعاضه من جلوسها في الكافيتريا ومن مشاركتها في الثورة؟! هل حقا يحبها رغم رفضها طلبه الزواج منها وتجنبها له ولنظراته ولمحاولاته العودة وتكرار زيارته للمرسم؟ هل حقا يشعر بالخوف عليها من هذه الثورة التي بدأت تقدم قرابينها من الشهداء الشباب؟ هل حقا يشعر بأن الساحة مكان خطر عليها، ويرغب في خروجها منها حفاظا عليها؟

كان يمكن أن تصدق كل هذا لولا امتعاضه واستمراره في تحقير ما تفعله من مجاهرة بحياتها على الملأ، من رغبتها في التمتع بكل جزء في وطنها، من رفضها احتكار الرجال كل ما هو جميل في وطنها وترك كل ما هو قبيح ومتسخ للنساء. تأكل النساء في مطاعم ذات أقسام مخصصة للعائلات، خلف جدران أو ستائر خانقة، ويأكل الرجال أمام فاترينات زجاجية نظيفة، يتمتعون بالشارع والناس والمارة. لكن حميد لم يتغير. ورغم أنها لم تجد سببا واضحا لمجيئه وتحذيره لها إلا أنها اعتبرت أن اللحظات الجميلة التي قضياها معا في معشوقتها صنعاء هي التي أحضرته إليها ليعبر عن خوفه عليها ومن بقائها في الساحة. جلس معها ممتعضا وزادت في تصرفها عندما طلبت له عصير ليمون في تلك الظهيرة التي قدم فيها إلى الساحة حال معرفته بانضمام "صبحية" إلى الثورة عندما مرَّ على مرسمها وأخبره الجيران أنها لم تفتحه منذ أسبوعين، وأنها التحقت بساحة الشباب.

حاولت بهدوء أن تحدثه عن الثورة، والشباب، والتغيير، والظلم الذي لحق بالشعب في الفترات الأخيرة، ووالدها ووالده اللذين لم يجدا الإنصاف في حياتهما أو بعد مماتهما، وتضحياتهما من أجل الوطن بروحيهما، دفاعهما عن صنعاء دون مقابل، إلا حبهما لها كرمز لنجاح الثورة، الأمل الذي سيتمتعان فيه هما وأولادهما بوطن حرّ ينعم فيه الجميع بالحرية والعدل والمساواة. قالت بحرقة:

- إذا لم نكن نحن المثقفين أداة لمساندة الشباب في رغبتهم الحقيقية بالتغيير فلا خير فينا. إذا لم أكن أنا وأنت من دفع آباؤهم أرواحهم ثمنا لانعتاق الوطن من الظلم والاستبداد فلا خير فينا! إذا لم تكن أنت، من لم تستطع السير في مدار النظام الفاسد الذي رفع الجهل على العلم،

ورسخ المرض على الصحة، وجعل الفقر للشعب، وله الثروة والسلطة، فلا خير فيك.

واجهته بنظرات صارمة، متحدية، ليشعر بأنها لن تحيد عن موقفها من الثورة، وأن هذه قد تكون فرصته لإثبات حبه لها ولوالده وتضحياته. إنها فرصة ليستعيد بها والده الشهيد "صنعاءه"، التي يعشقها ويجب أن تنعم بهواء نقي لبشرها وحجرها، وأن تنعم بحرية ساكنيها ورخائهم من خيراتها وخيرات أرضها البكر؛ ليستعيد "صنعاء" التي يراها كل يوم تُنهب أراضيها على أيدي فاسدين في النظام الذي يثور عليه الشباب اليوم، ويسرق تاريخها بالسكوت على جرائم تشويه وهدم مبانيها، وتخنق متنفساتها وحدائقها بتعمد، بتعطيشها حتى تموت أشجارها ويسهل نهبها. هي فرصتك يا حميد لتستعيد "صنعاءنا"، حبنا، وعشقنا الذي سكن حاراتها وأزقتها ورفرف فوق مبانيها واستقر في قلوب ساكنيها؛ "صنعاءنا" يا حميد التي دمروها ويريدون القضاء عليها بأيدي عشاقها، بترسيخ الجهل والمرض والفقر فيهم فلا يعودون يدركون غير الحياة والسير في فلكها المادي، وقتل كل جميل في أرواحهم المحلقة في عوالم الحب الأبدي لمدينة عشقوها أكثر من أنفسهم وضحوا بكل شيء نفيس لتحيا.

سمع "كمال" كل هذا. اخترقته كلمات "صبحية" عن صنعاء: عشقها ووفائها. في حين لم تؤثر في "حميد" ولم تهز شعرة من رأسه. شعر "كمال" بعظمة هذه المرأة عندما صمتت حين أنهى "حميد" كلامه لها بالسخرية، وعندما غادرها غاضبا وكانت في قمة ألمها، استكانت على كرسيها تجمع شتات ذاتها الجريحة وترثي حبا لم تألُ جهدا في الحفاظ عليه كنبتة كادت تموت من عطشها مرات عديدة لولا قطرات ماء أمدتها

بالحياة. مرَّ في مخيلتها للتو عامان من المتناقضات كانت مع "حميد"، عامان تجذر فيهما حب "حميد" في كيانها وتاريخها واعتبرته المخلص لها من ويلات غربتها وابتعادها عن وطنها؛ اعتبرته الوطن الذي بحثت عنه وعادت لتجده أمام عينيها فتشبثت به وحاولت إصلاحه لتستطيع العيش تحت سمائه وفي كنف حبه وعطفه؛ لكن دون فائدة. ها هي الآن تفقد "حميد": الوطن الذي تخيلته؛ لكنها اليوم تكسب وطنا جديدا، وطنا يتخلق أمام عينيها، وتسهم في بناء لبناته الأولى لها ولكل من وطأت قدماه أرض ساحة التغيير.

استجمعت "صبحية" قواها، واتجهت إلى خيمتها تجرجر حزن نضح من وجهها. تحاول أن تتكئ على جدار أمل يومض في أعماقها. تبعها "كمال" دون أن تعرف أو تشعر به؛ خشي عليها من هول الصدمة التي تلقتها. دخلت خيمتها، فاطمأن باله، ومنذ تلك اللحظة و"صبحية" حاضرة بقوة في وجدانه، يرقبها بصمت، في الساحة وفي المستشفى الميداني وفي المسيرات وعلى كرسي الكافيتريا. تساءل في تلك اللحظة: "لماذا ليس لهذه المرأة صديقة مقربة أو رفيقة لها في هذه الساحة؟ ألم تكن الآن إلى جوارها في هذه اللحظة الصعبة؟".

لم يخبر كمال صبحية أنه سمع كل ما دار رغما عنه، فقد كان غضب "حميد" وتبريراتها صوتين مشعين أكثر من ضوء الظهيرة.

●●●

(٢)

لم ينضم مهدي في ذلك المساء - كعادته - إلى كمال وصبحية للجلوس في الكافيتريا، ولن يجد كمال وسيلة لتلافي تجاهل صبحية له

ولنظراته ولمحاولته الحديث معها، إلا أن يدعوها للسير في الساحة حتى نهايتها، ليبحثا معا عن الرجل الذي تحدثت عنه، وتعتقد أنه صديق والدها. رحبتْ بالفكرة واعتبرتها أيضا خلاصا من ارتباكها الذي تهرب به من كل شيء. إنه زمن جديد تمر به "صبحية" و"كمال" معا في قلب "ساحة التغيير"؛ زمن امتزاج الحب بالثورة في بوتقة واحدة، وتخلُّق مُركب إنساني فائق النظارة لكليهما، تنتفي منه اتكالية "الحريم" عندما تسلم المرأة قيادتها للذكر المنفوخ بالقوة والسيطرة، وتتلاشى فيه الهيمنة الذكورية في أتون معادلة الحب القائمة بين شريكين متكافئين لهما تصورات جديدة للحب وللمجتمع الجديد الذي يريدان أن يتشاركا بناءه، ليؤكدا حقيقة تواصل الأجيال وتعاقبها في تحقيق الارتقاء السرمدي للمجتمع الإنساني.

سارا معا في الساحة باتجاه مدخلها الجنوبي على "شارع الدائري". وصل امتداد الساحة مسافة كيلومتر من نُصُب "الحكمة يمانية" في قلب الساحة وصولا إلى "سيتي مارت"، السوبر ماركت الكبيرة التي تقع على تقاطع "شارع الرباط" مع "شارع الدائري"، وبدأت بعض الخيام تنتصب من جهة "شارع الرباط" باتجاه "شارع الستين". الأضواء خافتة على امتداد الشوارع المحيطة بالمنصة، نتيجة تعمد الجهات الحكومية فصل التيار الكهربائي؛ لذلك يعمد أصحاب الخيام إلى مد أسلاك من أعمدة الإنارة في الشارع لخيامهم، في حين يعتمد أصحاب المحلات والمطاعم والكافيتريات على "المواتير" التي تعمل بوقود البنزين أو الديزل، لتوليد الكهرباء. أما المنصة فقد ترددت أخبار عن تبرع رجل أعمال بمولد كهربائي كبير يسمح بتشغيل أعمدة الإنارة وميكروفونات المنصة والخيام الخدمية حولها للجنة الأمنية ولجنة الغذاء واللجنة الإعلامية. راحت هذه

اللجان تتزايد بشكل كبير، وتحدث خلافات فيما بينها تنتهي بتغيير أحد أفرادها أو رئيسها. لم تكن هذه المشاكل موجودة أثناء تطوع الشباب في أول أيام الثورة للقيام بكل هذه المهام. لم يكونوا يرجون جزاء ولا شكورا، بل يرجون نجاح ثورتهم والقضاء على النظام الفاسد. أما اليوم فقد أصبح لهذه اللجان حساباتها الحزبية، وليس الثورية؛ فتتفاقم مشاكلها، كحال الأحزاب ومشاكلها في مجتمعات التخلف والاستبداد.

كان "شارع الدائري" عبارة عن خطين إسفلتيين في اتجاهين يفصلهما رصيف وسطي نُصبت الخيام في جانبيه على الإسفلت، تاركة مسافة بسيطة للجزء الباقي قبل الرصيفين الجانبيين اللذين تعلوهما محلات متنوعة على الشارع. لذلك لم يعد ممكنا السير بسهولة في الشارع باتجاهيه، إلا في ما تبقى منه من الجهتين. يلجأ المارة إلى وسائل كثيرة للسير؛ يصعدون الرصيف في أجزائه التي لا يزدحم فيها الباعة المتجولون، ثم ينزلون إلى الشارع حتى يأتي فوج من المارة أو جزء منهم يلحق بالمسيرة، أو يغادر الساحة بعد حضور أنشطة المنصة، أو جماعة تريد سماع ما يلقى من محاضرات في بعض الخيام.

يسير "كمال" إلى جوار "صبحية"، أحدهما خلف الآخر، من وراء الخيام، بسبب الازدحام. وصلا إلى نهاية الساحة من جهة اليمين، انتقلا إلى جهة اليسار وواصلا سيرهما. بعد بضعة أمتار توقفت "صبحية" أمام خيمة لفت انتباهها ما عُلق على واجهتها من الخارج: صورة بطل حصار السبعين يوما على صنعاء الشهيد "عبد الرقيب عبد الوهاب"، وإلى جوارها صورة الرئيس الشهيد "إبراهيم الحمدي". إنهما الصورتان اللتان كان يحملهما الرجل صديق والدها، فهل هذه خيمته يا ترى؟! التفتت إلى "كمال". فهم منها ما تريد. نادى بصوت عال أصحاب

الخيمة. لم يكن فيها أحد يجيب. سأل في الخيمة المجاورة عمن يسكن هذه الخيمة. أجابوه بأن الخيمة نصبها رجل مسن يدعى "عبده سعيد" وعلق على واجهتها هاتين الصورتين؛ قال إن الخيمة وطنه الجديد، ومع ذلك لم يبت فيها ليلة واحدة، وسمح لبعض الشباب بالسكن فيها، شرط أن يهتموا بنظافتها. إنها الخيمة الأولى التي ارتفعت على قاعدة خشبية فلم تدخلها مياه الأمطار، وهذه الفكرة أوحت لأصحاب الخيام المجاورة برفع خيامهم على قواعد فضل البعض أن تكون خشبية والبعض الآخر من الأحجار. لكنهم لا يعرفون له توقيتا عندما يزور خيمته ليتأكد من نظافتها أولا، ويتأكد من أن أحدا لم يلحق الأذى بالصور داخل الخيمة وخارجها.

تبادل "كمال" و"صبحية" النظرات. أشرق وجه "صبحية" وهي تسمع الاسم؛ إنه الاسم الذي أخبرها عنه "غمدان"، ابن صديق والدها ذات لقاء بينهما، والصفات تنطبق عليه، والصور دليل على ذلك! لم يتبق لها غير لقائه، بل البحث عنه. أصبحت قريبة من معرفة حقيقة سر اغتراب والدها عن بلده. أصبحت قريبة من الرجل الذي حدثها عنه والدها ولم يذكر اسمه معتقدا وفاته لانقطاع أخباره. أصبحت قريبة من أن ترتاح وتشعر بحقيقة صراع الرفاق في أحداث حصار صنعاء و"أحداث أغسطس" الدامية التي تلت فك الحصار عام ١٩٦٨ .

عادت "صبحية" مع "كمال" إلى الكافيتريا. شكرت له فكرته التي هدتها إلى الخيط الأول مما كان يقلقها. لم يرد عليها. اكتفى بهز رأسه، وبدحرجة نظرات الوله التي لم يعد قادرا على إخفائها حتى لو نهرته كعادتها. تركته وهو يعرف كم تشعر بالسعادة الآن، وراح يُمني نفسه بأحلام وآمال كثيرة معها ولها. يتمنى اليوم الذي يستطيع فيه الجلوس

أمامها ليحكي لها حكايته ويفضفض لها عن ماضيه، ويشاركها أحلامه وأمانيه.

•••

(٣)

صباح اليوم التالي وجدت "صبحية" نفسها تسير باتجاه الخيمة لتسأل عن "عبده سعيد". كان من في الخيمة نياما. لم تشأ إيقاظهم. عادت أدراجها باتجاه خيمتها واكتفت بالتلصص على المداخل المفتوحة لبعض الخيام التي تُركت لينفذ منها بعض الضوء والهواء؛ يشدها رؤية الأحذية أمام مداخل الخيام. تختلف في ألوانها؛ لكنها تتساوى في مدى اهترائها وقِدمها. تبدو "ساحة التغيير" هادئة في الصباح، كسولة في استيقاظها، وخاملة إن استيقظت. حتى المنصة تكتفي منذ الضحى ببث الأغاني الثورية، وأحيانا تفضل الصمت.

رأت "صبحية" وهي في طريقها إلى خيمتها "مهدي" واقفا إلى جوار عربته، يبيع "البلس التركي". سألته عن غيابه ليلة البارحة. حكى لها بنشوة المنتصر انشغاله بمساعدة نساء منطقة "مذبح"، التي يسكن فيها، وضرورة حسم أمر مبالغ بيع منتجاتهن والعودة بالصغار لأمهاتهم. وأمام ما جناه الصغار من مال ومتعة معا حكى لها باندهاش عما واجهه "يونس" في "ميدان السبعين" وخيبة أمله وحزنه على عدم المساعدة.

ينتشر الحب بين الفقراء كالوباء. ورغم شحة ما يملكون يجيدون فن العطاء لاستمرار بقائهم في الحياة بكامل طبيعتها.

انتهى "مهدي" من تقطيع التين لأحد الزبائن ثم بادر "صبحية":

- الأمهات خائفات على أولادهن من الساحة، بعد رصاص جمعة الكرامة. ما رأيك لو يجوا الجمعة القادمة مع يونس ويكذبوا على أمهاتهم؛ لأن الساحة صارت تنعم بأمان يوم الجمعة؟!

احتارت في ردها. لحظات وحسمت أمرها:

- الكذب أحيانا مفيد!

رجته فقط أن ينصح الصغار بالبيع داخل الساحة وعدم الحماس للسير مع المسيرات بعد الصلاة، وأن يعيدهم هو إلى منازلهم. ثم سألته:

- هل بلسك بارد لتُصبحني؟!

ردّ عليها مبتسما:

- وهل يؤكل البلس إلا بارداً يا أستاذة؟!

رغم أنها طلبت منه أن يناديها باسمها؛ إلا أن "مهدي" يفضل أن يسبق اسمها "أستاذة". ستأكل "صبحية" التين بلذة هائلة. سيتوهج وجهها لمرور ذكرى صباحات "حميد" والتين الذي كان يشتريه لها منذ أن علم أنها تحبه. ستوقظ من جوفها ابتسامة دفينة وهي تتذكر حديثه عن معنى صبوح "البلس" الفاضح بين المتزوجين من سكان المدينة العتيقة على أنه معاشرة زوجية صباحية سريعة لكنها تقطر لذة. "مهدي الريمي" يقطع حبل أفكارها ويستعرض معلوماته:

- تعرفي يا أستاذة أن "البلس" هذا فيه جن؛ لأنه يطلع في أي وقت وفي أي مكان؟! لكن حق خولان جني بطيبة نفس؛ لأنه طعيم.

ضحكت "صبحية" من كلمة "جن"، وردت عليه:

- هذه خرافات يا مهدي! لا يوجد جن في أي نبات! البلس نبتة يناسبها جو صنعاء؛ لأنه معتدل، ولا تحتاج ماء كثيرا، فأينما وجدت أرضا تشبثت عروقها بها، ولأنه يمكن زراعته طول السنة، فتصديره إلى الخارج مربح، هناك دول تطلبه بشدة.

هزَّ لها رأسه معبرا عن فهمه لما قالته.

انتهت "صبحية" من أكل التين وتوجهت إلى الكافيتريا. هناك وجدت من سبقها؛ زميلة لها في الساحة دائما ما تراها تمسك بكاميرتها ذات اللون الأسود والحجم الكبير وتلتقط صورا لكل من في الساحة من وجوه ورقصات وملابس. هكذا كانت الساحة، غنية بوجوه مرتاديها من كل المناطق اليمنية، مزهوة باختلاف جمال ملابسهم، متباهية بوجوه نسائها وألوان مقارمها على الشعر. قبل سيطرة الأحزاب على الساحة كانت وجوه النساء غالبة ومجاهرة بثوريتها وفاعلة في الساحة. ثم تحولت المسيرات إلى اللون الأسود بقرار خروج أو بقاء حزبي.

"بشرى عبد الرحمن"، تشبه "صبحية" في وجهها الطليق وغطاء شعرها الملون، تحب التصوير لدرجة حضورها معظم المسيرات. تخوض مناورات اختيار زوايا عديدة لتحصل على صور متفردة وحقيقية من جسد المسيرة النابض بالثورية. تعتلي منازل، وتقف على سيارات مكشوفة لتختار تلك الزوايا، كأنها تنفذ التقاط الصورة التي في رأسها وقضت الليل تتخيلها. هذا صدق الفنان الذي كانت بشري تعبر عنه ويصل إلى قلوب عشاق صورها في ساحة التغيير.

باغتتها صبحية والابتسامة على وجهها:

- ماذا تفعل بشرى العزيزة في هذا الضحى الجميل؟! لا بد أن هناك مناسبة!

هذه هي المرة الأولى التي تجلسان فيها معا في الكافيتريا وتتحدثان. ستضحك بشرى للسؤال بتلقائية معروفة عنها. تقول لصبحية:

- اشربي معي كأس عصير ليمون وأنا سأجيب على سؤالك، فهذا الصباح لي، للاستمتاع بالساحة وهدوئها وتنفس نسائم الجو الغائم الذي يجود به شهر أبريل لصنعاء.

بعد أن تناولتا عصير الليمون أخبرتها "بشرى" أنها تنتظر وصول مجموعة من النساء أطلقن على تكتلهن اسم "تحالف وطن"، سيقدمن إلى الساحة بغرض تنفيذ حملة نظافة. تزايد عدد الخيام، ونما تدفق الثوار على الساحة، صعّب عملية نظافتها، لذلك يردن إرساء بعض قواعد النظافة بمبادرتهن، وأنها جاءت لتوثق ذلك بالتصوير. شهقت "صبحية" من الفرح بهذه المبادرة، وقالت إنها ستنضم إليهن حال وصولهن.

هكذا تحققت أمنية كمال، وأصبح لصبحية صديقة. ستنسجمان في الحديث وستتلاقى أفكارهما سريعا. ستقومان بنشاطات مختلفة في التوعية، وفي رفض بعض الممارسات العدوانية ضد الثوار في الساحة من قبل الأحزاب. ستُنظمان برامج للمنصة مفتوحة على مشاركة الثوار لكل ما يذكي فيهم روح الحياة. ستسيران في المسيرات وستهتفان بإسقاط النظام مرارا، ومعا ستناهضان وجود الأحزاب واحتلالها للمشهد الثوري بل سرقته من الشباب. ستكونان صورة للمرأة المختلفة في الساحة، سيساندهما البعض من النساء المؤمنات بقضيتهن وبالدفا ع عن وجودهن ككيان حر ومستقل، لا كتابع كما تفعل نساء الأحزاب.

انسجمت "صبحية" و"بشرى" في الحديث وفي مشاكسة المارة من أمام الكافتيريا، ودعوة أصدقائهما للانضمام إليهما، تحرضان وبشجاعة كل آسن في تراكم مجتمعي لا يسمح بجلوس المرأة في الكافتيريا. قرب الظهيرة انضم إليهما "كمال". أبدى اهتماما كبيرا ببشرى. احتفى بجلوسه معها وكأنها أميرة الساحة، التي يخطب الجميع ودها. تلقائيتها وجلجلة ضحكتها وملابسها التقليدية تجعلها قريبة من القلب. سيحدثها أن هناك من يستغل صورها ويقوم بنشرها باسمه في الإعلام. ستُطلق بشرى زفرة عميقة وتقول:

- رغم أني أكتب اسمي على الصور التي ألتقطها إلا أن عملية قصه سهلة من أجهزة الكمبيوتر. لكن لا يهم. المهم أن ينتشر أكبر كمّ ممكن من صور ثورتنا، عبري أو عبر السرقة.

قهقه ثلاثتهم؛ فقد كانت إشارة "بشرى" ذكية، التقطتها "صبحية" و"كمال"، فثلاثتهم يعتبرون أن هناك أشياء كثيرة سُرقت في الثورة، وأن هناك من أراد التطهر وغسل قذارة أفعاله وماضيه السيء بانضمامه لها من الأحزاب والقادة وكبار الموظفين في الدولة.

شعرت "صبحية" بأن "كمال" على غير عادته معها؛ قلّ اهتمامه، وقلّ وهج نظراته! سألت نفسها: هل بسبب وجود "بشرى"، أم أن هناك سببا آخر؟! ورغم اهتمامها به وبتوجيه الحديث إليه إلا أن هناك ما خَبَا في ذاته تجاهها. هذا شعور المرأة الذي لا يمكن أن يُخطئ، وغريزتها الفطرية بشم وتذوق سلوك الرجل تجاهها.

كان كمال قد قرر أن يتوقف عن محاولة التلميح لصبحية بإعجابه، وأن يحترم رغبتها. سيرغم نظرات الوله بها أن تتحجر في مآقيه. سيحسم كلامه معها على قدر الموضوع. سيطمئن عليها وسيمارس بينه وبين نفسه ما يريد دون أن تعرف أو تشعر بما يكنه لها. سينسحب من أرض المعركة كفارس نبيل أبدى له الخصم إشارة التوقف عن المبارزة.

احتارت "صبحية" في تفسير ما فعله، ولم تجد له تفسيرا؛ لكنها في الوقت ذاته شعرت بالسعادة، فقلبها ذاب جليده وبدأت أوتاره في العزف، وبدأ يصل إلى سمعها بل إلى حواسها لحن جميل جعلها في هذه اللحظة تُربك "كمال"، فقد اخترقه صدق اللحظة من وجهها الذي لا يخفي شيئا. ستغادر بشرى، وسيطلب كمال مرافقتها، تاركا صبحية غارقة في حيرتها.

●●●

(٤)

الجمعة، ٨ أبريل، سيكون مختلفا على "يونس" وصغار "حارة علي محسن". كل شيء مختلف في حياة هؤلاء الصغار؛ ليسوا مثل بقية الأطفال الذين يستيقظون صباحا للذهاب إلى المدرسة، ويستمتعون بإجازتهم في حديقة أو في مشاهدة برامج ومسلسلات الأطفال. لم يحدثهم أحد عن التعليم أو عن النظافة. لا يعرفون ماذا يعني الانتماء للوطن وكيف يعبرون عن هويتهم اليمنية. كل من حولهم يطالبهم بالعمل وتوفير المال؛ لذلك يعتبرون المال هو الحياة، وملء البطن بالطعام وستر الجسد بالقماش هو غايتهم الوحيدة. تحولت حقوقهم في الوطن إلى أحلام تُنهك أجسامهم الهزيلة وعقولهم الصغيرة. ما أكثر الأطفال في "سوق علي محسن"! وما أقسى ما يقومون به من أعمال تحني ظهورهم الغضة، وتحرق بشرتهم الناعمة، وتترك على وجوههم سحنات وندوب معارك خاضوها لنيل حقوقهم. من لا يعمل لا يكسب في السوق. ومن لا ينهش من حوله يأتي من ينهشه بقوة الجسد أو المال. ومن لا يعمل ليكسب المال من الصغار فهو منبوذ من الأم والإخوة، حتى من الأصدقاء. هم باختصار رجال صغار، وعندما تأتي مرحلة الرجولة دون تحقيق اليسير من الحلم، يغادرونها طائعين إلى الجنون أو النوم أو السرقة والاتكال على الغير، يعيدون إنتاج ذواتهم في الأبناء، ويستمر الدوران في حلقة مفرغة من الحياة؛ إلا من شظف العيش المتشبث بهم بكل ما أوتي من قوة. لذلك لم يقاوم أحد منهم مقترح "يونس" الكذب على الأمهات، وهو أول الفاعلين، سيكذب على أمه لأنه لن يتخلى عن حلمه بسهولة ويجب ألا يتخلى أيٌّ منهم عن حلمه.

"أحلامنا لن تتحقق إلا بالمال، والفرصة التي أمامنا اليوم قد لا تتكرر. قد تنتهي الثورة غدا أو بعد أسبوع أو شهر، فهل نترك هذه الفرصة تذهب منا دون أن نغتنمها ونجني ما نستطيع من المال؟!" هذا ما سيردده عليهم "يونس" في اجتماع لهم مساء الخميس مع "مهدي" الذي أكد لهم أنهم رجال، وأن الكذب ليس حراما إذا كان له هدف عظيم كالهدف الذي يسعون إليه، وأن الفرص لا تتكرر. بانت على وجوههم علامات الرضا وهزوا رؤوسهم بالموافقة عندما أكد لهم "يونس" و"مهدي" ألا خطر على حياتهم، وأن الساحة أصبحت آمنة، وأن هناك غيرهم من "حارة مذبح" وسيكونون فريق عمل واحدا.

ستقتنع الأمهات في "حارة سوق علي محسن" بأن الزحام الشديد في "ميدان السبعين" منع الصغار من إيجاد مكان مناسب لبيع منتوجاتهن، لذلك عادوا خائبين يوم الجمعة الماضي، وأن البعد عن خطر الزحام كان دليلا على ذكاء "يونس"، لكن هذه الجمعة سيصبح لديهم أماكن اختاروها على أرصفة المداخل وهي آمنة، وأنهم سيفرشون عليها بضاعتهم، وهذا لن يعرضها للأذى؛ بعد عنائهن في توفير المواد الخام والعكوف على حياكتها أمام شحة مواردهن.

أما محبوبة "مهدي"، "حبيبة"، فقد استبسلت في إنجاح مشروعها. مرت على معظم منازل "حارة مذبح". ابتكرت للنساء "غُرز" جديدة للخياطة، واشترت "خرز" كريستال بالألوان الأحمر والأبيض الشفاف والأسود لشك "المسابح". ما تفعله ليس فرصة لكسب المال للعائلات المعدمة في "مذبح"؛ بل فرصة ستمكنها أيضا من رؤية حبيبها "مهدي"، ولو خطفا! يكفي أن يكون في ذلك الجزء البسيط من حوشهم لتشعر بوجوده وقربه؛ هو الحب الذي يغمرها ويغمره، كسحابة تظللهما في صيف حياتهم الحارق.

في صباح يوم الجمعة، سيلتقي "يونس" و"مهدي" مع الصغار. كلٌّ سيرتب مع مجموعته ما عليه. سيتركون تفاصيل المرور إلى حين وصولهم الساحة، لكن في طريقهم حدث ما لم يتوقعوه، وسيغير من خطة سيرهم. لقد انتقلت الصلاة من "ساحة التغيير" إلى "شارع الستين". بدأت اللجان الأمنية في فرض سيطرتها على المكان المقرر إقامة الصلاة فيه والشوارع المؤدية إليه. كل من يدخل من جهات "شارع الستين" الأربع يُفتش؛ جهة "شارع مذبح"، جهة "شارع الجامعة"، جهة "شارع الستين الجنوبي" و"الستين الشمالي" الذي سيتفق "مهدي" و"يونس" ومن معهما على أن يلتقوا عنده. لن يربك تغيير موقع الصلاة "مهدي الريمي" كثيرا؛ لأنه يعرف الشارع جيدا؛ بل على العكس، لقد شعر بالفرحة أكثر؛ لأن الشارع عريض، وألا خطر على الصغار. راح يشرح لكلّ منهم خط سيره، قسم الصغار إلى أربع مجاميع مشتركة من صغار حارة "سوق علي محسن" وصغار "حارة مذبح".

شعر الصغار بالراحة عندما انتقلت الصلاة إلى "الستين"، فهم لن يذهبوا إلى "ساحة التغيير" كما طلبت منهم أمهاتهم. من قال إن الصغار لا يهتمون بالكذب على أمهاتهم؟! كان ذلك يؤرّقهم رغم قسوة بعض الأمهات؛ إلا أن تحذيراتهن عالقة في عقولهم الصغيرة التي زرعن فيها أن "الأم ترى ابنها حتى وهو غائب عنها! الأم تعرف عندما يكذب ابنها، وتصلها رائحة يده عندما يسرق!"؛ لذلك يعترف أي صغير لأمه بخطئه قبل أن تحدثها عنه العصافير.

هم لم يكذبوا اليوم، وسيتحدثون لأمهاتهم بثقة، أن الشوارع المقطوعة منعتهم الوصول إلى "ميدان السبعين"، وباعوا منتجاتهم في "شارع الستين".

عند اقتراب الجميع من مكان الصلاة حدثت لهم مفاجأة أخرى، فلم يكونوا وحدهم من فكر في بيع منتجاتهم في ساحة الصلاة. سبقهم الكثير من الأطفال والشباب، والفتيات أيضا في المكان المخصص لصلاة النساء، لذلك جمعهم "مهدي" و"يونس" مجددا وراحا يلقيان عليهم تحذيرات جديدة، لعل أهمها عدم الاحتكاك مع الباعة الآخرين، والانتباه لحقائب جمع المال. خلع معظمهم معاطفهم التي تعلو أكتافهم وأدخلوا "الشنط" تحت آباطهم وأحكموا الخناق على بضاعتهم بين أيديهم وانتشروا بين صفوف الناس، الذين لم يتوقف تدفقهم حتى صدوح أذان الظهر.

انتقلت الصلاة إلى "شارع الستين" لأنه أوسع من "ساحة التغيير"، خاصة بعد تزايد عدد الخيام وضيق مكان الصلاة. ومن نهاية جسر "مذبح" باتجاه "الستين الجنوبي" يتم إعداد منصة لخطيب الجمعة وكاميرات التصوير التليفزيوني والفوتوغرافي، على اليمين يرتص الصحفيون ومراسلو القنوات التليفزيونية الفضائية على تلة مرتفعة تمكنهم من رؤية الساحة التي تصدح في أرجائها الأغاني الثورية منذ العاشرة صباحا، ثم ترتيل القرآن الكريم قبل الأذان.

اعتلى خطيب "جمعة الانتصار للشعب" المنصة، وارتفعت أعناق الصغار، وهم مشغولون بالمرور على الصفوف لعرض مبيعاتهم للمنصة. شدهم صوت الخطيب الجهوري. لم يفهموا كثيرا من حديثه؛ لكنهم وضعوا بضاعتهم أرضا، وكما علمتهم أمهاتهم رفعوا أيديهم نحو السماء وهو يدعو للشهداء بالرحمة، وأن الانتقام الإلهي من قاتليهم آت لا محالة. عند إقامة الصلاة اختار كلٌّ منهم طرف صف المصلين الذي يوجد إلى جواره ليضع بضاعته أمام ناظريه ويصلي في الوقت ذاته. لم

تستهوهم كثيرا الحركات التي كان يفعلها المصلون بعد الصلاة بناء على توجيهات الصوت القادم من المنصة، بل اعتبروها مضحكة، وبالطبع لم يعبروا عن ذلك، خوفا من ردود أفعال المصلين؛ لكنهم أسرعوا الخطى للوقوف في طريق اتجاه مغادرتهم من الجهتين الشمالية والجنوبية لشارع الستين.

كانت الحركات التي يقوم بها المصلون، من النساء والرجال، بعد الصلاة، عبارة عن رفع الأكف نحو السماء والدعاء على النظام وأركانه بالهلاك لتنتصر ثورتهم، والدعاء بالرحمة على الشهداء. تتشابك فيها أيديهم أولا، ثم تتشابك جميع أيادي المُصلين والمُصليات، كل على حدة، ويتم خلال ذلك التقاط الصور لهذه الحركات. في الجهة اليسرى من المنصة، وعلى بعد نصف كيلومتر تقريبا، يوجد مكان النساء. أثناء الصلاة تكون "بشرى" منهمكة في التصوير ومحاولة التقاط صور هذه الحركات من أكثر من زاوية. أما "صبحية" فرغم أنها ليست من اللجان التنظيمية ليوم الجمعة، إلا أنها تساعد في ترتيب الصفوف، وتجهيز أكياس القمامة لرفع مخلفات بعد الصلاة، من قوارير الماء البلاستيكية والأكياس الملقاة على الأرض نتيجة حضور الأطفال مع الآباء والأمهات. وبإعجاب كانت ترقب عن بُعد "مهدي" و"يونس" كأمّ رؤوم تخشى على صغارها من فشل تجربتهم. هي ترقبهما وهما يرقبان الصغار في كل تنقلاتهم بين الصفوف. هي تتمنى لهما نجاحا باهرا، وهما يتمنيان للصغار بيع كل منتجاتهم والعودة للأمهات بما يسر قلوبهن ويزيد من شعور الصغار بأنهم أصبحوا رجالا قادرين على المساعدة التي تنهك تفكير الأمهات لزيادة دخلهن. هما يستظلان تحت جسر "مذبح" في انتظار توافد الصغار عليهما كما اتفقا معهم ليعود كلٌّ إلى منطقته

وهي تمسك بمظلتها وسجادتها ومسبحتها وتعود إلى خيمتها في الساحة.

كانت "صبحية" وهي تتوجه إلى الساحة برفقة والدتها التي تحضر للصلاة يوم الجمعة فقط ومن ثم تعود إلى منزلها. أما "صبحية" فمنذ شهرين وهي تبيت في خيمتها في "ساحة التغيير" وتعود إلى المنزل في أوقات تحتاج فيها لأن تغتسل أو تغسل ملابسها. فشلت الأم في أن تثنيها عن المبيت في الساحة؛ فقد كان حديث "صبحية" عن الثورة والتغيير والوطن القادم الذي تحلم به، بل الذي حلم به والدها، أكثر تأثيرا عليها، فلزمت الأم الصمت واكتفت بمشاركتها صلاة الجمعة والسير في بعض المسيرات، فلم تعد صحتها قادرة على أن ترافق ابنتها لتنام في العراء حتى لو كانت خيمة.

•••

(٥)

عرج "مهدي" في صباح اليوم التالي على خيمة "صبحية" الفنية، يريد إخبارها بانتصاراته هو و"يونس" وأن معظم المنتجات التي اشتغلتها نسوة حارتي "سوق علي محسن" و"مذبح" قد بيعت. فرح الأمهات بإنجاز الصغار كان كبيرا، أنساهن معاتبة أو عقاب البيع في "شارع الستين" وليس "ميدان السبعين". "يونس" باع كل ما اشتغلته أمه "سعادة" وأعطته مبلغا مما باع ليضمه لصندوق أحلامه لشراء محل الدجاج. بقية الأمهات تحمسن لزيادة عدد منتوجاتهن للجمعة القادم، ومنافسة نساء "حارة مذبح". "مهدي" كانت سعادته لا توصف وهو يرى الفرحة تعصف

بعيني محبوبته، "حبيبة"، لنجاح مُخططها. موافقة "مهدي الريمي" على أن يحاسب أخاها رغم صغر سنه في المرة السابقة، ألقى في قلبه الطمأنينة وسمح لشقيقته بالبقاء معهم وإعداد كشف الحساب واستلام ما تبقى من الأطفال ومحاسبتهم. لم يلحظ غير "مهدي" يدها المرتجفة وهي تكتب، وصوتها الهارب منه بحديثها مع الصغار وتشجيعهم، ونظرات عينيها الفرحة، هي كل ما استطاعت تسريبه له كل فينة وأخرى.

كان "مهدي" يريد أن يحدث "صبحية" عن كل هذا، وأكثر؛ عن فرحة وتفاخر أمه بأن ابنها أصبح مشهورا في "مذبح" بأنه يساعد جيرانه ويحافظ على أولاد حارته، وأنها المرة الأولى التي لم تسأله عن شقيقه!

لكن هذا لم يحدث، فقد وجد "صبحية" و"كمال" و"بشرى" مشغولين بمبادرة قررت "صبحية" القيام بها صباحا، حيث طلبت من "بشرى" و"كمال" إعداد لوحة ورقية كبيرة ووضعها على قائم والكتابة عليها: "أخي، أختي، عبر/ ي عن ثورتك"، ويُطلب من كل من يمر بالكتابة أو الرسم على اللوحة، على أن يتم وضع علبة بها مجموعة من الألوان والأقلام المختلفة جوار كل لوحة ليبدأوا في المبادرة عصر اليوم.

عندما رأت "صبحية" "مهدي"، تبادر إلى ذهنها أن تبدأ الصباح بإحدى الأوراق كتجربة، وأن يكون مهدي هو من يطلب من المارة ذلك.

ابتسم لها مهدي ونظر إلى عربته المليئة بالتين وقال لها:

- والبلس حقي؟!

ابتسم ثلاثتهم، واقترحت "بشرى" أن يبيع التين ويطلب من المارة الرسم أو الكتابة كما يحلو لهم؛ لأن زائري الساحة فترة الصباح محدودون. أيّد "كمال" الفكرة. وانتظر ثلاثتهم رأي "مهدي"! أخفى

"مـهدي الريمي" تردده بنظرات زائغـة إلى لوحـة الرسم الشـامخـة على حاملها الخشبي والألوان المستكينة إلى جانبها وحسم أمره بالاعتذار:

ـ ما اقدرش أحاكي الناس! مش فاهم ايش تشتوا!

كان صوته خجولا، من عدم فهمه للفكرة. حاولت "صبحية" امتصاص الموقف لتخفف عنه، وتجاوزته بطلب إلزامي من مهدي:

ـ إذن ستبيع بلسك هنا، أمام الخيمة وتتعلم مني ومن الناس، ويمكنك بعدها الذهاب إلى عربتك الأخرى.

ولكي لا يكرر "مهدي الريمي" اعتذاره، تنحى جانبا تحت شجرة على الرصيف الأوسط، يفصله عن خيمة "صبحية" نصف طريق لمرور المشاة. شجرة ليست وارفة؛ لكنها تفي بالغرض في وقاية "مهدي الريمي" وتينه من بعض أشعـة شمس صنعـاء التي تبدأ حرارتها من الضحى حتى قريب العصر. أوقفت "صبحية" كل من مر من أمام خيمتها وطلبت منه أن يعبر عن ثورته بما يشاء، بالكتابة أو بالرسم. قُوبل طلبها بالدهشة للمرة الأولى؛ لكن رؤية المحاولات الأولى شجعت البقية على التفاعل بالكتابة والرسم. "كمال" و"بشرى" يرقبان ما يحدث من خلف مكتب صغير في عمق الخيمة تضع عليه "صبحية" ومن ينوب عنها بعض المتعلقات الشخصية. ورغم صغره يستخدم أحيانا كطاولة اجتماع عندما تريد أن تتحدث مع مساعديها في الخيمة عن تنفيذ مبادرات فنية في الساحة، مثل تلك التي تقوم بها الآن، أو الاتفاق مع محاضرين عن الفن والحركات الفنية وأشهر الأعمال العالمية. تنتفض "بشرى" من مقعدها حاملة الكاميرا لتصوير وتوثيق الفكرة منذ أن كانت لوحة بيضاء حتى امتلأت بالكلام والخربشات والرسومات التى لا يفهمها إلا أصحابها .

مهدي أيضا يرقب ردود أفعال المارة لطلب صبحية، خاصة ضحكات الصغار التي قابلوا بها طلب صبحية وحماسهم في التعبير بالتنقل بين أجزاء اللوحة . كانت صبحية مبدعة في إقناع كل من مر بجانب الخيمة. لم تفشل إلا مع رجل كانت لحيته كثيفة، نظر إليها باستغراب وقال:

ـ الثورة أكبر من هذه الشخبطة. أنصحك بتحويل وظيفة الخيمة هذه؛ لأنها تشوه الثورة؛ فالشخبطة هذه حرام.

سيكرر كلمة "حرام" ثلاث مرات، وتصل نبرة صوته في الثالثة أعلاها، ليلفت النظر إليه، كما يفعل رجال الدين في خطبهم. لكن هذا لم يثنِ "صبحية" عن الاستمرار. استمعت إليه بكل إنصات وابتسمت في وجهه وانتظرت مغادرته لتقنع التالي. "بشرى" و"كمال" و"مهدي" يرقبون ردة فعلها بمنتهى الإعجاب. أما أحد الأطفال الذي لم يتجاوز عمره السابعة، وشقيقته الأكبر منه بعامين ربما، فقد طلبا منها طلبا غريبا لتلبية ما تريد، وعندما وافقت اتضح لها أنهما لا يجيدان القراءة والكتابة؛ لكنهما قاما بما أدهشها: أخذا لونين مختلفين، وفتحا أنبوبة اللون من الداخل وسكبا محتواها على كفيهما، وبمنتهى المهنية طبعا اللون على اللوحة في مكان فارغ غير ممتلئ بالكلام أو الرسم. ما فعله الطفل وشقيقته أذهل الجميع، لدرجة أن "بشرى" ستنهض من مكانها وتصفق لهما، و"كمال" سيقول من مكانه: "إبداع!"، أما "صبحية" فتقول لهما: "سأنفذ وعدي وأحقق طلبكما بالغداء على حسابي".

الساحة تعج بأطفال يشبهونهما. المدرسة لهما حُلم لم يتحقق؛ لأنهما لا يملكان قيمة الحقائب والدفاتر كما قالا لصبحية، والطعام الوفير أمنية يتمنيان تحقيقها كل يوم أمام الأفواه الكثيرة في المنزل؛ لذلك منهم من يبيع الماء والمناديل الورقية، ومنهم من يجمع ويبيع القوارير والعلب

البلاستيكية الفارغة. لينتهي يوم كل واحد منهم بمبلغ قد لا يتجاوز الخمسمائة ريال.

في الظهيرة ستكون اللوحة مترعة بشتى أنواع التعبيرات التي فاقت خيال ثلاثتهم، ومعهم "مهدي"! هناك من كتب ومن رسم ومن شتم ومن مدح. إلا أن كفي الصغير والصغيرة كانتا الأكثر تعبيرا. سيعلو أذان الظهر في أرجاء الساحة وستعلن "صبحية" نهاية العمل في اللوحة. ستنزعها من الحامل وتطلب من أحد الشباب تعليقها على جدار الخيمة وستلتقط ورقة بيضاء وتنصبها على الحامل لفترة بعد العصر. ستطلب من "كمال" و"بشرى" و"مهدي" الانضمام إليها لتناول الغداء مع الصغيرين. سيعتذر مهدي؛ لأن عربته الأخرى تنتظره بعد أن باع كل التين الذي لديه سريعا بفضل اختيار صبحية لهذا المكان المدهش أمام خيمتها الفنية. وسيبادر كمال لدعوتهم إلى الغداء؛ لكن في "سوق الملح" في صنعاء القديمة.

ستقابل "بشرى" طلبه بنوع من الاهتمام. أما "صبحية" فقد قابلته بالدهشة؛ لم تتخيل رجلا آخر غير "حميد" يمكن أن يوجه لها دعوة كتلك. في قلب صنعاء القديمة! نظرت إليه وقالت:

- إذن أنت تعرف صنعاء القديمة؟!

رد عليها بمنتهى الثقة:

- أكثر من أهل صنعاء أنفسهم!

ولتهرب من دعوته تحججت بأن الوقت ضيق للذهاب والعودة إلى الساحة، ناهيك عن ظروف الصغار الذين لا تريد أن تتحمل مسؤولية خروجهم من الساحة، لذلك اقترحت المطعم المقابل للكافتيريا. فرح الصغيران باقتراحها، وتوجه خمستهم إليه.

انصب اهتمام "صبحية" في المطعم على الصغيرين، وانصب اهتمام "كمال" على "بشرى". همسه بالحديث لها ثم جلجلة ضحكاتهما عندما تكون "صبحية" في قمة انشغالها بأكل الصغيرين، كانت تجعل منها أذنا كبيرة تحاول التقاط ما قاله "كمال"؛ لكنها تفشل؛ لمقاطعة الصغيرين لها ورغبتهما في الأكل والحديث معا. لم يكن ما يعتريها شعورا بالغيرة من "بشرى"؛ لكنه رغبة في مشاركتها ما يقوله "كمال". تساءلت صبحية في أعماقها: هل ما يفعله كمال عن قصد؟! هل يريد تأجيج غيرتها بعد تلميحها له بالصد؟ لا تعرف! لكنها التزمت الصمت واستمرت في الحديث مع الصغيرين حتى ينتهيا من تناول الطعام.

•••

(٦)

دغدغت دعوة كمال مشاعر صبحية تجاه صنعاء القديمة. شعرت كم تفتقدها وتفتقد مرسمها الذي لم تزره منذ ما يقارب الشهرين! بدأ "حميد" ينسلخ من وجدانها تدريجيا. ها هي تهدم حصونه المنيعة التي حاصرت تفكيرها. غاب عن ذهنها وجوده كشريك في هذه اللحظة وهي تحاول أن تجد فسحة من وقتها لزيارة صنعاء والسير في أزقتها، وتناول قهوتها لدى "طه" في "سمسرة وردة". خطر على بالها أن تدعو "بشرى" لرفقتها فجرا، وقتها الأثير الذي تتنفس خلاله عبق المدينة وهي تنفض عنها خدر النوم، ويسري في عروقها غبش الضوء بخيوطه الفضية الناضحة بهدوئها والباعثة على الطمأنينة.

في المساء وأثناء لقائهم اليومي في الكافيتريا قررت أن تدعو ثلاثتهم: "كمال"، "بشرى"، و"مهدي". ناوشها "كمال" بقوله إنه من دعاهم

أولا وعليها أن تلبي دعوته ليلبي دعوتها، وألا تسرق أفكاره مجددا. ستؤكد "بشرى" ما قاله، وسترتفع ضحكتهم. أما "مهدي الريمي" فقد كان مبهوتا بالدعوة؛ فهو لم يزُر "صنعاء القديمة" في حياته؛ لم يكن له بها حاجة منذ قدومه من محافظته "ريمة"، والاستقرار في منطقة "مذبح" ومن ثم العمل في "سوق علي محسن".

ـ دعوتك كانت لتناول الغداء ودعوتي تناول قهوة الفجر! فلنبدأ بدعوتي!

هكذا ردت صبحية على كمال، ووجهت كلامها وكأنه قرار وعليهم تنفيذه، ثم وجهت كلامها لمهدي:

ـ سننتظرك في الخامسة صباحا يا مهدي، هنا أمام الكافيتريا.

عند عودة "مهدي" في ذلك المساء، سيمر من أمام منزل محبوبته، "حبيبة"، سيدعوها لمرافقته. ستدهش لجرأته ولصعوبة خروجها في ذلك الوقت.

يعلم "مهدي" أن "حبيبة"، مثله تماما، لم تغادر حارتها في منطقة "مذبح" إلا إلى الحارات المجاورة أو إلى مدرسة البنات في أسفل الجبل، وأن "صنعاء القديمة" ليست سوى صور ومناظر تراها على شاشة التليفزيون، و أن ما يطلبه منها هو مغامرة خطرة لفتاة؛ لكنه يركن إلى أن المغامرة قد تنجح، بسبب الوقت المبكر ونوم أهلها في ذلك الوقت، وأنها ستكون في حمايته. يستحق حبهما الوليد هذه المجازفة. وليقنعها أكثر قال لها:

ـ سنشتري ما تحتاجه النساء لشغولاتهن من خرز وقماش وفتلة من سوق الجملة هناك كما عرفت، ونستفيد نحن والنساء من فارق السعر الذي يذهب لأصحاب المحلات.

كان صوتاهما خافتين، لأن "مهدي" في الشارع وهي على طرف باب حوش منزلها الصغير. أكدت له أن يمر وإذا استطاعت فسترافقه.

لم يكن "مـهـدي"، الذي لم ينم في تلك الليلة، بل أربعتـهم: "مـهـدي" و"كمال" و"صبحية" و"حبيبة". قد تكون الفرحة هي السبب، وقد يكون الخوف هو السبب، وقد يكون الخوف والفرح معا! بذرة الحب التي في قلوب أربعتـهم بحاجة إلى رعاية لتنمو، حتى لو حاول كلٌ منهم أن يعاملها بطريقته الخاصة.

وجدت حبيبة أن العذر الذي اقترحه مهدي لخروجها مناسب. خشيت مصارحة والدتها حتى لا ترفض؛ لكنها أقنعت شقيقتها بأنها ستكون في حماية مهدي. وفيما لو عرفت أمها فإن النتيجة سترضيها، لخدمتها نساء "مذبح". أكدت لها عودتها قبل استيقاظ الجميع، لتطمئن.

حلم "مـهـدي" بهذه اللحظة طوال الليل. وفي الخامسة فجرا وجد "حبيبة" تنتظره أمام منزلها، ترتدي ستارتها الملونة تغطي بها جسدها، وتضع اللثام على وجهها. سبقها في المشي، وتبعته حتى لا يعرف من يراهما أنهما معا. بعد عبور عدة أزقة في هدوء فجر منطقة "مذبح" تريث "مهدي" قليلا حتى لحقت به حبيبته، التي تمسك ستارتها الملفوفة على جسدها بيدها اليسرى. اقترب منها وأمسك بيمناها، ضغط عليها فشعر برجفة لذيذة في يدها. أطلق زفرة خفيفة وبادرها:

- صباح الخير!

لم تردّ عليه. اعتقدت أنها لو ردّت عليه فقد يسمعها سكان "مذبح النيام في تلك اللحظة. كان صمتا لذيذا، استمرا بالسير في أزقة تمنيا ألا تنتهي؛ لكنهما وجدا نفسيهما في قلب "جولة مذبح" الخالية من أي مواصلات عامة. أعاد ضغطه على يد حبيبته وكأنما يقول لها وداعا.

عبرا الشارع وأطلقا ساقيهما للريح باتجاه الساحة. كان يتقدم حبيبته بخطوات، وهي تجتهد لمجاراته. وصلا وقد أوشك الثلاثة على المغادرة. انفرجت أسارير صبحية وهي ترحب بمهدي وتشكره على تلبية الدعوة. ارتبك. نظر إلى حبيبة وقال لها:

ـ الأستاذة صبحية التي أخبرتك عنها.

ثم نظر إلى صبحية:

ـ حبيبة، صاحبة فكرة المشغولات، وسترافقنا لتشتري احتياجات النساء من محلات بيع الجملة في سوق الملح، إذا كنت تعرفين موقعها.

رحب بها ثلاثتهم. نكست "حبيبة" رأسها خجلا، وربما شكرا. هيئة "حبيبة" وهي مرتدية الستارة واللثمة حرض "بشرى" على إخراج الكاميرا لتلتقط لها الصور. استكانت "حبيبة" لعدسة "بشرى" وهي مطمئنة؛ فعيناها الظاهرتان يمكن أن تكونا عيني إحدى مائة امرأة تشبهها؛ المهم أن جسدها ووجها لا يظهر منهما شيء ولن يعرف أحد من هي. تذكرت "صبحية" كم تستهويها هذه القطعة الملونة، "الستارة"، وكثيرا ما رسمت ألوانها المُزينة لأجساد نساء من مدينتها المعشوقة!

تذكرت صبحية، في تلك اللحظة، "حورية" عشيقة حميد، وجمال انسياب الستارة على جسدها النصف طويل والنصف رشيق. لم ترَ جاذبية لامرأة كحورية وهي ترتدي الستارة؛ كأنها خُلقت لها فقط، بألوانها الزاهية وطريقة لفها على جسدها بمنتهى الإثارة! تتذكر الساعات التي جلست أمامها لترسمها وهي في قمة ذهولها من ثقتها بنفسها ويقينها بقدراتها وبما تفعل. منذُ ذلك اليوم وصبحية تمزج أجزاء من قماش الستارة في ملابسها بألوانها التي لا تقول أكثر من كلمات "أنا امرأة وهذه ألواني".

غادر خمستهم الساحة من مدخلها الشرقي القريب من "شارع العدل"، أقرب ما يكون للخروج باتجاه "باب اليمن".استقلوا الحافلة العامة. جلس كمال على مقعد منفرد، واستقرت صبحية إلى جوار بشرى، ومهدي إلى جوار حبيبة. بعد تحرك الحافلة اقترب مهدي ببطء حتى لاصق جسد حبيبة، وغاب كلاهما في صمت مهيب خلدا فيه ما منحه لهما القدر في هذه الدقائق. ولجوا المدينة القديمة من "باب اليمن". تقدمهم كمال باتجاه "سمسرة يحيى بن القاسم". لا يعرف لماذا لا يريد أن يتوجه إلى "سمسرة وردة"! لقد ذكرتها صبحية بنوع من الحنين، وهو لا يريد أن يعرف حتى ما هو ذاك الحنين. تجاهل أن يستشيرها، وهي انقادت لاختياره. المدينة تتثاءب بكسل في غبش انبلاج أول خيوط الضوء. هذا هو السحر بعينه بالنسبة لمهدي وحبيبة، هل يصدقان أن هذا ليس حلما وأنهما بالفعل يسيران جنبا إلى جنب في هذا الوقت في أزقة مدينة لم يكن لها في ذاكرتهما غير الاسم ومشاهدة بعض صورها!

"سمسرة يحيى بن القاسم" قريبة من الجامع الكبير الذي يتوسط مدينة صنعاء القديمة، بدأ الناس في الخروج منه بعد صلاة الفجر. ورغم ذلك دعا "كمال" "مهدي" للتوجه لأداء صلاة الفجر ريثما يخف زحام "المتقهوين" في "السمسرة". طلب من صبحية وبشرى انتظارهما في "السمسرة". أثار ذلك حنق صبحية دون أن تظهره، وقالت بشرى:

- بل سنأتي معكما. هل نسيت أن الجناح الشرقي رممته امرأة. هي السيدة بنت أحمد الصليحي المشهورة باسم "أروى" ومن حقنا أن ندخله.

لم تنتظر موافقته؛ بل سارت باتجاه الجامع. وأمام ذهول مهدي وحبيبة لحقتها صبحية. لم يعد وجود النساء يثير فضول الرجال في

المسجد. فمنذ فترة أصبح المسجد مزارا سياحيا ويمكن لمن أراد زيارته والصلاة فيه. سيصلي مهدي وحبيبة في الرواق الشرقي، بينما صبحية وبشرى ستخرجان إلى الفضاء المكشوف الذي تطل عليه الأروقة الأربعة. ستجعلان حائط الرواق الجنوبي خلفهما، وستغيبان في مناجاة الله في ذلك الصباح النادر. كمال سيتوجه إلى رواق القبلة، الأكثر عرضا، وسيؤدي صلاته بالقرب من منبر الخطبة. كم هو الله قريب منهم في هذه اللحظة. يكاد يومض في وجدانهم حبا ورحمة، ويبتهلون في حضرته رجاء ومغفرة..

في ركن "السمسرة" الداخلي سيجلس خمستهم، صبحية وبشرى في جهة، ومهدي وحبيبة في الجهة الأخرى، وإلى جوارهما كمال. رائحة القهوة عبقة في الأرجاء، وتفاقمت حال وضع "أقلاصهم" الخمسة على الطاولة الصغيرة أمامهم. ستترك صبحية وبشرى لحبيبة حرية التصرف في لثامها وكيف يمكنها أن تشرب قهوتها من خلاله. حتى مهدي سيصمت؛ لكنها ستفاجئ الجميع وتميط اللثام عن وجهها بهدوء. تمنى مهدي في تلك اللحظة لو كان أمامها ليمتع عينيه برؤية وجه حبيبته؛ لكنه إكتفي باختلاس النظر إليها واستغلال فرصة انشغال كمال بالحديث مع صبحية وبشرى للحديث معها.

ترحيب صبحية مجددا بمهدي وحبيبته وفتح الحديث معهما عن مشروع بيع المشغولات في الساحة وتشجيعها للفكرة التي قالت عنها "عبقرية" أزال بعض خجلهما، وجعلهما يتحدثان معها بتفاصيل أكثر عنه، وعن نساء حارة "مذبح" وأحلامهن، وعن مدى فرحة الصغار بالبيع في الساحة رغم مخاوف الأمهات. استغل كمال انشغال صبحية معهما وانتقل من مكانه إلى القرب من بشرى وراح يحدثها بصوت لا يسمعه

غيرهما. بعدها أمسكت بشرى بالكاميرا وراحت تلتقط صورا لـ"السمسرة"، التي كانت في السابق خانا لمبيت التجار ومخازن لبضائعهم وحماية حيواناتهم. رفعت حبيبة الشام، ووافقت على التقاط الصور.

بعد ذلك انطلقوا إلى سوق الجملة واشتروا ما كتبه مهدي في ورقة من احتياجات النساء، وعندما أراد أن يدفع ثمنها اعترضته بشرى ودفعت المبلغ، وقالت له إن هذا مساهمتها مع كمال وصبحية لنساء "مذبح". كان هذا ما همس به كمال لبشرى بعد أن طلبت منه صبحية ذلك.

عند عودتهم كان كل شيء في حارة "مذبح" و"ساحة التغيير" لا يزال غارقا في سباته. وحدها شقيقة حبيبة كانت قلقة وفي انتظارها عند باب المنزل قبل أن تستيقظ والدتها. حبيبة ودعت مهدي بنظرات حب وامتنان قبل أن تدخل منزلها وتغلق شقيقتها الباب.

●●●

(٧)

كلمة الرئيس "صالح" أمام مؤيدي شرعيته في "ميدان السبعين"، يوم الخامس عشر من أبريل، ستثير الكثير من النقاش والجدل حولها. بعد خطبته، التي تهدّج فيها صوته مرات عديدة، وارتبكت كلماته المتدافعة من بين شفتيه المطوطة حتى منتصف وجهه، وعادت نظراته إلى خلفه ليشعر بدعم مستشاريه المرتصين خلفه ويخفون وجوههم مثله خلف نظارات سوداء يفرّون بها من ضعف اللحظة التي يستجدون فيها عطف

القادمين من المحافظات لتأييد "الشرعية". بعد أن همس أحد مستشاريه في أذنه انبرى "علي صالح" متحدثا عن شباب "ساحة التغيير" وعن "مروقهم" على "شرعيته"، وقال:

- ندعوهم إلى منع الاختلاط بين الرجال والنساء، الذي لا يقره الشرع، في شارع الجامعة.

سيؤيد المستشارون خلفه كلامه بهز رؤوسهم، في حركة مسرحية تشبه الدُّمى المتحركة بأيدي صانعها وحائك ملابسها وداعي جمهورها ليتفرج عليها.

ستُغضب عبارة "الرئيس صالح" الأخيرة واتهامه لنساء الساحة بالاختلاط المحرم شرعا، كلّ من في الساحة. ومساء ستجلس صبحية وبشرى على طاولتهما في الكافيتريا، وسينضم إليهما كمال بعد أن أنهى محاضرته في خيمته، لمناقشة ما يجب عليهم القيام به للرد على هذا الاتهام السفيه والمبطن من "صالح" ومستشاريه لسمعة نساء الساحة. ارتفع صوت بشرى توجه كلامها للموجودين حولها. كانت قد قررت الدعوة إلى مسيرة مختلطة من نساء ورجال الساحة، من شبابها، فتياتها وشبانها، لتكون هي الرد المناسب على "صالح"، لتؤكد أن ثورتهم ثورة شعب، وليست ثورة نساء أو رجال. بدأت حديثها بعد أن صمت من في الكافيتريا واستحسن حديثها كل من مر وظل يسمع:

- الثورة ليست عملا ذكوريا يحتكره الرجال، ولا وجود النساء ثانوي وغير ضروري. إن هذه النظرة تضيف عنصرا جديدا للتمييز ضد النساء يستند إلى مفهوم خاطئ لماهية الثورة، ويجرد الثوري من أهم الخصائص التي بدونها لا يستطيع أن يكون ثوريا، وهي حساسيته العالية ضد التمييز، ووعيه العميق بمشكلات المجتمع. ليس الذكور

وحدهم من فجّر هذه الثورة. الشابات كُنّ موجودات منذ البدء في جسد الثورة وفي قيادتها، وإذا لم تنتمِ الثورة إلى خيار إنساني رفيع يقوم على رفض التمييز ويهدف إلى تحرير المجتمع من الظروف غير الإنسانية المفروضة عليه فإن الثورة تتحول إلى أداة تقوم بإعادة إنتاج الأوضاع التي قامت الثورة لتغييرها. .

كان حماس بشرى في قمته، والحضور من حولها جعل المكان كأنه ساحة محاضرات. التفتت إلى صبحية وكمال إلى جوارها كمن يطلب من أحدهما مواصلة الحديث والدعوة إلى مسيرة اليوم التالي للتنديد بما قاله الرئيس. سيمسك كمال بالخيط تاركا لبشرى ترتيب أفكارها، ثم علا صوته:

- أيتها الثائرات، أيها الثوار! فجأة قرر الرئيس علي صالح أن يكون "مفتي الجمهورية"، ويحرم اختلاط المعتصمين المطالبين برحيله وإسقاط نظامه في ساحة التغيير في صنعاء، وهو بذلك يفتي بما لا يعلم، ويُحرِّم ما هو غير قائم أصلا. ويبدو أن حكم ٣٣ عاما من الجهل لم يمكنه من معرفة أن الجامعات مختلطة، والمرافق الحكومية والمدارس والأسواق مختلطة، وبالتالي فما قاله يلغي تنطعه الدائم نحو حرية المرأة وممارسة جميع حقوقها في المجتمع، وأهمها تعبيرها عن الرأي. وباتهامه هذا، وفي يوم فضيل كالجمعة، الذي يأمن فيه الناس إلى ذواتهم وذويهم، يلقي عليهم هذه القنبلة التي قطعت أعراضهم دون ذنب اقترفوه غير قول: "لا" لنظامه الفاسد، ومطالبته، بمنتهى السلمية، هو ونظامه، بالرحيل. إنه رئيس قرر أن يتهم نساء بلاده، بلا مسؤولية، وبأبشع التهم، وكأنه شخص لا يعي ما يقول، منقاد وراء بطانة سوء لا يهمها غير مصالحها، بطانة قررت أن تهز رأسها موافقة على اتهامه رغم أن

نساءهم في هذه الجمعة خرجن في مسيرة لتأييده ولم يتهمهن أحد بالاختلاط. إنه رئيس أجاد وصفه، عند سماع ما قال، الشاعر الثائر علي المقري: "رئيس يتسقط وشعب يتخلق". نعم، نحن نتخلق في هذه الساحة بوطن قادم نحن صانعوه على مبادئ لا يعرفها الرئيس الذي يتسقط؛ لأنه لم يفعل بها ولم يوفرها لشعبه. نحن نتخلق بألا تمييز بين الرجل والمرأة، وأن الشراكة في بناء الوطن هي بينهما لبناء القادم دون اتهامات. لذلك ندعوكم غدا إلى مسيرة نخرج فيها جميعا، نحن وعائلاتنا، نساؤنا وفتياتنا وشبابنا وأطفالنا، لنقول له: اتهاماتك باطلة أيها المتسقط، ولن نعود إلى منازلنا إلا وقد سقط نظامك.

صفق له الحاضرون، بعد إيماءة رضى من رؤوسهم. عاد ثلاثتهم للجلوس وتناول الشاي وهم في غاية الرضى، يواصلون نقاش ترتيبات مسيرة الغد.

اقترب منهم مهدي ولم يشعروا بوقوفه إلا بعد فترة. اعتذرت إليه صبحية وطلبت جلوسه معهم. كانت ملامحه تغمرها الغبطة والقلق معا. طلب من صبحية الحديث على انفراد. استأذنت من كمال وبشرى وقالت لمهدي:

- هيا بنا نسير قليلا في الساحة ونتحدث.

منحته فرصة ليجد مدخلا مناسبا لما يريد قوله. ولما لم يجد سألته عن كيف كانت حصيلة البيع اليوم، وهل نجحوا مثل الجمعة الماضية أم أفضل؟ كانت صبحية أثناء الصلاة تتابعهم كلما سنحت لها الفرصة، لذلك سألته وتعلم أنه سيبتهج لسؤالها ولمتابعتها.

منذ أن أسرّ مهدي لصبحية بما حدث لشقيقه وهو يشعر بأنها قريبة منه. لقد منحته هذه الساحة بوجود صبحية فيها أمانا يسري في دمه،

وحماسا يتدفق في شرايينه لممارسة حياته وتحقيق حلمه بامتلاك محل الدجاج. لقد استجاب لنداء حبيبة، وشعر كم الحياة مبهجة بها وبشعوره المباغت بها وأنها حلم آخر له مذاق السكر في الفم وسيسعى لتحقيقه بعد امتلاك المال اللازم. لكن اليوم داهمته فكرة ولا يعرف هل ينفذها أم لا؟ فكرة يتداولها كل من فى الساحة ويعتبرونها مخرجا لحياتهم البائسة وحماية لثورتهم من الخطر. فكرة لن تثنيه عن تحقيق أحلامه، بل ستختصر وقت الوصول إليها.

بهتت صبحية للحظات وهو يقول لها:

- أريد الالتحاق بمعسكر "علي محسن" لخدمة الثورة.

استجمعت صبحية شتات المفاجأة وهول ما سمعته لتقنعه بخطر فكرته، بهدوء أخفت خلفه حنقها وغضبها من فكرة "عسكرة الثورة" التي راح يُروّج لها في الساحة منذ أيام من قِبل مرتادي وساكني الساحة. قالت له:

- سلمية الثورة يا مهدي هي سر نجاحها حتى الآن. لا بد لك ولكل من هم في سنك أن يفكروا بمستقبلهم، ولا يكونوا أداة في صراع بين السياسيين. ينفطر قلبي وأنا أرى من هم في سنك يقفون في ثكنات تفتيش داخل العاصمة؛ كتف صغيرة تتهدل من حمل السلاح بدل شنطة المدرسة، ورأس لا يستقيم عليه قبعة الأمن لصغره! ليست معركتكم يا مهدي، ليست معركتكم! معركتكم هي أن ترفضوا ما يحدث لعمركم من انتهاك، ولمستقبلكم من وأد!

انتشرت فكرة عسكرة الثورة بشكل كبير في "ساحة التغيير". هناك من رفضها بقوة، بخروج المسيرات ورفع شعارات مناهضة لها، وهناك من أيدها واعتبرها كرما كبيرا قدمه قائد "الفرقة الأولى مدرع"، "علي

محسن"، ليؤكد وقوفه مع الثورة بعد انضمامه لها. ستنتشر نقاط التفتيش حول الساحة. ستنقسم صنعاء إلى جزأين: شمالي مع الثورة، وجنوبي ضد الثورة. ستطم التكنات العسكرية صنعاء. ستخنقها، وتمنعها من التنفس ورؤية شمس الله تظللها كامله.

•••

(٨)

يظل شهر أبريل في صنعاء مخاتلا طوال أيامه الكاذبة. يدعي أن ارتفاع سعر فاكهة الشتاء، من اليوسفي والبرتقال، هو بسبب قرب انتهاء موسمها، ويبيع فاكهة الموسم القادم من الكمثرى والتفاح البلدي قبل أن تنضج، مدعيا فائدتها الصحية. ستنتقل عدوى الشهر المخاتل إلى اللجنة الأمنية لساحة التغيير، وستخبئ المسيرة المختلطة التي دعت إليها بشرى وأيدها كمال وصبحية في أعطافها مفاجآت لثلاثتهم. فبعد أن اتفق كل من أيد الفكرة على الخروج في المسيرة المختلطة من النساء والرجال والشباب والأطفال، قررت اللجنة الأمنية منعها وجعلها حكرا على النساء فقط. ورغم رفض بشرى لذلك مع كل من تحمس للفكرة؛ إلا أن الأحزاب كانت قد جيشت نساءها واختارت شعاراتها.

كان لافتا للنظر في عصرية اليوم التالي، السبت ١٦ أبريل، تدفق حشود من النساء إلى "ساحة التغيير"، تحديدا إلى المكان الذي حددته اللجنة الأمنية لتنطلق منه المسيرة. الحشود النسائية مسربلة بسواد جاثم على أجسادها، ولا يظهر منها غير أنصاف عيون تسمح بالتلصص فقط لا بالنظر. تساءلت صبحية وبشرى: هل هذه الحشود لنساء أم

لرجال ارتدوا البالطو الأسود وكانوا في قمة حذرهم لدرجة وأد نصف العين في السواد ونصفها في التلصص؟! هؤلاء النساء أين كُنّ من قبل؟ ولِمَاذا ظهرن في الساحة اليوم؟!

تساؤل مشروع، يفضي إلى معرفة حقيقة من هؤلاء، ولماذا حرض وجودهن على استثناء أي رجل من السير في المسيرة! هل كُنّ رجالا بالفعل ويخشون افتضاح أمرهم؟! أم أنهن نساء بالفعل ويخشين السير أمام أو إلى جوار الرجال؟! ولماذا هذهَ الخشية وقد كان بإمكانهن أن يحضرن مع أزواجهن وإخوتهن وأولادهن كما دعت صبحية وبشرى وكمال؟! ألم يكن العدد قد تضاعف وأصبح يشي بحياة ثورية حقيقية؟!

دارت هذه الفكرة في رؤوس كل من حضرن ولا يرتدين غطاء الوجه. كان هناك إصرار على عدم سيرهن إلى جوار الحشود مغطاة الوجوه. بعضهن تلقين الكلمات عن سبق إصرار وترصد! وبعضهن تم سحبهن نتيجة الزحام إلى الأطراف لأن وجوههن الساطعة بالحياة تبدو كالقمر في ليلة اكتماله في سواد ما حوله! ولكي لا تظهر تلك الوجوه تم التصوير من أعلى، ليبدو المشهد كئيبا بلونه الأسود، ومحرضا على التمرد.

هناك من صبر من النساء ذوات الوجوه غير المغطاة، واقتنعن أنهن يسرن بالفعل مع نساء. وهناك من شعرن أن هذه تصرفات قاسية لرجال متنكرين بزي نساء، لهم عضلات مفتولة، يزيحون بها المختلف عنهم من الأخريات ويبطحون من تعترض على السير تحت راية سوادهم أرضا. وهناك من انسحبن وقررن السير بوجوههن مع من اصطحبن من أهلهن من الرجال إلى جوار هذا السواد الذي لا يعرفون حقيقته!

كان هذا السير المختلط تعديا على قرار اللجنة الأمنية المكلفة حراسة المسيرة. "صبحية" و"كمال" ومجموعة من الشباب يسيرون إلى

جوار بعضهم رافعين شعارات مناهضة لاتهام "صالح" ومؤكدة أن الثورة والحيــاة هي "رجل وامـرأة". كـانوا قلة؛ لكنهم ألقـوا في قلوب اللجنة الأمنية الرعب، فحاصروهم وعزلوهم عن المسيرة "الرجانسائية". بشرى تختـرق الصفوف غير عابئة بتلك الحراسة، تلتقط صـورا للجميع بلا استثناء، تحاول صعود العمارات القريبة والمحاذية للمسيرة، فيتم منعها من الصعود. تعود أدراجها إلى مسيرة الحياة التي دعت إليها، تلتقط الصور للوجوه المبتسمة وللشعارات المرتفعة، وتقتنص فرصة ترديد الشعارات للقطة لافتة أو لقطة للثائرين والثائرات. ستهتف صبحية بصوت عال: "ثورتنا ثورة نضـال، النسـاء مع الرجـال". سيهتف بعدها الشباب والشابات من حولها، وبعد عدة هتافات سيلتقط كمال الهتاف ويكرر: "ثورتنا ثورة نضال، النساء مع الرجال".

مسيرة الحياة لصبحية وكمال وبشرى ومن انضم إليـهم تتقدم بصعوبة شديدة بين الحراسة الأمنية للمسيرة "الرجانسائية"؛ لكنها تسير بمحاذاتها، رغم عوائق ضيق المكان ومنع التصوير. ستصل إلى "جولة مذبح" الكبيرة، وسيتم منعها من الاستمرار. سترتفع أصوات الشباب والشابات بالشجب لهذا المنع. ستنبت الأرض فجأة جنودا يحاصرون صبحية ومن معها. ستسمح فقط لمن يريد الخروج منها في الاتجاه الآخر، وليس في اتجاه المسيرة. سينصاع بعضهم للأمر وسيتمرد الآخرون. ستعلو هتافاتهم الرافضة لعسكرة الثورة وتقييد الحريات. سيرد عليهم العسكر بالمزيد من الحصار وتعزيز عددهم كنبتة شيطانية نمت في كل اتجاه. سيقل العدد المقاوم ليبقى القلة القليلة. لن تستسلم صبحية. ستحاول اختراق الطوق الذي حولها من العسكر. سيمنعونها. ستتعارك معهم. سيهجم عليهم كمال وهو يقول لأحدهم:

ـ تضرب مَرة يا كلب!

استفزت الشتيمة العسكري فوجه ضربة بمؤخرة بندقيته لرأس كمال بعد أن أمسكه زملاؤه. بشرى وصبحية تتدخلان لإبعاد كمال من بين براثن العسكر. عددهم المتزايد الذي أحكم قبضته على كل الشباب والشابات شل حركتهم. تقدمت سيارات وألقوا فيها بمن تبقى من الشباب. بشرى تحاول توثيق اللحظة بالتقاط الصور لكل هذه الانتهاكات. يمنعها أحد العسكر. يباغتها ويحاول نزع الكاميرا من بين يديها. ستتشبث بها بكل قوتها. ستخور قواها لتجد نفسها ملقاة على الأرض والعسكري يركلها بحذائه الصلب لتضعف ويستطيع أخذ الكاميرا. صبحية ترى المنظر فتقفز باتجاهها، ناهرة العسكري على فعلته تلك وهي تردد كلمات زادت في استفزازهم:

ـ لن تكمموا أفواهنا! نحن في ساحة حرية يا عبدة النظام! من أرسلكم لإفشال ثورتنا وعسكرتها ووأد سلميتها؟ ثورتنا ستنجح رغما عنكم! ابعد يدك عنها أيها الحقير، ابعد يدك عنها!

لم يستطع كمال الإفلات من العسكر، الذين جروه إلى سيارة الاعتقال. كان يقاوم بقوة وبشعور عارم بالحسرة، لعدم مساعدة بشرى وصبحية من شراسة ما تواجهانه. الكل واقع تحت تأثير صدمة ما يحدث في ساحة ثورة وحرية وتعبير ومطالبة بالمساواة. الكل لا يصدق أن هؤلاء العسكر، حماة الثورة، كما يقولون عن أنفسهم، يعتقلون ويضربون حتى النساء بأعقاب البنادق وبركلات "البيادات" على أجساد الثوار والثائرات.

ستشعر صبحية وبشرى بجسد ينهار عليهما ليقيهما ركلات العسكري بعد أن أزاحه من فوقهما وهما على الأرض. كان رجلا هزيلا

وقويا في الوقت ذاته، ضرب العسكري في رأسه بحامل خشبي لصورتين وشغله عنهما لبرهة.

راحت بشرى تبعده ما استطاعت عمن قدموا لاحتجازه ووضعه إلى جانب من سبقه من الشباب في سيارة ستنقلهم إلى مكان لا يعرفونه. سيترك العسكر صبحية وبشرى في انشداه مما يحدث، مع من تبقى معهن من النساء. كانتا غير قادرتين على الحركة إلا بصعوبة، من شدة ما تلقاه جسداهما من ركلات.

لو لم تكن صبحية مخطئة فإن هذا الرجل الذي حاول منع الأذى عنها وعن بشرى هو صديق والدها، عبده سعيد، والحامل الذي ضرب به العسكري وهو يردد: "اتركها يا عفاشي" (١)، كان ذات الحامل الذي رأته ممسكا به وعليه صورة عبد الرقيب عبد الوهاب وإبراهيم الحمدي عندما صعد إلى المنصة قبل أيام وتعمد الاختفاء من أمامها.

أحكمت صبحية السيطرة على أعصابها، وساعدت بشرى على النهوض وعادت معها ومع من تبقى من النساء إلى الساحة.

•••

(٩)

مجموعة من الثوار والثائرات أمام مقر اللجنة الأمنية تتقدمهم صبحية وبشرى. وضعوا على أفواههم لاصقا، تعبيرا عن رفضهم لانتهاكات اللجنة في حق الثوار بالاعتقال والإخفاء. كانت صبحية

(١) عفاش: هو لقب عائلة علي عبد الله صالح، وتم اكتشافه واستخدامه أيام الثورة لكل من يناصره.

وبشرى قد دعتا إلى مسيرات يومية حتى يتم تغيير اللجنة الأمنية وإخراج كمال ومن معه من المعتقل. أربكت مسيرات صبحية وبشرى اللجنة الأمنية. هددتا بالتصعيد الإعلامي وبدعوة القنوات الفضائية لعرض انتهاكات اللجنة الأمنية وهذا سيجعل الشأن الداخلي لمشاكل الساحة عرضة للإعلام ولشق الصف الثوري، وهذا ما لا تريده اللجنة الأمنية.

كان الصف الثوري شماعة وجدت بها تلك اللجنة مبررا لمزيد من الانتهاكات. ومع ذلك تحاول صبحية أن تستمر حتى آخر محاولة. بينما رفضت بشرى وقررت أن تشق هذا الصف، وأن تتحدث عن انتهاكات اعتبرتها جرائم في حق الثوار.

مهدي يرقب تلك المسيرة التي طم فيها اللاصق الأسود أفواه من افترشوا الأرض، وهو في قمة إعجابه بهم وبأفكارهم تلك. يُمكِّنُهُ من ذلك موقع عربته في الرصيف الأوسط الذي يقسم الساحة. بشرى منهمكة في التصوير بالرغم من اختلافها مع صبحية، بكتابتها ونشرها عما حدث في المسيرة "الرجانسائية"، إذ أكدت في مقالها أن الثورة ليست شيئا مقدسا وأن انتقادها يوجه مسارها بشكل أفضل فيما لو حادت عن هذا المسار. وهي منذ تلك المسيرة ستكون العين التي ترى الظلم، والقلم الذي يدافع عن الحق، والصورة التي تفضحه، فهذا كل ما تملكه، أمام بطش عسكرة الثورة.

في ذلك المساء، وبعد الوقفة الاحتجاجية، عبر مهدي لصبحية وبشرى عن خوفه عليهما من تلك المسيرات؛ لأنه لا يوجد آذان صاغية للقلة القليلة التي تسير معهما.

- إذن عدلت عن فكرة أن تكون عسكري من جنود علي محسن؟!

كان هذا سؤال صبحية الذي فاجأت به بشرى وليس مهدي وحده.

حلم مهدي أكبر من أن يدفنه في بدلة عسكرية تتحجج بحماية الثورة وقبلها حماية الوطن. أصبح مهدي قادرا على التمييز بين من يحمي مصالحه، ويسعى لمد نفوذه عن طريق استغلال هؤلاء الجنود بالقليل من المال في وطنهم كما يفعل حامي الثورة "علي محسن" أو كما يدعوه البعض سارقها، وبين من يحمي الوطن ويفديه بروحه.

لم يرد مهدي على سؤال صبحية إلا بإيماءة من رأسه تؤكد كلامها: نعم، عدلت عن الفكرة وسأمضي في تحقيق حلمي الأول والأخير في امتلاك "محل مهدي الريمي لبيع وذباحة الدجاج"!

بعد مغادرة مهدي أصبح الجو مهيئا لصبحية أن تسأل بشرى عن ذلك الرجل الذي نادته بـ"أبي"!

ـ هو بالفعل أبي، أقصد أنه في مقام أبي. ألم تلحظي كبر سِنه، واستماتته في الدفاع عني وعنك، دون أن يعير الجنود الأقوياء أي اهتمام، رغم أعقاب بنادقهم التي انهالت على ظهورنا ورؤوس الشباب. تعودت أن أناديه "أبي" كلما رأيته في الساحة حاملا صورتيه الأثيرتين. أطلب منه أخذ صورة له، فيقف بمنتهى الالتزام كجندي يؤدي التحية أمام عدستي، وكأن حامل صورتيه الخشبي بندقية يضعها على كتفه.

ازدادت حيرة صبحية مما قالته بشرى. حكت لها عن ذلك الرجل، وعن رغبتها في الحديث معه واندهاشها من هروبه المتعمد منها. شرعت في الحديث لبشرى عن والدها، وعن اختياره للغربة عوضا عن وطنه، بعد أن تنكر وطنه له ولرفاقه الذين استماتوا في الدفاع عن "صنعائهم" في حصار السبعين يوما، بل غدر الوطن بهم في "أحداث أغسطس" اللعينة التي راح ضحيتها الكثير من رفاقه بتهم لم يستطيعوا الصمود

أمامها لقسوتها. فكيف يمكن أن يكون من قدم طائعا للدفاع عن صنعاء خائنا أو عميلا؟! تم وأد الحلم باليمن الجديد في المهد.

لم تكمل صبحية، فقد شعرت بالغصة في حلقها لأن التاريخ يعيد نفسه، وأن ما حدث لها ولبشرى وكمال ولكل من تحمس في المسيرة من انتهاك لفكرهم وأجسادهم يؤكد ذلك. ها هي تمر بقسوة تلك اللحظة التي مر بها والدها؛ لكنها لن تهرب مثله عن وطنها، بل ستظل في الساحة، ستكون شوكة في حلق كل من يحيد عن درب الثورة وعن الوصول إلى يمن تحلم به وحلم به قبل ذلك والدها وصديقه الغامض "عبده سعيد"!

- هل تتحدثون عني؟!

سيكون هذا صوت كمال، الذي ظهر أمامهما فجأة. ستفرحان به وبخروجه من المعتقل، لدرجة ألجمتهما عن الحديث. سيلقي بجسده المنهك على الكرسي المقابل لصبحية، وسيجعل وجهه المرهق يحدثهما عما عانى. ثلاثتهم وإن كابروا وأظهروا صلابة جأش وقوة تحمل بمسيرات صبحية وكتابة بشرى واعتقال كمال؛ إلا أنهم لا ينكرون تصدع الحلم بثورة شباب نقية مدنية، ضد نظام الفساد.

سيتناول كمال كأس ليمون، منتشيا بما لمحه في نظرات صبحية من لهفة لرؤيته، وقلق لمعرفة ما أصابه. هي نظرات مباغتة وصلته سريعا، لذلك نكست صبحية رأسها خجلا بعد أن بادلها تلك اللهفة وذلك القلق. سيبدأ بالحديث رغم سكوت صبحية وبشرى حرصا على أن يلتقط أنفاسه ويرتاح. بدأ ولو لم يفعل لانفجر من غيظه:

- لم أصدق أن ما حدث لي وللشباب يمكن أن يحدث فعلا، وفي ساحة ثورة! ومثل غيري اعتقدت أن الحُجرات الموجودة في الركن النائي

من المستشفى الميداني التي يتم فيها حبس الشباب لمخالفات بسيطة أو طائشة تساهم في الحد من هذه المخالفات. ورغم مناهضتنا لها إلا أن الاعتقالات استمرت، وغضضنا الطرف عنها حتى لا نشق الصف الثوري. ما لم أتخيله هو أن يكون هناك اعتقال حقيقي وسجن حقيقي لشباب ليس لهم أي ذنب سوى كشف ممارسات لا حقوقية داخل الساحة ضد الشباب، أو انتقاد ما يفعله بعض قادة الأحزاب من تصريحات تضر بالثورة وبالشباب، أو ما تحاول بعض الأحزاب القيام به من السيطرة على الساحة بالعطاء المالي أو بالوعود القادمة بعد نجاح الثورة. كل هؤلاء وجدتهم في المعتقل الحقيقي في مقر "الفرقة الأولى مدرع". وما يُدمي القلب هو تعذيب بعضهم واعتبار ذلك عقابا رادعا للآخرين.

في المعتقل علا صوت ذلك الرجل العجوز الذي حماكما بجسده الهزيل من الضرب في المسيرة مرددا قول الشهيد الثلايا، بطل ثورة عام ١٩٥٥، قبل إعدامه بلحظات: "لعن الله شعبا أردت له الحياة وأراد لي الموت"، بعد أن رأى العدد الكبير للشباب المعتقل. لم يتوقف عن التحريض للثوار ضد هذا الاعتقال. لم يتوقف عن الصراخ في وجه الجنود الذين يحرسون المعتقل. لم يتوقف عن الحديث لأشخاص لم يكونوا معنا لكنهم أحياء في ذاكرته. كان يردد أنه لن يسكت كما فعل في المرة الماضية، وأنه سيقاوم حتى لو مات هذه المرة! غموض ما كان يتحدث به أثار بعض الشباب ليسأله عن أي فترة يتحدث، ولماذا سكت! القلة منهم كانوا يعرفون عما يتحدث وعن أي فترة يقصد. انتفض من مكانه وأمسك بحامل الصورة الذي لم يتخلَّ عنه وقال لهم: "مرحلة عبد الرقيب عبد الوهاب ورفاقه، ومرحلة إبراهيم ورفاقه، اللذين تم التآمر

عليهما وقتلهما لأنهما أرادا الخير لليمن. لا تكرروا خطأ الاستسلام! عليكم بالمقاومة! لا تكرروا أخطاءنا بالهروب، بل المواجهة! لا توافقوا على صلاة الفجر إلا وقد أديتم تحية العلم الوطني، فمنذ أن جعل الفندم "علي محسن" الصلاة بدل تحية العلم والوطن في انحدار، والمواطن في قهر".

عند هذا الكلام دخل أحد الضباط وأخذ العجوز من بيننا. كان يتحدث عن تفاصيل لا نعرفها، وعلى عِلم بها من سمعه من خارج حجرة الاعتقال ولا يريدون لنا أن نعرفها. أخرجوه وهم يقولون له: "الفندم يشتيك يا مجنون". رفض الخروج معهم وقاوم بشدة وهو يردد: "قل للفندم: تحية الوطن والعلم هي العبادة الحقيقية". أمسكوا به وأخرجوه عنوة. وجه كلامه لي وقال: "شل الصورتين وناول صبحية". لم يكن أحد يعلم من هي "صبحية" غيري. عندها تذكرت كلامك عنه وحيرتك منه ومن تصرفاته. وأكاد أجزم بعد ما سمعته منه أنه بالفعل من تبحثين عنه وتريدين منه معرفة حقيقة سر اختيار والدك للغربة عن وطنه طائعا مع أن الحقيقة بعد حديثه أصبحت واضحة كالشمس.

زادت حيرة "صبحية"، وإن كان هناك بصيص أمل في أن ترى الرجل العجوز "عبده سعيد"، في الساحة، فإنه وبعد اختفائه في ذلك المعتقل أصبح الأمر مستحيلا. استأذن كمال منهما لينصرف فهو بحاجة للراحة؛ أكد أنه لن يبيت في "خيمة شباب مع الحدث" كعادته؛ ولكنه سيذهب إلى منزله للاغتسال والراحة وسيعود غدا. لم تجد صبحية وبشرى حرجا في عرض مرافقته إذا كان يشعر بالتعب أو أنه غير قادر على السير إلى المنزل. شكرهما وغادر.

بعد مغادرته ستدعو صبحية "بشرى" للذهاب لزيارة أمها؛ اشتاقت لها. ربما أن الحديث عن صديق والدها وما عاناه أجج في أعماقها

شوقا للمنزل ولقراءة أوراقه من جديد والتوحد مع ذكرياته؛ فهذا يمدها بالراحة عادة، فما بالك في هذه الأيام الصعبة التي تشعر فيها بتكرار ما حدث لوالدها؛ لكن ليس معها فقط، بل مع شباب الثورة أجمعين؟! ستوافق بشرى على مرافقتها.

تعيش بشرى مع شقيقاتها الثلاث اللاتي قدمن من القرية للدراسة الجامعية في صنعاء. ورغم انتهائها من دراسة الإعلام في جامعة صنعاء واشتغالها في بعض الصحف إلا أنها لم تعد إلى القرية كما وعدت والديها، وقررت البقاء في صنعاء حتى تنتهي شقيقاتها من الدراسة وتستطيع إقناع والديها بترك القرية والعيش معهن في صنعاء. لها تلقائية بنات القرى وطيبتهن، فلا تتنازل عن حقها، ولا تجد حرجا في مواجهة الباطل بكلمات قاسية وصريحة. ربما لهذا تأخر قطار زواجها؛ لأنها - كما تقول عن نفسها - امرأة يهرب من قوتها الرجال.

•••

(١٠)

والدة صبحية امرأة بمعنى الكلمة. أهل صنعاء يقولون عنها: "مرة كاملة"، والمرأة الكاملة هي من تجيد كل شيء؛ إن كان لطبخ فهي ذواقة، وإن كان لإجادة ونظافة لأعمال البيت فهي مُتقنة، وإن كان لاهتمام بتربية الأبناء وتعليمهم فهي منجزة بتحدّ حتى لو كانت لا تقرأ ولا تكتب، وإن كان لشعور بالمسؤولية تجاه العائلة ونوائب الدهر فهي المبادرة بالتضحية في سبيل بقاء عائلتها والتغلب على مشاكلها، وإن كان لجمال ولدلال فهي لا تغفل عن أن تهتم بذاتها وتدرك وتستخدم أساليبها

الخاصة لإخفاء عيوب جسدها وشكلها، وإن كان للذة فراش فرغبتها مستعرة لشريك بياض الرغبة وشبق الحياة. باختصار: الكاملة هي من تجود بكل ما تملك من مال ومشاعر لذاتها أولا حتى تستطيع أن تنثر السعادة من حولها. مخطئ من يعتقد أن تضحياته من أجل الغير بإسراف هي سعادة له ولو بتقتير. من يمنح نفسه حقوقها هو إنسان مُعافى، لذلك يمنح الآخرين.

تحملت أم صبحية الكثير لتكون المرأة الكاملة في نجاح حياتها، وكل صنعانية خالصة تفعل ذلك لتكون هي وتجربتها في الحياة كاملة. يخذلها المجتمع أحيانا، ويخذلها الأهل أحيانا أخرى؛ لكنها لا تخذل ذاتها مهما تكالبت عليها نوائب الدهر وقهر الحبيب والقريب.

الغربة التي أثقلت كاهلها، والبعد عن الأهل وشعورها اللصيق بالوحدة، وتحمل هنات مزاج الزوج والأولاد، في وطن يعيشون فيه ولا ينتمون إليه. كل هذا جعلها أكثر كمالا وأجمل صبرا. عادت بعد غربة طويلة لتدفن زوجها في وطنه، وتعيش غريبة في وطنها، بعد أن فقدت حبلها السري في التواصل مع الناس؛ هناك من مات، وهناك من لم يعد يذكر تلك العائلة التي غادرت صنعاء عام ١٩٧٢ وعادت بعد ثلاثين عاما نصف عائلة في كل وطن.

رحبت أم صبحية ببشرى. انسجمتا سريعا؛ ربما لأن بشرى منغمسة في حياة الناس، بحكم عملها الحقوقي والتقاط صور العامة من البسطاء في الشارع والسوق وفي كل مكان يكون فيه بساطة الحياة والناس معا. ستتركهما صبحية تتحدثان وتختلي بذاتها باحثة بين دفتي أوراق والدها عما تريد قراءته بعد أن أثار فضولها حديث كمال بما حدث له في المعتقل مع رفيقه عبده سعيد.

سيقطع استرسالها صوت هاتفها المحمول. إنه كمال. تحجج بأنه يريد الاطمئنان على وصولهما، فقد شعر بارتباكها وهو يحدثها عما حدث في المعتقل. طمأنته بصوت حنون، وهذا شجعه على دعوتها إلى تكرار زيارة صنعاء القديمة في الغد، فهو يريد الحديث معها في أمر مهم. لم تكن لترفض دعوة كهذه، فعشق صنعاء قادر على جعلها تقبل دعوته، خاصة في ظل ظروف الثورة الصعبة، ومن رفيق ثورة.

أنهت مكالمتها بالموافقة وطغى على صوت كمال بهجة اخترقت قلب صبحية، ومدتها بفرحة واطمئنان. بعد المكالمة ستحسم صبحية أمر مشاعرها تجاه "كمال" أسرع مما تخيلت. حضر في هذه اللحظة التي تناهى إلى مسامعها صوته القلق عليها بكامل ألقه في قلبها، شعرت أنها بدونه عدم. أجابت عن سؤال ألح عليها وأكد لها ما هجم عليها من مشاعر حب عارمة تجاه كمال: "ماذا لو اختفى كمال من حياتي؟". وعندما ارتجف بدنها وتسارعت نبضات قلبها لمرور فكرة أن يختفي، تأكد لها أنها واقعة في غرامه.

ستواصل صبحية بحثها في الأوراق التي لم تفهم منها شيئا في السابق. وبالفعل ستجد ورقة، بل هي صورة لرسالة وصلت لوالدها من أحد أصدقائه كتب فيها: "لا يعرفون أن تحية العلم هي أيضا صلاة نرتقي بها للوطن ونجدد عهدنا بالوفاء له كل يوم، وأن صلاة الفجر صلاة نرتقي بها لله. لماذا لم يفهم الفندم أن صلاة الوطن هي للشعب وصلاة الفجر هي للفرد، ولم يدرك أن صلاة الفرد هي التي ستؤدي لصلاة الشعب؟! الفندم غارق في الدين، والوطن غارق في الجهل والفقر والمرض!".

تساءلت صبحية بعد قراءتها: هل "الفندم" هذا هو "الفندم" الذي تم طلب عبده سعيد في المعتقل لمقابلته؟ هل هو "الفندم" الذي طرأ على

ذهنها ولا يوجد "فندم" منذ ذلك الوقت حتى الآن غيره يدعو للصلاة ولا يدعو للوطن؟ هل هو "الفندم" مانح الأراضي لمن يصلي ومانعها عمن يردد تحية العلم؟ الأطباء يؤدون تحية العلم، فلا أراضي لمستشفيات تنقذ حياة من مرض منهم ومن والاهم. الطلاب في المدارس لا أراضي لبناء مدارسهم؛ إنهم يؤدون تحية العلم كل صباح.

ستتكاثر أراضي مصلّي الفجر، وستنحسر أراضي محيّي العلم. ستتحول صنعاء، بفضل "الفندم"، إلى أخطبوط من الطرق على جانبيها أراض مربعة ومستطيلة، وسيعاني سكانها من الظمأ والمرض والجهل. عاصمة تتلوى من الألم وتستقبل ألم المدن الأخرى بمستشفى واحد وبملايين المساجد، بملايين الجراح التي تنخر عظامها حتى أصبحت أنهارا من صديد يعيش عليها مالكو الأراضي الفارغة؛ إلا من شجع "الفندم" وأصحاب "الفندم" ومعارف وزوار "الفندم".

انضمت صبحية إلى أمها وبشرى، شاركتهما الحديث ثم إعداد العشاء. أخبرت بشرى عن دعوة كمال؛ لكن بشرى اعتذرت، بل تحججت بعدم استطاعتها الذهاب معهما. أرادت أن تترك لهما مجالا للحديث. اهتمام كمال وإن حاول إخفاءه يظهر للقريب منه، وتجاهل صبحية وإن تعمدته يؤكد اهتمامها بكمال وإن أخفته.

●●●

(١١)

نهاية عصر اليوم التالي كان كمال وصبحية يسيران في أزقة الساحرة العتيقة: صنعاء. شعرت صبحية بأن وجود كمال إلى جوارها

يملأ عليها كل كيانها. بادرت وشبكت أصابع يدها بيده، فاتصل بينهما تيار حميم من الدفء العذب. صبحية في تلك اللحظة، ودون أن تدري، حققت لكمال أمنية أن تبادره امرأة بالحب أو بنظرة إعجاب، فما بالك بلذة تشابك الأصابع في مدينة العشق: صنعاء. كمال وجد نفسه يحدث صبحية بتجلّ:

ـ صنعاء مدينة عاشقة لكل من سكن بين جبليها، نُقُم وعَيْبَان، تمنحهم طقسا معتدلا وهواء نقيا. في أزقتها عبق الأنفاس المعجون بالحياة والحب. نوافذ منازلها عيون تنفث الجمال، وأبوابها أهداب تطبق بأمنها على بشرها وحجرها. لذلك يبادلها سكانها العشق، ويمنحها زوارها رونقه. أعشق هذه المدينة، ومَنَّيت نفسي كثيرا بلحظة رفقة امرأة أحبها، تسير إلى جواري، متشابكي الأيدي، منذ قدومي إليها قبل ثلاثة أعوام، من مدينة الحديدة، مرتع صباي ومراهقتي ودراستي الجامعية.

ظل كمال يتنقل بنظراته بين صبحية وبين الأزقة التي يدلفان إليها، والمنازل التي يمران من أمامها وبمحاذاتها. راح يشرح لها أسماء الحارات و"السماسر" (١) و"المقاشم" (٢) والمنازل الكبيرة والمميزة. وفي الأسواق توقفا عند كل ما له علاقة بطقوس كمال في المدينة القديمة: شربا "قديدا" باردا و"شعيرا" سكره زائد، أكلا "رواني" و"شعوبيات صنعانية"، وعند مدخل "باب اليمن" اشترى لها "شذابا" وورد النرجس الأصفر، ولدى بائع الزبيب واللوز رجته أن يتوقف، لأنها تريد أن تستمتع بالشاي الحليب المفور الذي دعاها إليه. ضحكا وواصلا سيرهما باتجاه هدفهما.

(١) السماسر: مفردها سمسرة وهي الخان.
(٢) المقاشم: مفردها مقشامة وهي البستان الذي يحوي خضار وبعض الفاكهة.

ها هي تتعرف على المدينة من خلال دليلها الحبيب. بدت لها صنعاء برفقته دما متدفقا يمر في عروقها، حكايا كمال لا تنتهي عن تاريخ المنازل التي يعرف سيرتها، وتاريخ "السماسر" التي كان يمر بها المسافرون مع دوابهم للراحة وبيع البضائع. حكايا عن شعراء وأئمة وقضاة ومؤرخين ورجال دولة وقادة. أسمعها أشعارا غزلية في نسائها الكاملات، وحوادث أسطورية لرجالها الخارقين. ضحك معها لطرائف ونوادر أهلها الطيبين. تحدث عن خصائص معمارها كأنه مهندس معماري، وحلل رموزها الفنية الزخرفية على نوافذها وقمرياتها وأرففها وعقودها الداخلية كأنه فنان تشكيلي أو نحّات إيطالي. في حديثه عن فن الغناء أسمعها بصوت هادئ أغنية "صنعاء حَوَتْ كل فن". الغناء الصنعاني يمكن اختزاله في كلمات بسيطة ومعبرة عما فعله في كيانات البشر داخل المدينة. لقد جعل الغناء منها مسرحا حيا للحب يشدو به كل محبي الحياة لذواتهم ولمدينتهم وللبشر من حولهم.

بُهتت صبحية من كل ما سمعته وشاهدته في كمال من إخلاص لحب تلك المدينة، مدينتها ومدينة والدها الحبيبة والأثيرة إلى نفسه في غربته وحاضنة جسده بعد مماته. شعرت أن صنعاء بالنسبة لكمال ليست أحجارا ومنازل و"مقاشم" و"سماسر"، بل هي تاريخ حي ومذهل لما مرت به في الشعر والفن والسياسة. هي ملاذ الأحلام الجميلة والعيش الرغيد.

كمال يشعر بالزهو وهو يتأمل الدهشة معقودة على مُحيا صبحية مما يحكيه، وصبحية تشعر بالحيرة في أعماقها وهي تسمع وتقارن بين كمال وحميد، لقد مرت في كل تلك الأماكن والأزقة برفقة حميد، فهل من حق كمال أن يعرف هذا؟! هل تعترف له بحكايتها مع حميد؟! هل تُجلسه

على كرسي القداسة لتلقي عليه اعترافات التائبين وتجعل منه وسيطا بينها وبين السماء لتعترف له؟ وهل فعلا حبها لحميد كان خطيئة وهي لم تفعل شيئا غير منحه مشاعر متدفقة من الحب ومن أحلام غمرتها الأماني التي لم يتحقق منها شيء؟ لو حدثت كمال فهو خطأ وحبها ليس خطيئة! لا، لن تفعل، هكذا قررت، لن يهم كمال ما عاشته في الماضي، بل ما ستمنحه إياه في المستقبل. لن تكون رهينة لحظة ضعف تعترف فيها بماض لم يعد له وجود؛ ويعنيها وحدها، وسيبقى له ذلك الوقع الحاني على الذاكرة بعد أن يفقد تأثير التفاعل الوجداني الذي كان. حميد يعنيها وحدها، ولن تعترف لكمال بما كان. ما يرضيها الآن ويرضيه أن تقول له بوله إنها أفرغت قلبها من كل ما فيه ليكون وحده مليكه.

سيجلسان للاستراحة على دكة أحد المنازل، وما أجمل هذه الدكك وأكثرها في المدينة القديمة! يلقي عليها المارة تعب أجسادهم، ويطلقون لأرواحهم عنان التأمل فيما أتوا منه وإلى ما سيذهبون إليه. سينظر إليها كمال بالوَله ذاته، وكأنه قرأ ما دار في خلدها:

ـ صبحيتي! قلبي اختارك أميرة له، أحبكِ قبل أن أتحدث إليكِ أو أعرف من تكونين. راقبتك بصمت ولم أستطع مقاومة شعور كان يشدني إليك، كمن وجد ضالته التي قضى عمره يبحث عنها. ليس مستغربا أن آخرين قبلي أسرتِ قلوبهم، فأنت لست بالنسبة لي غرضا شخصيا أرفضه إذا سبقني أحد إلى لبسه أو حتى استخدامه. أفهم أن الحب الحقيقي لا ينظر إلى الحبيب كشيء من قبيل المتعلقات الشخصية. حقك في هذا الحب مساو لحقي، وسنظل أنا وأنت باقة مؤتلفة طالما يظل قلبانا ينتجان الحب وينميانه وينثرانه حولهما. عليكِ أن تفهمي،

صبحيتي، أن الحب ليس خطيئة، الخطيئة تكون عندما يتخلى المرء عن الحب؛ لأنه آنذاك يلجأ للمقايضة ويبادل مصلحة بمصلحة، وإذا كانت المقايضة تصلح لتبادل السلع فإن قلوبنا وأجسادنا ليست سلعا نتاجر بها. أحبك صبحيتي كما أنت عليه الآن. أنت آسرتي ومليكتي، وحلمي الحاضر، وأملي في المستقبل.

بعد حديثه الذي اخترق تفكيرها بعمقه، داهمهما صمت مهيب. ستعود أصابعهما للتشابك. ستكون "مقشامة الوشلي"، رغم بدء جفاف أشجارها، منظرا أخاذا لقلبيهما المترعين في هذه اللحظة الباقية بالحب والنابضة بالحياة وبميلادهما معا. هسسسسس!

نسمات وقت غروب الشمس في صنعاء عليلة، تخترق الأوردة، فيشعر سكانها بالنشاط لأداء صلاة المغرب، والعودة للعمل. الأمهات يعدن من "تفرطتهن" (١) محملات برائحة المنازل وبنشوة استقبال أهلها الطيبين، فيمنحن صغارهن قلوبا عبقة برائحة الورد.

حدث كمال نفسه بصوت عال لتسمعه صبحية:

- هل من الضروري أن نعرج على سمسرة وردة لتناول شاي الحليب المفور في هذا المغرب ذي الهواء العليل؟ أم نعود إلى الساحة ونتناوله مع أصدقائنا مثل كل يوم؟

ستصر صبحية على الذهاب إلى "سمسرة وردة"، وعلى تحقيق أمنيتها مع كمال. سينظر إليها كمال بإعجاب ويقول:

- أحب إصرارك وإيمانك بما تفعلين. قد لا تذكرين أن تقدمك في إحدى المسيرات كان خطرا بعد أن منعت قوات الأمن المركزي تقدم المسيرة وأطلقت الغاز المسيل للدموع حتى فقدت وعيك! كنت من بداية

(١) التفرطة: هي لقاء نسائي.

المسيرة أرقب تقدمك ويشدني هتافك وحماسك الثوري، حتى سقطتِ مغشيا عليك من الغاز بعد توقف معظم النساء في المسيرة. رمت لي إحدى السيدات من إحدى النوافذ بصلا رحت أقشره وأقربه من أنفك حتى تجاوبتِ معه، واستطعت إسنادك حتى وصلنا إلى المستشفى الميداني وأُجريت لك الإسعافات الأولية، وانصرفت مشدوها بك.

لا تتذكر صبحية الشخص الذي أسعفها؛ لكنها تتذكر تماماً المسيرة التي كادت تموت فيها نتيجة اختناقها بالغاز. لم تشعر بشيء إلا وهي تجد الاهتمام والرعاية من إحدى صديقاتها في المستشفى الميداني، قالت لها:

ـ كُتب لك عمر جديد.

كان الأمن المركزي في بدايات أيام الثورة يستخدم الغاز المسيل للدموع وخراطيم المياه لردع المتظاهرين ومنعهم من التقدم نحو المصالح والمؤسسات الحكومية التي كانوا قد طلبوا أن تُعلن عصيانها المدني؛ إلا أنهم بعد ذلك لم يتوانوا في استخدامها واستخدام الرصاص الحي المصوب إلى قلوب المتظاهرين بغرض تفريقهم وترويعهم. ولم يمنعهم سقوط ضحايا من تكرار المحاولة الممعنة في القتل.

لم يهتم "طه"، مالك "سمسرة وردة"، بمن يرافق صبحية؛ لكن علامات الاستغراب كانت بادية على وجهه، والأهم لديه هو حضور صبحية التي افتقد حضورها منذ ما يقارب الشهرين. سألها فأجابت بهدوء أذهل من حولها فلم يكن الجميع مع ما قالته ولكنهم اكتفوا بالصمت:

ـ أنا في ساحة التغيير يا طه!

●●●

(١٢)

جمعة ٢٢ أبريل ستكون مفعمة بالتميز ليونس ومهدي وأصدقائهما الصغار من "حارة سوق علي محسن" و"حارة مذبح". الحاجة تُعلم سريعا. والصغار بحاجة للمال واستغلال ظرف تجمع الناس الكثير للبيع في يوم الجمعة. يتدفق إلى "شارع الستين" يوم الجمعة مؤيدو الثورة من كل مكان في صنعاء. وبعضهم يأتي من خارجها للدعم، بعائلاتهم، منذ الصباح. هذه الجمعة تم تسميتها "جمعة الفرصة الأخيرة". عدد مصليها مهول؛ قيل إنه أرهب النظام، وجعله يستمر في حشد مؤيديه كل جمعة، وفي تقليد جمعة الثورة في كل شيء: اختيار اسم لها، استخدام العلم الوطني، كتابة الشعارات وترديدها. ستسمى "جمعة التصالح" في "ميدان التحرير"، الذي تنطلق منه المسيرة عبر "شارع كلية الشرطة" إلى "ميدان السبعين" لتأييد نظام "صالح".

النساء في الحارتين تعلمن سرعة الإنجاز، والصغار تعلموا كيفية التعامل مع البضاعة، بدءا من الحصول عليها وانتهاء بأخذ أجرتهم على ما فعلوه. أصبح لهم كشف بأسماء النساء وعدد مشغولاتهن ونوعها وقيمتها، ومسؤول عن التوزيع واستلام الراجع، ومسؤول مالي يعطي له المال في الساحة حتى لا يفقده الصغار ويقوم بعمل حسابات المجموعتين.

موعدهم كان في العاشرة والنصف صباحا قبل الصلاة. لم يتأخر منهم أحد. الساحة تصدح فيها أغنية الجمعة الأثيرة: "ثورة ثورة ثورة، للشعوب الحرة، والشعوب تحيا بالنضال حرة". في الحادية عشرة

والنصف تتوقف الأغنية وتبدأ تلاوة القرآن الكريم حتى موعد أذان الظهر. أدار مهدي ويونس عملية توزيع المشغولات والعدد المناسب لكل نوع، وحددا للصغار المكان الذي سيجلس فيه خازن البضاعة في حال انتهى ما بحوزتهم.

أخرج مهدي، من كيس كبير كان ممسكا به، قبعات واقية من الشمس، بيضاء اللون، إلا في المقدمة فمزدانة بألوان العلم الجمهوري. وضع على رأس كل واحد منهم قبعة وأكد أنها لهم، لحمايتهم من الشمس وعليهم الحفاظ عليها. وناول ما تبقى من الكمية لأحد الصغار لبيعها بين المصلين. أكد يونس ومهدي لجميع الصغار أن عليهم الحفاظ على بضاعتهم وعدم الانجرار في المشاكل التي قد يسببها بعض البائعين غيرهم، وأن يلتقوا بعد الصلاة مباشرة في المكان نفسه. وبالترتيب ناول "خازن" البضاعة من الكراتين التي إلى جواره لكل واحد منهم بضاعته وسجلها في الدفتر، وانطلقوا، كلٌّ في اتجاه.

كان الصغار يقدمون رؤوسهم لمهدي ليضع عليها القبعات، وعلامات الفرح ظاهرة على وجوههم. والأصغر سنا منهم كانت ضحكاتهم مكتومة وعلى استحياء وامتنان في الوقت ذاته من هدية مهدي. لو تعرف يا مهدي كم أسعدتهم في تلك اللحظة! تعوَّد الصغار أن يَعطوا ولا يُعطى لهم إلا نادرا، ومن أقرب المقربين. المَنْح بالنسبة لهم عالم لا يعرفونه، لا يشعرون أنهم يستحقونه، لذلك عليهم دائما المطالبة بما هو حق لهم، بما يسد رمقهم ويروي عطشهم ويستر أجسادهم. سيعودون اليوم إلى أهاليهم بقبعات واقية من أشعة الشمس. بعضهم سيفاخر بها، وبعضهم سيخبئها حتى لا يأخذها منه شقيقه الأكبر أو تطلب منه أمه أن يعيرها لشقيقه الأصغر.

انطلق الصغار فرحين بقبعات مهدي باتجاه المصلين للبدء في مهمتهم. امتلأت "ساحة التغيير" منذ بدء الثورة بهؤلاء الأطفال، تتزايد أعدادهم كل يوم، فقد وجدوا لهم مصدر رزق التعب فيه أقل، والمكسب فيه أكثر. لم يتجاوز هذا العمل جمع القوارير البلاستيكية والعلب المعدنية وبيعها ليتم إعادة تدويرها. وهناك من كان مكلفا منهم بتنظيف بعض الخيام مقابل مبالغ بسيطة، وبعضهم يبيع مشغولات وصورا وقبعات ومظلات على الأرصفة وعند مداخل الساحة. يجد بعضهم أيضا وجبات مجانية في الساحة فيخفف عن أهله وإخوته. حب العمل الذي زُرع في أذهان البعض منهم كان أكثر بقليل من الاتكال الذي عمد إليه البعض الآخر منهم في التسول.

تصل المجموعتان إلى ديارهما سالمتين، إلى "حارة سوق علي محسن" و"حارة مذبح"، فتنتاب مهدي ويونس حالة اطمئنان وفخر معا. كلمات الإطراء التي يتلقاها يونس من أمه وجاراتها تزيل عنه تعب وقلق اليوم. وسيتميز مهدي عنه بخجل نظرات حبيبة، وكلماتها العذبة لشكره نيابة عن نساء حارتها، وهذا يجعل من تعبه وقلقه لا شيء يذكر أمام ما تمنحه إياه تلك النظرات والكلمات من نشوة تحرمه نوم الليل الهانئ.

مساء اليوم التالي سينضم مهدي لصبحية وبشرى وكمال في الكافيتريا، وسيطلب من ثلاثتهم مساعدته في إيجاد محل صغير يستطيع أن يبيع فيه منتوجات النساء طيلة أيام الأسبوع وليس يوم الجمعة فقط.

•••

(١٣)

لم يشغل كمال صمت صبحية وعدم رغبتها بالحديث عن ماضيها كثيرا فقد قرر أن يمضي بحكايته معها حتى أبعد مدى من العشق، ولن يشغله غير ماهية اللحظة معها ولها. سيمر في حكايته معها بكل ما مر به العاشقون. سيكتب لها رسائل غرامية، وسيرسل لها أشرطة عبدالحليم حافظ وأم كلثوم. سيتعاهدها على ألا يكون في مستقبلهما إلا السعادة ولا شيء غير السعادة. سيكون لها الوطن الذي حُرمت منه، وستكون له المرأة الكنز التي عثر عليها بعد عناء بحث. سيحافظ عليها لأنها ضوء الحياة القادم، ولن يعيش في ظلام الوحدة مجددا.

في اليوم التالي للقائهما الخالد في صنعاء القديمة، سيرى "كمال" "صبحية" كأنه يراها للمرة الأولى؛ ربما هو يريد أن يحتفظ بهذه الصورة في ذهنه إلى الأبد؛ لذلك رأى وجهها مشرقا بالعشق، نظراتها ناضحة باللهفة والشوق لرؤيته. كانت في انتظاره بابتسامة جذلى بالرضا جعلته ينسى حتى أن يسلم على بشرى التي لحظت تغيُّرهما. لم يكن مفاجئا لها؛ فقد كان ذلك الحب جليا لكل من رآهما، باستثنائهما هما نفسيهما. وحده الحب لا يخفى ضياؤه في وجوه المحبين. ووحده ينشر شذاه على كل من اقترب منهم. ستعاتبه بشرى بمحبة، وسيعتذر ويعترف لها:

ـ وافقت هذه السيدة الجميلة على مبادلتي الحب والحياة، فأسعدتني لدرجة أني لم أر غيرها؛ فاعذريني عزيزتي بشرى!

فتحت صبحية فاها واتسعت حدقتا عينيها دهشة من مفاجأة ما قاله كمال. ونهضت بشرى من مقعدها لعناقها وتقبيلها ومباركة "الحب

الثوري". قالت إن منصة الثورة ليلة أمس باركت زواج شاب وشابة تعرفا على بعضهما منذ أسابيع في الساحة ثم صارا جاهزين عاطفيا واجتماعيا لهذا القرار المصيري. وأردفت:

- يبدو أن الأجواء الثورية تعمل لصالح الحب، تساعد الشباب على إحراق المراحل وحسم اختياراتهم خلال زمن قياسي!

بدا على صبحية عدم رضاها على ما قاله كمال للتو عن حبهما، وغير متفقة مع بشرى في مسألة الحب الثوري. لذلك قالت:

- لا أعتقد أن ساحة العمل الثوري هي المكان المناسب للحب، ناهيك عن الزواج! على الثائر أن يكرس نفسه للثورة، وإذا أراد أن يشبع نفسه عاطفيا فعليه أن يحب عملية التغيير التي ترتكز عليها الثورة، وخارج هذا الإطار يمكنه أن يمارس ما يشاء دون ربطه بالثورة، وهذا يُمتع الثائر بحالة عاطفية سوية لا تجعله ينحرف عن العمل الثوري، بل يمده بالقوة والدافع للاستمرار حتى النصر.

ابتسمت بشرى في وجه صبحية وهي تؤكد أن كلامها متناقض وليس له إلا معنى واحد هو ألا يكون في الساحة أي حالات حب وزواج بينما خارج الساحة يمكن أن يحدث ذلك، بل تدعو له لأنه في خدمة العمل الثوري، ثم وجهت إليها الكلام بنوع من الاستغراب من أن يكون هذا رأيها، في الحقيقة هي صدمة لبشرى من طريقة تفكير صبحية، بينما اكتفى كمال بالصمت ومراقبة نقاش الصديقتين. أردفت بشرى:

- العمل الثوري يجب ألا يلغي حياتنا العاطفية، بل يساعد في أن تكون ناضجة وتلائم الغريزة الإنسانية في الاحتياج لها، حتى لا يتحول الثائر، وأنا أعني هنا الرجال والنساء، إلى مجموعات من المعقدين الذين يحتاجون لتلقي العلاج النفسي وليس لتحقيق رسالة إنسانية نبيلة. لقد

استمعت لكمال في إحدى محاضراته التي كان يعدد فيها الصفات التي يجب على كل مشارك في هذه الثورة أن يتحلى بها، وذكر أهم صفة، وهي الإيثار، ألا تحتاج هذه الصفة إلى أن يُنقي الثوري نفسه من النوازع الأنانية، ويمتلئ بحب الآخرين، ومن أجل ذلك يجب ألا يُغلب ظنونه السيئة فيهم ويذهب إلى إدانة مشاعرهم وتجريم حقهم في ممارسة عواطفهم. وإذا كان الحب شراكة عادلة ومُنَصفة بين شاب وشابة فلماذا لا تكون ساحة الثورة هي المكان المناسب لإعلانها، وتكون أجواء الثورة فرصة لوضع الحب في إطار عملية شاملة لأنسنة العلاقات الاجتماعية وتحرير الحياة العاطفية للناس من الخواء ودواعي الزيف.

شعرت بشرى بأن نبرتها بدأت تعلو حانقة من كلام صبحية، وأن هذا يجب أن يصلها. خفت نبرة الحدة وعادت للابتسام في وجه صبحية وهي تؤشر بسبابتها كمن تقول لها: يجب أن تدركي وتستوعبي ما سأقوله لك الآن:

ـ الثورة والحب يا صبحية ليسا على طرفي نقيض. الثائر الذي يحب لا تنخفض لديه السمات الثورية، ويمكنه مجابهة الأخطار الثورية دون أن يضع نهاية للحب. ورأيك هذا يا عزيزتي دليل على حالة بين المعايير المزدوجة لديك ووجود تناقض واضح في مفاهيمك.

توقفت بشرى عن الحديث، فبادرتها صبحية:

ـ أقسم يا عزيزتي أنني أفهم ما تقولينه وأعيه تماما، وكل ما قصدته أن الثورة فعل عام، وأن الحب علاقة خاصة، ويجب الفصل بينهما. لكن الآن فهمت من كلامك أنه يجب تنظيم العلاقة بينهما، وليس فصلهما، فشكرا لك.

وقبل أن ترد بشرى التقط الخيط كمال الذي كان مستمتعا بحوارهما:

- الثورة عمل تاريخي من أجل التغيير، وإيجاد متطلبات وشروط أكثر إنسانية لحياة المجتمع. والحب أهم علاقة إنسانية يجب تحريرها من الكبت والابتذال. فالثورة القادرة على تغيير الظروف الاجتماعية والسياسية السائدة تغير أيضا الظروف الواقعية التي ينشأ فيها الحب، فتتعزز به، لأنه يعطيها بعدا أكثر إنسانية تقلل من أخطائها إن وجدت.

وبنظرة تنضح حبا وحنانا لصبحية، قال لها ما جعلها تُنكس رأسها خجلا في وجود بشرى:

- الحب يا حبيبتي أثناء الثورة يقويهما معا؛ لأن الشريك حبيب ورفيق في العمل الثوري.

ستغادرهما بشرى بعد أن تجدد تهانيها لهما. أما هو فيكتفي بالنظر إلى حبيبته ومناولتها أول رسالة حب بينهما.

●●●

(١٤)

عادت صبحية إلى خيمتها بعد النقاش مع كمال وبشرى. شعرت بارتياح لكلامهما، وتغير ما كان عالقا في ذهنها من التباس بين الثورة والحب. وهي تستمع لهما كانت تفكر في كلام حبيبها السابق حميد عن الحب وضرورة إخفاء الحب وليس المجاهرة والفخر به. كان تأثيره عليها أكثر مما تخيلت. لكنها ستتعافى منه. أي علاقة حب بين رجل وامراة لا ترى النور هي مرض يحتاج إلى علاج. وصبحية في طريقها إلى التعافي.

في خيمتها المتواضعة من قماش بلاستيكي وبعض البطانيات التي جلبتها من منزلها لتقوية جدار الخيمة، فتحت رسالة كمال، أول رسالة

كما قال لها؛ ربما لتنتظر المزيد أو لتحلم به. مدت جسدها على الفرش الذي يعلو دكة مرتفعة عن الأرض من أحجار "البلوك" الأسمنتي. وإلى جواره كرتون ورقي فيه بعض مستلزمات صبحية، أضاءت الخيمة بشمعة قربتها إلى جوارها وراحت بلهفة تقرأ رسالة كمال. كانت في قمة نشوتها وهي تسمع دقات قلبها المتسارعة من الفرح، تزين مُحياها ابتسامة لهفة وترقب. تركت ذاتها على سجيتها وراحت تقرأ بعناية:

"حبيبتي صبحية! كم تبدو لي هذه الكلمة جلية الآن؛ لأنها تخترق كل كياني وأكاد أشعر بتدفق دم الحب في عروقي! إليكِ ملامح تفاصيل عريضة عن حياتي؛ هي بداية تقول لحبيبتي الخالدة من أنا:

ولدتُ في قرية "العارضة" ليست عارضة أزياء، ولا عارضة مرمى في ملعب كرة قدم فملامحها الكئيبة تؤكد أنها لم تكن كذلك في يوم من الأيام. يمكن الوصول إليها بالسيارة عبر طريقين ترابيين ثم تكملة بقية الطريق مشيا على الأقدام. إذا أتيت من الشمالي الغربي ستري أنها تقع في نهاية أراض مكللة بالهضاب، وتطل على واد سحيق. عند النظر إلى الشرق من القرية يمكن رؤية سلسلة جبال مستقيمة كأنها مقصوصة بمقص. في الأسفل هناك طريق الوادي الذي يتلوى كأفعى عملاقة من الشرق صعودا باتجاه الغرب. كغيرها من القرى كانت حتى ثمانينيات القرن العشرين تعتمد في غذائها على محاصيل الحقول ومنتجات الحيوانات بنسبة كبيرة. تزرع جميع أنواع الحبوب ولا يوجد فواكه أو خضراوات نظرا لقلة الأمطار في الصيف. قلّت الأمطار تدريجيا وبدأنا بالاعتماد على المدينة شيئا فشيئا. حين تأتي السيارات القليلة مساء كان بالإمكان رؤية أضوائها من بعيد. في الإجازة الصيفية كنا أنا وأمي ننتظر مثل هذه الأضواء بفارغ الصبر. فكل ضوء يحمل على موجاته

بشارة قادم جديد من المدينة. في موسم الأمطار صيفا كنت أترقب بشوق قدوم بنات خالي من المدينة. فقد كن تسليتنا الوحيدة وسط وجوم القرية. كان الجو معتدلاً صيفا تزيده الأمطار قليلا من البرودة وفي الشتاء هواء عاصف مع برد غير قارس.

عرفتُ لاحقاً أن "العارضة" ليس اسم قريتي فقط بل اسماً لقرى أخرى منها قرية باتجاه الشرق قرب منطقة "قدس" نزح منها جدي لأبي أحمد عثمان. ولنزوح جدي قصة لم يخبرني بها أحد. حكاية ليست من اختراعات خيالي الخصب لكنها من بنات تفكيري لسنوات طويلة في تاريخ عائلتي المحير. لم أعاصر جدي لأمي "قاسم"؛ لكن الأقاويل حول ممارسته للتنبؤ يعرفها الأهل والمقربون ومن عاصروه. والتنبؤ ربما كلمة ملطفة لممارسته السحر والشعوذة. ولهذا السبب طُرد من قريته وفرّ إلى منطقة غير مأهولة، استقر فيها هو وأسرته. كبرت الأسرة وتحولت إلى قرية صغيرة مكونة من أربعة بيوت حجرية صغيرة بعدد أبنائه الذكور الأربعة، إضافة إلى الدار التي بناها جدي عند قدومه إلى تلك المنطقة. ابنه الخامس فرّ إلى تعز وعاش هناك طيلة عمره ولم نعرف عنه الكثير. يقولون إنه مات وحيدا في دكان صغير كان يتخذه مأوى، واكتشفت جثته بعد يومين من موته. ما جعلني أميل إلى سيناريو الهروب هو اكتشافنا قبل سنتين تقريبا من الآن أن جدي ترك أراضي في قريته الأولى؛ كان يأمل في العودة إليها مجددا، وحالت ظروف ما دون عودته.

القرية الصغيرة كبرت مع الوقت عندما بنى الأحفاد وأبناء الأحفاد بيوتهم الخاصة. ومع ذلك تبدو قرية صغيرة حين ينظر إليها من بعيد فتبدو في منتصف جبل غير شاهق ولا وعر. يتشارك سكان البيوت

القديمة السكن مع الحيوانات. بيتنا القديم كان مؤلفا من دور واحد فقط، جزء منه مخصص للماشية. كان لدينا بقرة وحمار وخراف. بعد سنوات بنى أبي غرفتين في الدور الثاني. مع مرور السنوات اختفت الماشية من بيوت الناس. المُيسر وحده من استطاع الاحتفاظ ببقرة.

أما عن طفولتي يا حبيبتي. فليس لميلادي تاريخ محدد. لم يجد أبي وأمي أهمية لتسجيل تواريخ ميلادنا. تاريخ الميلاد مناسبة لذكرى فرحة يريد الآباء استعادتها مرة كل عام على الأقل. أبناء بلا تاريخ ميلاد يعني أنهم سيظلون منسيين وكأنهم لم يولدوا في يوم ما، في شهر ما، في سنة ما. كانت أمي تقول إنني ولدت قبل قدوم أبي من الرياض بشهرين أو ثلاثة. لم أعد أتذكر. وكأنّ التقويم لمّا يخترع بعد. الشيء المؤكد أني ولدت بعد الطوفان. عندما كبرت صرت أحسب سنة ميلادي منذ دخولي إلى المدرسة ثم الجامعة وهكذا يصبح عمري ٤١ إذا كنتُ من مواليد ١٩٧٢؛ لكن أخواتي الأكبر مني سنا ينظرن إلى أعمارهن المتسربة خلسة فيقلن إنني من مواليد ١٩٧٤، أصدقهن بدوري؛ لأني ضعيف في الحساب، وصرت أنسى؛ بسبب حجرين سقطا على رأسي الطفولي، مازالا يقتطعان كل فترة وأخرى جزءا من ذاكرتي. ثم إني ضعيف أمام النساء وأصدق كل ما يتلفظن به. والأهم أن عمري هو الآخر يتسرب. ولأن إيقاف الزمن مستحيل فكل ما نستطيع عمله هو عدم تعليق تقويم على حائط الحياة. الأبناء أيضا يريدون أن ينسوا تاريخ ميلادهم. وها نحن نلعن اليوم الذي ولدنا فيه دون أن نعرفه فكيف بنا إن عرفناه؟! تاريخ الميلاد غير كاف إذا لم يرافقه احتفال سنوي مليء بالبهجة والحب.

أنا الابن السابع؛ قبلي ثلاث بنات وثلاثة أولاد. هذا الرقم المقدس يجعلني أشعر بالشؤم منه حين تتناهى إلى سمعي أصداء حكاية عن

جدي الذي اقتضى تعامله مع الجن تملكهم للابن السابع. ربما تكون هذه الحكاية من أصداء خيالاتي، لولا أني أجد ما يدعمها في الواقع. منها: إن أبي وأمي كانا قد توقفا عن إنجاب المزيد من الأبناء، مكتفين بخمسة فقط؛ لكن بعد عودتهما من مكة عادت مياه الرغبة بينهما، فأنجبا ثلاثة ذكور آخرين، أنا آخرهم. ومنها أنني أشعر بوجود روح تلاحقني وتقيدني. وكثيرا ما أتحسس أذني اليسرى وأفكر أن هذه الحزة في طرفها الأعلى الشبيهة بقضمة هي عضة شيطان اقتطع منها جزءا ليستطيع تعقبي. قضمة أذني أشبه بالختان الذي يتذكر به بنو إسرائيل عهدهم مع الله. أتخيل هذا فتزداد الحكاية يقينا. ومنها أن أبي لم يكن يحبني؛ أحبَّ الجميع بدرجات متفاوتة، عداي. كان غالبا ما يعقد مقارنات بيني وبين إخوتي، وكأني ابن رجل آخر. ذات يوم أتت امرأة صديقة لأختي تعرفنا من القرية قالت لي إنني قريب الشبه بعمي. ملاحظتها أعادت وساوسي القديمة إلى ذهني.

عندما ولدتُ كان أبي في الرياض؛ لذلك أطلقت عليّ أمي اسم "رياض". وربما يكون هذا سببا آخر لكرهه لي! اعتقدَ أني ابن حرام؛ لكني اليوم على ثقة بأني ابنه. بالرغم من أنه لم ينادني يوما ابني ولم أناده أبي! لذلك غيّرت اسمي في شهادات المدرسة إلى "كمال".

تخبرني أخواتي في بعض الأحيان أنه لم يكن يعامل الجميع معاملة واحدة: "لست الوحيد الذي لم يحبك أبي"، تقول لي أميرة. هذا صحيح؛ لكن في بعض الأوقات أظهَر للبعض مشاعر، وأحب أخي الأوسط فواز حتى يوم وفاته؛ لكنه لم يظهر لي أية مشاعر، وهذا ما أزعجني طويلا وأغضبني. كثيرا ما كنت أصاب بأمراض مختلفة في طفولتي؛ لكنه لم يكن يدخل الغرفة التي أنام فيها ولا يسأل عن حالتي. كانت أمي تدفعني

للترحيب به عندما يأتي من السفر؛ لكني كنت أخاف منه وأخجل. أب يعاملك بقسوة هو نوع من الاهتمام. وأن تنشأ وأنت لا تعرف من يكون والدك أهوّن من أب موجود بجسده غائب بروحه. لا يوجد أسوأ من أب حاضر بجسده غائب بروحه!

لم يمكث أبي في السعودية سوى عام تقريبا. عندما عاد من الرياض بنى بما جمعه من مال طاحونا ودكانا صغيرا. تعلمت أمي العمل على الطاحون. كانت هي التي تعمل وتكدح عليه ثلاثة أيام في الأسبوع تقريبا. لم يعترض على تغيير اسمي، ولم يستغرب وقد اعتاد الجميع على مناداتي كمال.

لم يكن أبي يجيد القراءة والكتابة. يستطيع كتابة وقراءة بعض الكلمات بصعوبة بالغة. أمي كانت لا تقرأ ولا تكتب؛ لكنها ربتنا نحن الذكور على حب التعليم. أتذكرها وهي تجلس معنا وقت أداء الواجبات ونحن صغار. كانت تطلب منا أن نقرأ الأناشيد أو آيات من القرآن وتقوم بتسجيل أصواتنا في أشرطة. كان صوتي يعجبها، ولذلك كان أخي هلال يغار مني، وكثيرا ما نغص حياتي. في يوم ما تشاجرنا، أخذ يقذفني بالحجارة من سطح المنزل، وبدوري قذفته بالحجارة، وبينما ألتقط حجرا رماني على رأسي بحجر. كانت الشمس حارقة في وقت الظهيرة، فانبجس الدم غزيرا حارا. هرولت إلى بيت جدي والدم يختلط بالدمع وصوت خشخشة في رأسي تؤلمني وتدفعني للتوقف. عندما وصلت إلى البيت لم تغضب أمي كثيرا. كانت تساوي بيننا في المعاملة. لم أكن أدرك هذا عندما كنت طفلا. كان هذا هو الحجر الثاني. الحجر الأول رماني به مصطفى، على رأسي أيضا، قبل ذلك بسنة.

عشتُ طفولتي في شبه عزلة. حاولتُ أن أكون كبقية الأطفال العاديين؛ ألعب وأمرح؛ لكن ثمة منغصات حالت دون استمتاعي بطفولتي. في أحد الأيام استيقظت من النوم على لغط حول أخي الكبير، خلدون، وهو يتحرش بي. كنت حينها في الرابعة أو الخامسة من العمر، ولم أكن أعرف شيئا عما يتحدثون. كل ما عرفته أني بينما كنت نائما أتى أخي ونام خلفي. كنتُ أعتقد أنها لعبة ورحت أقلدها مع الأطفال الذين أصبحوا يخافون مني فتشتكي أمهاتهم من تحرشاتي البريئة بهم. فكرتُ في سبب عدم لوم أحد على ما فعله أخي، بينما أُلام على نفس فعله! مع الأيام لم تعد تلك اللعبة تستهويني. عندما أصبح عمري عشر سنوات تقريبا قام أخي الكبير، هلال بلعبة أخرى لم أكن أعرفها؛ أخرج عضوه وجلس يهزه أمامي وهو يخبرني بحليب سوف يخرج منه بعد قليل. لم أعرف ما كان يقوم به إلا بعد أن كبرتُ. بعد سنوات من تقليده كنتُ أمارس العادة السرية على صور النساء في المجلات العربية. عرفت أن أخي كان يستخدم وجهي الطفولي الجميل كمجلة، فكرهته ومازلت أكرهه. يومها قلدته؛ كنتُ أريد أن أُخرج الحليب. استمتعت باللعبة؛ لكن الحليب لم ينزل. بعد سنتين تقريبا نزل الحليب بعد أن أجهدت نفسي في لعبة مؤذية تعلمتها بهدف الفضول ثم تحولت إلى رغبة.

رفضت الذهاب إلى المدرسة في البدء. كنت أخاف كبقية الأطفال. لكن فيما بعد رضخت للأمر الواقع. في المدرسة كنتُ خجولا جدا. كنت أجلس في الصف الأخير بالرغم من أني كنت متفوقا. لم أكن أجرؤ على العراك خوفا. ولأني كنت أعرف ألا أحد سيدافع عني. الأطفال الشجعان يستمدون شجاعتهم من علاقتهم القوية من آبائهم. وأبي لم يكن ليتدخل في حياتي، بل على العكس كان سيقف ضدي لو أخبرته بشجار أو عراك

مع أحد الأولاد. لذلك كنت أفضّل أن أكون جبانا على أن يصل الأمر إلى البيت. لم أُقم صداقات مع بقية الأطفال. كنتُ أعتقد أن الجميع ينظر إليّ نظرة جنسية مثلما فعل خلدون وهلال.

في الصف الأول ذهب هلال إلى المدرسة لمعرفة نتيجة الامتحانات. عاد إلى البيت وقال بمرح إنه نجح بينما رسبت. تظاهرت بالتماسك وأجبته بأنه يكذب. ذهبت إلى السطح وبكيت كثيرا. في النهار الثاني فقط اعترف بأني ناجح وهو راسب. لم أرسب قط طوال سنوات دراستي المدرسية والجامعية. كنت من المتفوقين في المدرسة، ولم أفقد مكانتي بين زملائي كمتفوق حتى مع بداية تراجع مستواي في مادة الرياضيات، وتحديدا مع درس الكسور. كنت واثقا من نجاحي في جميع المواد قبل أن أدخل الامتحانات، ما عدا مادة الرياضيات. المادة التي كنت لا أذاكرها هي الإنجليزية. كانت مادتي المفضلة، لذلك لم أعانِ فيها مطلقا.

أختي أميرة هي الأقرب إليّ؛ هي بمثابة أمّ لي الآن. أول حادث قربها مني عندما كنت في السادسة من العمر. ذهبت إلى منزل في القرية المجاورة. كان محسن يمتلك كلبا. اقتربت من منزله وبدأ الكلب بالنباح. بدأت بالجري مبتعدا عن المنزل. كان محسن يصيح بي أن أتوقف؛ لأن الكلب هرع خلفي عندما جريت. منعني الخوف من التوقف، صعدت على جدار صغير؛ لكن الكلب لحق بي وعضّ قدمي اليمنى. مازالت الندبة حتى اليوم. عدتُ إلى البيت ولم يكن أحد هناك. تمددتُ على الفراش حتى أتت أميرة. أخبرتها بما حدث، فصرخت خوفا عليّ. ثم أخذتني بالسيارة إلى منطقة في منتصف الطريق إلى المدينة لأخذ إبرة وقاية خشية أن يكون الكلب مسعورا. عندما عُدنا إلى البيت أخذت أختي البكر

غادة تخبرني بأني بعد فترة سأتحول إلى كلب وأنبح ثم سأعض أقرب شخص لي. كنتُ أصدق ما تقوله، فشعرت بخوف شديد وكثيرا ما عانيت من كوابيس بسبب ما قالته لي منتظرا اليوم الذي سأتحول فيه إلى كلب. من يومها تأزمت العلاقات بيني وبينها؛ لكني غفرت لها اليوم، بعد أن طلبت مني المسامحة دون أن تشير إلى ذلك الحادث بالتحديد؛ لكني أغفر لها، فقد لاقت هي أيضا الكثير من العناء والمشقة، من أبي ومن الأهل.

كنتُ صغيرا؛ لكن مازال في ذاكرتي أصداء عن أحداث سياسية مهمة مرّ بها البلد. كنت على سطح منزلنا ذات يوم والنساء يتحدثن أمام بيوتهن المتقاربة عن مقتل الرئيس إبراهيم الحمدي، ثم الرئيس أحمد الغشمي. لم يكن هناك سوى قلة يملكون أجهزة راديو، وكانت الأخبار تصل من قرية إلى أخرى شفاها. أحب الرئيس الحمدي. لم أعاصره؛ لكن نواياه الحسنة لتكوين دولة مدنية قوية بلغت مسمعي من بسطاء الناس، ثم قرأت عنه فيما بعد لتترسخ قيمته أكثر. من يومها تكون لديّ انطباع بأن أصحاب المشاريع الصادقة يصلون إلى قلوب الناس ومشاريعهم تقاوم الزمن ولو لم يتم تنفيذها. إبراهيم الحمدي وجمال عبد الناصر من الزعماء الصادقين الذين لم يبنوا مجدا شخصيا لهم وكان همهم بناء دول قوية وتحقيق نهضة، لولا المؤامرات الداخلية والخارجية التي حالت دون تنفيذها.

حبيبتي! دعيني أكتبها الآن كثيرا صبحيتي، سأحب كتابتها وسأحب قولها لك بلا توقف: حبيبتي، حبيبتي، حبيبتي..

بسبب ابتعاد أبي عني، كانت أمي هي ملجئي الوحيد. تعلقتُ بها كثيرا. كانت تجهد نفسها كثيرا في العمل في الحقول القليلة التي

نمتلكها. وعندما امتلكنا طاحونة كانت تعمل عليها. كثيرا ما كانت تعاني من مشاكل صحية. كنت أسمعها وهي تقضي الليالي في أنين متواصل، وعندما أستيقظ صباحا تكون وسادتي قد تبللت بالدموع. حرصتُ على مساعدة أمي قدر المستطاع في الحقول والطاحونة. كنتُ المسؤول عن جلب الماء من قرى بعيدة على ظهر الحمار. كانت أمي تستيقظ في الخامسة صباحا تعد لنا الخبز الساخن مع الشاي، نتناول جزءا ونأخذ بعضا منه لتناوله أثناء الاستراحة في المدرسة.

تبعد مدرسة القرية حوالى الساعة مشيا على الأقدام. كنا نمشي المسافة ذهابا وإيابا. ذات مرة أثناء عودتنا من المدرسة جرت العادة أن نتوقف عند بئر لشرب الماء. عمق البئر حوالى المترين. نزلتُ مع بعض الأطفال. بعد أن فرغتُ من الشرب، وفي اللحظة التي رفعت فيها رأسي سقط عليه حجر كبير أسال الكثير من دمي. كان مصطفى هو من أسقط الحجر عنوة. غسل لي محمد القاضي الكثير من الدم. أكملت طريقي إلى البيت وأنا أبكي. يومها أخذتني أمي إلى عاقل القرية المجاورة لنقدم شكوى. من كمية الدم المتبقية قضى العاقل بأربعة آلاف ريال جزاء على والد مصطفى. كان المبلغ كبيرا بحساب تلك الأيام. ورغم فقرنا الشديد لم تأخذ أمي المال. سألتها عن السبب فقالت: لا يجوز أكل مال الدم!

تزوجت أمي من أبي في سن صغيرة؛ في الثانية عشرة تقريبا. جدي لأمي، سعيد عبد الله، جاء من قرية قراضة في "قَدس"، وسكن بالقرب من قريتنا. جدتي كانت امرأة منفتحة ومتحررة، تحب الغناء والرقص والسفر، وتكره أعمال المنزل. لم أشاهدها تعمل في المنزل مطلقا. كان الجميع يتفانى في خدمتها، فقد كانت تتمتع بشخصية قوية. كانت تنظم الشعر الشعبي أحيانا وتردد ما تحفظه ذاكرتها. مازلت أتذكرها

والأطفال متحلقين حولها وهي تقول: "حبيبي جبيتك، وسط القلب خبيتك، يا ليتك يا ليتك، تمنيتك ليتك"، ثم تضحك وتضحكنا معها. كانت تحب الأطفال وتحب شَعر المرأة الطويل، وسروالها. أول شيء تتفقده يدها وهي تسلم على أي امرأة لا تعرفها من قبل هو شَعرها، وترنو ببصرها لترى سروالها. تقول إن الشَعر هو جمال المرأة، والسروال حشمَتها.

منذُ وعيت لم تكن العلاقة بين أبي وأمي على ما يرام. كان أبي كثير الصمت، وقد ورثت عنه صمته. كان "مُدْبِرا" على الدوام. في بعض الأحيان كانت الخلافات تشتد بينهما، ولم أكن أعرف سببها. كانت أمي تذهب إلى بيت جدي لفترة ثم تعود. في آخر خلاف بينهما تطلقا. كنت في العاشرة من العمر تقريبا. بقيت في البيت مع أخي هلال وأختي فرح في غرفة، بينما أخي فواز، دلوع أبي، كان ينام دائما في غرفته. عندما تزوجت أختي بقيت في الغرفة لوحدي [illegible] انتقلت للعيش مع أمي في بيت جدي. بقية إخوتي [illegible] زوجوا قبل أن أعي وجودي. مات أبي وحيدا ذات مساء بارد. قبل أن يخلد للنوم طلب من حفيده جلال كوب ليمون. شربه ونام. وجدوه في الصباح وهو متخشب في ركن الغرفة. عندما بلغني خبر موته بهذه الطريقة البسيطة راودتني فكرة انتحاره. ربطت هذه الفكرة بما قاله بعد موت أمي مباشرة. ذهبنا إليه في المساء بعد انتهاء الليلة الأولى للعزاء وطلبنا منه أن يسامح أمي. كان عنيدا كعادته فذكّرناه بموته. قال: "سأضع رأسي على المخدة وسأموت بدون معاناة".

كنتُ متعلقا بأمي بشدة، وكثيرا ما كنت أبكي بحرقة عندما تسافر لأيام إلى الحديدة عند خالي. هناك الكثير من ذكرياتي معها خلال الثلاث سنوات التي قضيتها في بيت جدي. الذكريات من بين أسباب

توقفي عن العودة إلى القرية. كان خالي يساعدنا من وقت لآخر ببعض المال. ولفقرها الشديد كانت أمي تحدثني عن نيتها العمل كمنظفة في مستوصف يبعد عن القرية نصف ساعة مشيا. مازلت أحس بغصة كلما تذكرت هذا الحديث، وغصة أخرى تذكرني بها كلما شاهدت الشمّام أو البطيخ.

عندما توفي جدي، بعد معاناة من مرض السل، أتى خالي من الحديدة إلى القرية. قضى ثلاثة أيام ثم عاد. بعدها بأسابيع عرض على أمي أن يأخذني معه لأعيش مع عائلته في الحديدة. ترددت كثيرا في القبول. أخذت أمي تغريني بكثرة الطعام وتنوعه هناك. قالت لي إن الثلاجة ممتلئة دائما. لم أقتنع؛ لكن هلال دخل في الخط وقال لي إن لم أذهب فسيذهب هو. كنت في الثانية عشرة، فاعتقدت أنه صادق، مع أنه لم يكن كذلك، فلم يكن خالي ليقبل به؛ لأنه أكبر، ولم يكن مطيعا مثلي. سافرت ونقلت دراستي إلى الحديدة. عدت بعد سنة في العطلة. كان هلال ينظر إليّ نظراته القديمة. انتهت العطلة فعدت إلى الحديدة ولم أعد لزيارة القرية إلا بعد مرور أكثر من ثلاث سنوات.

أثناء غيابي استحوذ هلال على قلب أمي. باعت ذهبها القليل من أجل تعليمه في المدينة. شعرت بالغيرة لأني كنت الوحيد الذي يساعدها في أعمال المنزل. قبل سفري إلى الحديدة رعيت الخراف لمدة سنة، من الظهيرة وأعود وقت الغروب محملا بحزمة كبيرة من الحشائش للبقرة. ذات مرة عندما أتت أمي إلى الحديدة في زيارة طلبتْ مني المال، فقلت لها بحدة: "المفروض أنت وأبي تعطونا المال!". ندمت على ما قلته؛ لكن بعد فوات الأوان. ومرة أخرى طلبت مني أن أرسل لها بطيخا وشمّاما. كانت تحب البطيخ والشمام. لم أجب على الرسالة. بعدها بحوالى ستة

أشهر مرضت مرضها الأخير ودخلت في غيبوبة في "المستشفى الجمهوري"؛ بسبب خطأ في التشخيص، ولم نجد لها علاجا. استمرت في الغيبوبة لمدة أسبوعين، ثم ماتت. لم أتمكن من البكاء يومها. بعد الانتهاء من مراسم العزاء. سافرت إلى الحديدة وبكيت حتى اختنقت. كانت تأتي في أحلامي كل ليلة، لسنتين تقريبا. في الحلم تخبرني أنها لم تمت. فاعتقدت بأننا دفناها وهي مازالت على قيد الحياة.

سفري إلى الحديدة حرمني من أمي وأنا مازلت طفلا قرويا. وهذا أثر عليّ كثيرا فيما بعد؛ فكثيرا ما تساءلت عن السبب الذي جعل أمي تتخلى عني؛ أهو الفقر؟ نعم، كنا فقراء، وكنت ألبس من بقايا الثياب التي تأخذها أمي من صديقة لها لم يعد ابنها يرتديها. كلما أتى رمضان أتذكرها. كانت تأخذني بعد العشاء إلى قرية مجاورة لزيارة بعض الأقارب. كان الهدف في الظاهر هو زيارتهم، والحقيقة من أجل الحصول على بعض المال والخضر. أتذكر ذلك وأشعر بغصة إلى درجة لم يعد للمال في حياتي الآن أي قيمة؛ لأن أمي ليست هنا لتتمتع به. لم أتزوج حتى الآن. أتذكر أمي وهي تعد الطعام وتقول لي: "غدا ستكبر وستتزوج وتنساني!". لم أتزوج حتى الآن، كي لا أنسى أمي. هذا أحد الأسباب، أخرجه من قبو اللاوعي وهناك أسباب أخرى.

عشت في الحديدة من ١٩٩١ إلى ٢٠١١ . منها حوالى ست سنوات في بيت خالي. بدأت العمل بعد الثانوية العامة في مستوصف خاص. كنت أعمل من الرابعة عصرا حتى الثانية عشرة ليلا، ثم أنام في إحدى غرف العيادات. كثيرا ما كنت أستيقظ بسبب وجود حالات طوارئ. أذهب في الصباح إلى الكلية، وأعود إلى البيت ظهرا، أشتري "القات" لخالي ثم أتناول الغداء وأستريح قليلا وأذهب إلى المستوصف.

لم ينجب خالي أولادا. له خمس بنات؛ لذلك أحضرني للعيش معهم، كي أقوم بالأعمال خارج البيت. أدركت بعد تفكير أن قرار إحضاري كان منفردا من قبل خالي، وأن زوجته، لم تكن موافقة، وهذا ما سبّب لي بعض المشاكل. فصرت بين نارين: نار العودة إلى القرية وما بها من منغصات وذكريات مؤلمة، ونار البقاء في بيت خالي. أعتبر خالي الآن مثل أبي؛ رغم أنه لم يولني الاهتمام الكافي. وكذلك أعتبر زوجته مثل أمي، بالرغم من كل ما بدر منها. عتبت على أمي لأنها تخلت عني في وقت كنت في أمس الحاجة لها. سامحتها؛ لأنها تريد مصلحتي؛ لكنني لم أسامح نفسي على تقصيري في حقها.

صبحيتي! سأتوقف هنا. بالتأكيد لكل منا حبٌّ أول؛ ولكن ليس له حبٌّ أخير. ومن يقول غير ذلك فهو لم يعش الحب بعد، وهذا ما سأكتبه لك في الرسالة القادمة. دمتِ لي حبيبتي".

●●●

(١٥)

سيفشل الشباب في توحيد صفوفهم التي كانت عبارة عن تكتلات ومُنسقيات لمجاميع مختلفة. وستنجح الأحزاب في استمالتهم ناحية توجهات تصب في مصالحها، وليس مصالح الوطن. سيظل الشد والجذب بين اختلاف التوجهات والآراء داخل الساحة مستمرا، وإن ظهر في بادئ الأمر أن هناك إجماعا على إزالة النظام الفاسد، فإن هذا الإجماع أصبح أكيدا.

يدفع الثمن الشباب أنفسهم، أرواحهم، التي ستتجاذبها الأحزاب لصالحها. ستجعلهم يتقدمون المسيرات الخطرة التي حذرت منها قوات

الأمن. ستتفاخر بأن عدد شهدائها أكثر، وستستمر في دفعهم للموت، في اتجاهات خطرة وممنوعة، لتعطي ذريعة إطلاق النار على سلمية الثورة منذ بدايتها. واجهوا الغاز وخراطيم الماء بحجارة الأرصفة التي اقتلعها خوفهم وقلقهم، وسيواجهون الرصاص الذي لا يعرفون مصدره بأجساد هزيلة تسير إلى حتوفها التي لا تعلم أي جزء ستختار رصاصة الأمن منها. كان لا بد لكل مسيرة من شهداء. لا يهم كم العدد. ولكل مسيرة جرحى أكثر!

لماذا؟ لا نعرف! ولماذا تغيرت مسيرات شباب الساحة لتلك الأماكن؟! لا نعرف! ولماذا لم يتقدم صفوف تلك المسيرات قادة الأحزاب الداعية لها أو أعضاء اللجنة التنظيمية؟ لا نعرف!

هذه الأسئلة باتت تحير كمال وصبحية وبشرى. بعد أن غيرت مسيرة ٢٧ أبريل مسارها من جهة اليسار للسير في "شارع الستين" ثم دخول "شارع الرباط" والعودة إلى الساحة، إلى يمين الشارع المؤدي إلى "جولة عمران" باتجاه "الحصبة" ثم "الدائري" والعودة إلى الساحة من جهتها الشرقية. وأمام "استاد الثورة الرياضي" كان هناك بلاطجة النظام، وأعلى وداخل الصالة الرياضية تمركزت قوات الأمن. اعترضوا المسيرة، وبدأ إطلاق الرصاص على المتظاهرين. تفرقوا، وتعثروا بمؤامرة تم زجهم فيها كعدد. المسيرة كانت مفجعة وموجعة. كانت الدماء لزجة على الاسفلت، تشبثت به لتخترق مساماته وتحمي طراوتها، بينما الشباب تشبثوا بوهم الزحف وشل مؤسسات الدولة دون وعي.

قبل أن تصل المسيرة، التي خرجت تحت ذريعة رفض "المبادرة الخليجية" كحل خارجي، أمام مبنى التليفزيون، خرج يونس وأصدقاؤه من تلك التبة المرتفعة في مؤخرة "سوق علي محسن" يرقبونها بانشداه

تام. كان عدد المشاركين في المسيرة كبيرا. تجمعوا في الجهة اليمنى من الشارع، وتركوا الجهة اليسرى لمرور السيارات. وعلى مقربة من الشباب، وعلى مسافات متساوية، كانت هناك سيارات إسعاف، وسيارات يعلوها ميكروفونات لترديد شعارات المسيرة. وغير اللافتات الكبيرة التي كان يحملها عدد من شباب اللجنة التنظيمية ذوي القبعات البيضاء والمريول الفسفوري كانت هناك لافتات كثيرة كتبها الشباب لتعبر عما يلامس آمالهم.

اقترح أحد أصدقاء يونس أن ينضموا إلى المسيرة، وأنهم سيعودون قبل المغرب، ولا حاجة لإخبار الأمهات، اللاتي لا يعتبرنهم رجالا مثل بقية أصدقائهم. نهره يونس بصوت مرتفع، ودون الخوض في مسألة غضب الأم وعصيانها، أخافهم بالرصاص الذي اخترق أجساد ثلاثة من الشباب قبل عشرة أيام في مسيرة داخل العاصمة، كما سمع في التليفزيون، تحديدا في "شارع الزبيري"، وقد يتكرر الأمر الآن. المسموح لهم التظاهر في الساحة وليس خارجها، هذا ما سمعه. شعر بأن ما قاله لم يكن مؤثرا في أصدقائه، لذلك استخدم لغة التهديد من أن الذي سيذهب منهم سيحرمه من البيع يوم الجمعة القادم، وسيخبر أمه لتسلخ جلده بالضرب أفضل من أن يخترق جسده الرصاص.

وصلت الأخبار سريعا إلى الساحة. بدأ المستشفى الميداني في الاستعداد لاستقبال الجرحى. ما حدث للمسيرة من اعتداء سيشل كمال وصبحية عن التفكير. ستخطر على بالهم بشرى وما يكون قد أصابها. أصرت على مرافقة المسيرة. اعتقدت أنه بعد شجب المسيرات السابقة إلى "شارع الزبيري" ووزارة الخارجية واستشهاد ثلاثة شبان لن يتكرر الأمر. ولم يكن معظم من في المسيرة يعرف مسارها باستثناء اللجنة

التنظيمية. ستتوجه صبحية مباشرة للمستشفى، بدأت الحالات في الوصول. أما كمال فسيتوجه للبحث عن بشرى في المسيرة وتقديم المساعدة في إسعاف الجرحى. لم تعتقد صبحية أن يوم "جمعة الكرامة" قد يتكرر. أمسكت على رأسها حتى لا تصاب بالجنون لهول ما تراه في تلك اللحظة من توافد الجثث والجرحى.

مهدي يرقبهما عن بعد، ولا يعرف كيف يمكنه أن يقدم المساعدة. الألم يعتصره، لأن ما يحدث أيضا يذكره بما حدث لشقيقه. طلب من أحد المتواجدين إلى جوار عربته إنهاء قلي الكمية المتبقية من بضاعته وتوجه لينظم سير الدراجات النارية التي كانت تحمل الجرحى ذوي الإصابات الخفيفة، فحافظ على خطها خاليا من الناس والتنبيه لتركه خاليا حتى لا يعوق تأخير وصول الجرحى. وأحيانا يسبق سيارات الإسعاف للسبب ذاته. المساحة الضيقة التي صارت عليها شوارع الساحة جعلت مما يقوم به أصحاب الدراجات النارية من سرعة في إيصال الجرحى أمرا حيويا ومنقذا لحالات كثيرة.

ولت خيوط شمس صنعاء الذهبية الأدبار حزينة، وأسدل الليل ظلامه على المدينة كمدا على من غابت روحه، ورأفة بأم سترى الدم القاني في جسد ابنها ظلا لحرقتها ستزول مع أول خيوط الصباح. وحده الليل قادر على أن يمنح الوهم والحقيقة معا.

ستنتهي حصيلة يوم القتل المجاني بثلاثة عشر شهيدا وأكثر من مائتي جريح. سيصبح لدى الأحزاب اليوم ذريعة لإذلال النظام، ومشاركة جُرمه للعالم بدماء هؤلاء الشباب. ليس لديهم متسع من صبر يملكه الشباب، ويسعون بكل ما أوتوا من قوة لتسوية سياسية؛ لكن سيرا على دماء الشهداء.

●●●

(١٦)

بشرى تحكي لكمال وصبحية بحرقة طافحة من القلب والوجه معا ما حدث لها:

- كنت في انتظار المسيرة بداية شارع الرباط من جهة شارع الستين، كما أعلن عنها في المنصة، ولما تأخرت تواصلت مع أحد الزملاء ليخبرني أن خط سيرها قد تغير. أخذت حافلة وحاولت اللحاق بها. وقبل وصولي كانت مؤخرة المسيرة قد بدأت في التقهقر وسمعت دوي سيارات الإسعاف وعندما سألت قيل إن الأمن والبلاطجة اعتدوا على الشباب بالرصاص الحي. سألت نفسي حينها: من سمح بتغيير خط سير الشباب؟ ولماذا؟ التحذير من الاقتراب من الأماكن الحكومية كان واضحا من النظام، فلماذا المغامرة بأرواح الشباب؟ لم أستطع حتى العودة إلى الساحة أو إلى المستشفى الميداني للمساعدة أو للتوثيق. شعرت أن قواي خائرة، حتى لو استجمعت قواي فما جدوى ما سأفعله؟ يجب أن أغير طريقة تفكيري، وأنتم معي، يجب أن نناهض كل ما يحدث للشباب! يجب ألا نسمح باستمرار الزج بهم كلقمة سائغة للموت! يجب أن نستمر في إذكاء روح السلمية التي بدأت تواجه بالرصاص الحي، ويمكننا أن نتجنبه. هل تذكرين يا صبحية تأثيرنا عندما قمنا بالمسيرات التي دعونا إليها داخل الساحة عند اعتقال الشباب؟ ألم تكن مؤثرة للجنة التنظيمية والأمنية معا؟ لا بد أن نستمر فيها حفاظا على أرواح الشباب!

نظرت بشرى إلى كمال وشرحت له ما فاته في تلك الأيام. تناولت الكاميرا من على الطاولة وأرته صورا مختلفة من المسيرات، والنتيجة

التي تبعتها من إخراج المعتقلين في سجن "الفرقة الأولى مدرع". أكدت له أن محاضراته إذا لم تكن مؤثرة لتغيير أو تصحيح المسار فلا خير فيها، وأن التنظير إذا لم يُمارس على أرض الواقع فهو عديم الفائدة. وما ينقص الشباب هو التطبيق والعمل باستقلالية حماس الشباب وحرية الفكر والخروج من جناح الأحزاب التي تشعر بل هي متأكدة أن الشباب ليسوا أكثر من مطية لطموحها السياسي ولخلافاتها الحزبية.

ساد الصمت ثلاثتهم وكأنهم يفكرون في ما يجب عليهم فعله، وربما يتساءلون: هل المسيرات المناهضة لتوجه اللجنة التنظيمية إلى الساحة ولعدم تدخل الأحزاب في قراراتها تكفي أم لا؟ هل تأثيرها على الشباب سيخترق ذهنيتهم ويحفزها على التساؤل والتفكير، أم سيعتبرها مغايرة أو أنها ستشق الصف الثوري؛ تلك الكلمة التي جعلت الأغلبية من الثوار تغض الطرف حتى يُنجز الهدف الأسمى: إزالة النظام؟! طلب كمال من بشرى وصبحية التفكير في شيء مرافق أو مصاحب لهذه المسيرات الداخلية يعززها ولا يضعفها، يؤكد أهميتها ويلغي انشقاقها المزعوم عن الخط الثوري. علا صوت صبحية:

- نوثق ونكتب ونحلل ونرصد الانتهاكات والتجاوزات، لمن أراد الاستفادة منها الآن أو تصبح من وثائق الثورة، في الساحة وخارجها، بين ثوارها وثائراتها وأحزابها. سنظل الحلقة الأضعف طالما لم نستخدم حقنا هذا في التوثيق، وسنصبح الحلقة الأقوى إن فعلنا بحيادية وبوطنية وبتجاهل لكل ما قد يُلقى على مهمتنا من قاذورات التخوين أو العمالة للنظام أو لمنظمات المجتمع المدني العالمية. هل ننشئ مؤسسة أو منظمة لهذا الرصد؟

سيجد المقترح قبولا لدى كمال وبشرى، وفي اليوم التالي سيلتقي ثلاثتهم لمناقشة ما توصلوا إليه ومحاولة البدء في وضع النظام الأساسي واللائحة الداخلية لهذه المنظمة.

بعد نقاشهم انضم إليهم مهدي. حياهم بصوت يشوبه الحزن، فبدا فاترا بلا حيوية كعادته معهم. وقال:

- ما وقع أمس للشباب والله حرام! ليش يسرحوا هذه الأماكن وهم عارفين ان الرصاص مراعي لهم؟! من جزع له جزع؛ لكن المهم أنه لا يتكرر. وستر الله كما قالوا ما كانش في خراطيم ماء ولا غازات خانقة وإلا كان العدد أكبر!

أومأت له صبحية برأسها موافقة على ما قاله. فسألها عما طلبه منها، وهل وجدت له محلا لبيع المنتجات اليدوية لنساء "حارة مذبح" و"حارة سوق علي محسن"! ولما أجابت بالنفي، ووعدت بالبحث، غادرهم ليعود لاستكمال عمله؛ لأنه يريد العودة إلى منزله في وقت مبكر.

أصبحت العودة المبكرة غاية مهدي في آخر يومه منذ أن أصبح للعودة طقس خططت له محبوبته حبيبة. بعد صلاة العشاء تدخل منطقة "مذبح" في ليلها الدامس. نادرا ما تكون الشوارع مضاءة. وينشغل سكانها كلٌّ في ليله الخاص، مع ذاته أو مع من حوله. تكون حبيبة في انتظار عودته في حديقة منزلها الصغيرة. يجلسان على الدكة متشابكي الأيدي. تحدثه عن يومها وإنجازها مع نساء "مذبح"، ويخبرها عن يومه وتعبه منذ الصباح حتى يلقاها، فينزاح كل ما في صدره من هموم، وفي جسده من تعب. يتركان الباب مواربا حتى يتسنى له الخروج سريعا في حال سمعا حركة من الداخل أو يقف ليسأل عن شقيقها إذا ما كانت الحركة من الخارج. هذه هي المدينة التي لا تمنح مكانا آمنا لأحبتها ولا

الهدوء لمشاعرهم، ولا السكينة لأرواحهم المحلقة في عالم النشوة. هكذا يتم ابتسار كل الأحلام المُحبة في لقاء بسيط مشوب بالمخاطر، قد يدفع فيه كلاهما ثمنا باهظا بحرمانهما من بعضهما؛ لكنه الحب المغامر الذي لا يقبل الحرمان. وعند اللقاء يكون غدقا بتناقضات الشوق واللهفة مع الخوف والرهبة. صمت الليل ونسمات آخر شهر أبريل المحملة بالخصب، سرى في جسديهما ولم يشعرا إلا وقد تلامست شفاههما بتلقائية، وغابا في ذهول اكتشاف القُبلة الأولى ولذة تيار الرجفة. لم يكن هناك ما يستحق في الحياة أن ينعم بوصف لخليط من مشاعر الفرح والخجل، السعادة والطمأنينة، الدوار والثبات، الدفء والبرد، كدهشة تلك اللحظة، لحظة انفراج الشفاه وتصادم الأسنان وعناق الألسن، وأنّة الوجد، لحظة سماوية خالصة لـ"ويسألونك عن الروح". القُبلة هي الروح التي أمدتهما بالحياة في تلك اللحظة.

دخلت حبيبة منزلها بسلام وسعادة، وأجفل مهدي عينيه لينام سريعا حتى لا تنتهي تلك اللحظة الخالدة. انسحب إلى حُجرته حتى لا يسمع سؤال أمه اليومي عن أخبار شقيقه، ولا يلمح في عيني والده ذلك الشجن للإجابة حتى ولو لم يسأل.

•••

أحلام في الانتظار

(١)

فاجأ كمال صبحية وبشرى عندما وجد مقرا مناسبا لمنظمتهم الحقوقية، التي قرر أن يكون اسمها "رصد". شقة تطل على "ساحة التغيير"، مكونة من قسمين: الأول لمجموعة من صحفيي ومراسلي القنوات الفضائية يضعون فيه كاميراتهم ومستلزمات عملهم من كمبيوتر وطابعات، ويستخدمون فيها شبكة إنترنت للتواصل. والقسم الثاني مقرا لمنظمة "رصد". أسفل المقر وجد كمال محلا صغيرا، فكّر أن يكون لمهدي حتى يستطيع بيع منتجاته.

ها هي أحلام مهدي ويونس أوشكت على أن تتحقق. عملهما المضني طوال الفترة الماضية مكنهما من توفير بعض المال، والمحل الآن لن يساعدهما فقط على تحقيق أمانيهما، بل على تحقيق بعض أماني نساء وأطفال "حارة سوق علي محسن" و"حارة مذبح".

أما أحلام صبحية وكمال فيبدو أن تحقيقها سيطول في ساحة يتخلق فيها من جديد وطن ستكون ولادته متعسرة من رحم الظلم الذي قضى في عتمته زمنا طويلا. فرحت صبحية بمقر منظمتهم؛ لكن ما أسعدها أكثر هو محل مهدي الريمي لذلك رافقته لمعاينة الموقع، وراحت ترقب فرح خطواته أمامها كطفل صغير. فتح مهدي باب المحل ليُفاجَأ بصغر حجمه وكأنه مدخل لمنزل لا يتجاوز عرضه المتر ونصف المتر وطوله متران، تم سقفه بالخشب وتأجيره كمحل على الشارع. بالرغم من ذلك لم يهتم بصغر الحجم، وراح يفكر بصوت عال كيف سيرتب هذه المساحة لتكفي المنتوجات؟ وما هي المواد الرخيصة والمتينة التي يمكن أن تكون

صالحة لدواليب تُعرض فيها البضاعة؟ أومأ برأسه إلى صبحية بموافقته على استئجار المحل. وبتلقائيه شكر كمال على ما قدمه له ولأصدقائه من خدمة. اكتفى كمال بالتبسم في وجهه. استأذنهما وانطلق ليبشر يونس بالخبر السعيد!

سترمق صبحية كمال بنظرات امتنان لاهتمامه بمهدي، وقبل أن تنطق طلب منها أن تتقدمه ليصعدا للمقر، وجدا بشرى منهمكة في كتابة متطلبات الحُجرة والصالة والحمام، من مكتب وطاولة اجتماعات وصالون جلوس، وما يلزم من شاشات الكمبيوتر، وخط إنترنت وبعض الكاميرات.

ولأن كمال أصبح مهتما بكل ما يعني صبحية، نظر قبل خروجهم من الشقة إلى ركن في الصالون وقال:

- هنا ستكون غلاية القهوة ومستلزماتها، حتى تعمل حبيبتي بمزاج عال.

لم تجد صبحية غير ابتسامة خجلى ترد بها عليه، بينما أطلقت بشرى زفرة حسرة ممزوجة بالفرح وهي تقول:

- وأنا لي الله!

●●●

(٢)

يونس ومهدي في مكانهما الأثير أمام ركن المنزل المطل على "سوق علي محسن" الممتدة أمامهما، يناقشان كيف يمكنهما البدء في تأثيث المحل ونقل البضائع إليه. أمل، شقيقة يونس، تمارس هوايتها في

مراقبتهما من نافذة المنزل، ووالدتها إلى جوار شقيقها محمد ترقب الجميع. طلب يونس من مهدي أنه سينتظم في المحل فترة بعد العصر كأنه مع أصدقائه حتى المغرب، ويعود لأمه حتى لا تقلق وأنه لن يخبرها عن المحل رغم أنه لم يعد لخوفها مبرر بعد أن أصبحت الساحة أكثر أمانا مما مضى ولكن هكذا أفضل.

وافق مهدي على مقترح يونس، وهذا يعني أنه سيعتمد على رجل حتى لو كان بعمر يونس الصغير. أما مسؤولية المحل والبضائع فهو الذي سيتحملها كافة مع حبيبة أمام نساء حارة مذبح وسوق علي محسن. لذلك عليه أن يغادر ليبشرها بما بشر به يونس. ألقى تحية المغادرة على أم يونس ومضى. بدا له دعاء أم يونس لهما بالتوفيق ومباركة كل خطواتهما فاتحة خير حتى لو لم تعلم بما في رأسيهما.

مهدي وجد حبيبة كعهدها في انتظاره خلف باب منزلها. شهقت فرحا ببشارة استئجار المحل، ووجدت نفسها تطبع قبلة على خد مهدي الذي ارتبك وراح يتلفت يمينا وشمالا خوفا من عيون قد تكون ترقبهما، دفعها لداخل حوش منزلها الضيق، ودون أن يشعر جرها للجلوس معه على الأرض. لم ينبسا بكلمة لفترة بعدها راحت تهمس في أذنه عما تنويه لإلقاء الحماس في قلوب النساء لزيادة إنتاجهن ومن ثم تطوير هذا الإنتاج وشراء آلات حديثة.

على تلك الدكة الصغيرة التي أمام منزلها يكاد صوتهما في ظلام تلك الليلة لا يُسمع من شدة نباح الكلاب وصرير الحشرات من حولهما. ستصمت حبيبة كما سيصمت مهدي، وسيغيبان في لحظات خدر لذيذة، لا يسمعان فيها غير تلاحق صوت أنفاسهما.

•••

(٣)

جمعة ٦ مايو سيعمل فيها الصغار في "شارع الستين" بحماس كبير بعد أن أخبرهم "مهدي" عن المحل الذي سيحوي بضاعة الجميع لبيعها في "ساحة التغيير". في تلك اللحظة رأى مهدي في عيون الصغار أحلامهم التي تكاثرت حتى كادت تخرج من مآقيهم وتسير أمامهم متراقصة من الفرح، بعدها رنت أبصارهم إلى يونس باحترام، بعد أن اخبرهم مهدي بأنه من الآن سيكون المسؤول عنهم وعن منتجاتهم.

بعد الصلاة كانت بعض البضاعة في أكياسها تنتظر الانتقال إلى مكانها الجديد. حملوها بأيديهم وعبروا طريق الجامعة الرابط بين "ساحة التغيير" و"شارع الستين"، متوجهين إلى المحل. كان "مهدي" قد جهز المحل بالرفوف الخشبية والمعالق اللازمة، فكان من السهل على "يونس" والصغار أن يبدأوا مهمتهم في ترتيب البضاعة. وبينما "يونس" و"مهدي" منهمكين بالترتيب، كان الصغار في ذروة حماسهم لتوقعات ما سيحدث لبضاعتهم. راح كل واحد منهم يقول إن بضاعة أمه ستباع أولا، فهي ماهرة في الحياكة، ويجيب عليه آخر بالنفي وأن الحياكة غير الجيدة يمكن للألوان المبهرة أن تعوضها، خاصة إذا كانت للعلم الجمهوري، الذي تزايد الطلب على اقتنائه أيام الثورة. وحتى يخفف مهدي من هذا الحماس الذي أوشك أن يتحول إلى عراك، شكرهم على المساعدة وطلب منهم العودة إلى منازلهم، وكلف الأكبر منهم سنا بذلك بعد أن ناوله المال الكافي للعودة باستخدام الباص إلى منطقتي "مذبح" و"سوق علي محسن".

سرعة تجهيز المحل فاجأ صبحية، التي كانت مارة في طريقها إلى الكافتيريا. ألقت التحية على يونس ومهدي وقالت:

- فعلا إن تحقيق الأحلام لا يحتاج إلا إلى مثابرة خيباتها نادرة. ما فعلتماه حفزني لمشروعي الحقوقي الذي يجب ألا يتأخر.

(٤)

لم يعتذر يونس لصاحب محل بيع الدجاج عن عدم استمراره في عمله. شعر بأن معاملته القاسية له تستحق أن يرد عليها بالتخلي عنه دون استئذان. لم يخطر في باله أنه سيسأل عنه لدى والدته التي هلعت من عتابه عن غياب يونس. أمسكت برأسها وراحت تولول على ابنها الذي لا تعرف أين يذهب؛ فهو يخرج ويعود في الوقت المحدد! لذلك لم تجد ما ترد به على سؤال صاحب المحل، الذي تركها غارقة في خوفها وترقبها وقلقها على يونس. شيء ما في أعماقها كان يخبرها بذهابه إلى "ساحة التغيير". حدس لديها لا يخيب عن الفقد الذي يجعلك وحيدا من الداخل، كما حدث لزوجها عندما ودعها ورحل وهي تشعر بأنها لن تراه مرة أخرى. ليس لديها الآن سوى انتظار عودة يونس ومعرفة ما أخفاه عنها.

لا يمكن للساحة، والحماس الناضح منها برغبة التغيير للأفضل من قِبل الثوار، إلا أن تكون عدوى نافعة لكل من دخلها، ودعوة إلى التمرد على واقع يزداد فيه الشعور بالظلم والقهر كل يوم. شعر يونس بحاجته إلى التمرد لتحقيق حلمه بعد أن فقد والده ومدرسته ولم يعد له غير حلم يتشبث به لينال حياة تلائم متطلبات والدته وشقيقيه. لهذا أخفى على

والدته ما يفعله، ليتجنب عتابها، ولشعوره بأنها لن تفهمه مهما شرح لها عبث ما يعتريه في هذه الفترة من تفكير في حياته وحياة والده، التي فقدها دون أن يعلم لماذا!

يمر يونس بمرحلة تحول في تفكيره لا يعرف كيف يمكنه التعبير عنها لوالدته ولمهدي، والأكثر صعوبة كيف يستطيع إقناعهما أن هناك ما يغزو كيانه من مشاعر متناقضه لهم يمر بها للمرة الأولى، ويحاول من خلالها الإجابة على أسئلة لم يكن ليفكر فيها أو كانت صعوبة الإجابة عليها تُلجمه عن الرد حتى لو بينه وبين نفسه. .لقد داهمه وميض مذهل في أعماقه يرى من سطوعه جوابا لكل أسئلة العالم وذلك بجملة واحدة: أنا أريد ذلك، وسأفعله! هل هذا يكفي ليرد به على خوف أمه وقلق صديقه. ربما.

واجه يونس والدته كرجل يعرف ما يريد، أخبرها أنه يعمل في ساحة التغيير ليحقق حلمه، أقنعها بأن الساحة أصبحت مكانا آمنا ولا داعي لمخاوفها، والأهم من هذا كله أنه أصبح رجلا حرا يمتلك قراره بيده، ويستطيع كسب عيشه بعرق جبينه دون التعرض لإهانات الغير. ولأن أمه تدرك أن هذه المرحلة كانت ستأتي لا محالة، وأن ما كانت تفعله بصرامتها هو تأجيلها فقط، أنصتت له بهدوء وإذعان للقدر.

●●●

(٥)

بينما صبحية وكمال في غمرة انشغالهما بالنقاش حول استكمال تجهيز المنظمة الحقوقية في الكافيتريا، حدث ما لم يكونا يتوقعانه في

يوم كان نذير شؤم حتى لو لم يكن فيه بومة متدلية على رأسها طوال الليل. إنه الحادي عشر من مايو. سمعت صبحية وكمال وبشرى دوي سيارة الإسعاف بعد صلاة العصر. اندهش ثلاثتهم؛ لأنه لم يكن هناك أي خبر عن مسيرة؛ فمن يكون في هذه السيارة؟ انطلقوا إلى المستشفى الميداني الذي كان يموج بالحركة، وتتركز في أركان الساحة الخارجية له جماعات متفرقة تتحدث بصوت عال. أمام الساحة المغطاة كان هناك نساء يلتففن حول سيدة متوسطة القامة، ترتدي البالطو الأسود وتضع رداء أزرق على رأسها، قيل بأنها "توكل كرمان"، إحدى الثائرات والمؤثرات في الساحة. بدا أنهن يرجونها عدم الخروج مجددا في المسيرة التي سقط فيها حتى الآن شهيد وبعض الجرحى. بدا على "توكل" التوتر والقلق. وصبحية تنظر إليها من بعيد محاولة تفسير اقترابها من مدخل قاعة جرحى المسيرة والنظر إليهم مشدوهاً تام قبل انطلاقها خارج الساحة يتبعنها من اعتقدت صبحية أنهن أمهات، من خلال ما يرتدينه من ملابس، كما تبعها بعض الشباب.

التقطت صبحية أطراف الحديث من حولها، سألت وعرفت ما دار في هذه المسيرة المشؤومة. قيل لها إن مجموعة من الشباب الذي أعياه الانتظار في الساحة قرر السير نحو رئاسة الوزراء، في محاولة منه لحسم الثورة على طريقته في أن يلفت الانتباه لمطلبهم الذي لم يحيدوا عنه منذ بداية الثورة: دولة مدنية حديثة.

تلقف حماسَهم رصاصُ جنود الحراسة، فتوفي أحدهم في الحال، وجُرح البعض، وعادوا أدراجهم إلى الساحة. لم تُرض النتيجة تلك من عاد ليبث في نفوسهم الحماس مرة أخرى للعودة متجاهلا صغر سنهم وقلة خبرتهم. اجتمعوا من جديد وعاودوا المسيرة. كانت أصوات المنصة

تحذرهم من ذلك الحماس المفرط وغير المدروس للحسم، والذي سيعرض حياتهم للخطر كما عرض حياة من سبقهم، وتطلب منهم العودة وعدم الخروج من الساحة؛ لكن حلمهم بذلك الوطن أصبح غير قادر على الانتظار؛ كرصاص الجنود غير القادر على الانتظار أيضا، فانطلق في الهواء قبل أن يوجه مباشرة إلى صدور الشباب، ليُلقي في نفوسهم مزيجا من الارتباك والهلع وهم يرون أجساد أصدقائهم تهوي على الأرض مضرجة بدمائها. تفرقوا، اتجهوا للاحتماء من وابل الرصاص باتجاه الأزقة المحيطة بهم، فُتحت لهم بعض المنازل لإخفائهم من المطاردة إذ أصر رجال الأمن على اعتقالهم.

تسربت إلى الساحة ببطء غازات سامة، عبر فتحات الصرف الصحي، التي عبئت بكميات كبيرة منها. تلبدت سماء الساحة بالغيوم السامة. بدأت الاختناقات تظهر على بعض من في الساحة، فسارع البعض لشراء كمامات، واستخدام القطن المبلل بالماء وشم بعض البصل. هرع كمال لشراء كمامات له ولصبحية وبشرى، بعد أن بدأ ثلاثتهم في السعال الشديد وعدم القدرة على التنفس. وضعت صبحية كمامة على أنفها واتجهت إلى المستشفى الميداني. هالها ما رأت: اختناقات كثيرة، إغماءات تجاوزت العشرات، عدد القتلى يتزايد. وجمت وتذكرت "جمعة الكرامة". كاد يغشى عليها، لولا كمال الذي وجدته إلى جوارها مادا لها ببعض الماء. طلب منها الدخول لترتيب استقبال الجرحى وهو سيبقى في إسعاف المختنقين. بشرى مشغولة بالتصوير، تحميها كمامة وضعتها على أنفها. ربما كانت هذه هي الانطلاقة الحقيقية لمنظمتهم الحقوقية في رصد وتوثيق ما حدث لهؤلاء الأبرياء من الجهتين: النظام الفاسد، واللجنة التنظيمية للساحة التي لم تستطع

حماية خروجهم. وهكذا تحول المستشفى الميداني إلى خلية ضاجة بالموت من كل الجهات.

أصعب ما واجهته صبحية هو إرشاد حاملي الجثث الهامدة إلا من تدفق الدم من أرجائها لمكانها، كانت تتمتم بكلمات لم تتجاوز شفتيها، لكن ملامحها تقول إنها عبارات غضب عارم ولعنات ثكلى بالحزن والدموع. وفي غمرة انشغالها باستقبال حالات إسعاف جرحى وترتيب دخولهم حسب خطورة الحالة، سمعت صوتا يناديها، التفتت فإذا به مهدي. اقتربت منه وإذا به من شدة قلقه لم يعرف ما يقول لها. هدأته بصبر انتظارها، اغرورقت عيناه بالدموع وتشابكت يداه حينا خلف ظهره وحينا أمام وجهه، وقال لها إن يونس أقفل المحل وذهب مع المسيرة، وإنه لم يعد حتى الآن! وأردف: أن يونس أبدى له منذ أيام رغبته بالمشاركة في مسيرات الشباب لأنها الوسيلة الوحيدة التي سينتقم بها من النظام لمقتل والده في حرب أجبرته الحاجة على المشاركة فيها، وحرموا هو وشقيقاه منه إلى الأبد. قال إنه يكره نظام صالح لأنه لم يعطه شيئا، وأعطى غيره كل شيء. قال إن تحقيق حلم امتلاك محل لبيع الدجاج كان من أجل أمه وشقيقه المعاق وشقيقته، أما هو فلا يريد غير أن ينتقم من قاتل والده، وبهذا سيرتاح ويريح أمه، التي خنقت حركته وحريته بخوفها عليه وخشيتها من أن تفقده.

وجم مهدي قليلا لا يعرف فيم يفكر وأكمل:

أقفل يونس المحل وناول جاره المفتاح ليعطيني إياه وقال له إنه سيعود بعد المسيرة إذا جئت وسألت عنه. وها هي المسيرة قد انتهت كما ترين ولم يعد، وليس من بين كل هؤلاء الجرحى، فأين يكون؟ سألها بتوجس إن كانت قد رأته بين الشهداء؟ ورجاها أن تخبره ولا تخفي

الأمر عليه وأجهش بالبكاء كطفل، فقد باغتته ذاكرته وأعادته لتلك الجمعة التي فقد فيها شقيقه. هجمت عليه أسئلة أمه ونظرات أبيه. مسح دموعه وقال لصبحية إنه يرى شقيقه مادا ذراعيه لاستقبال الأرواح التي تصعد إليه في تلك اللحظة قبل أن يشبك يديه ويضعهما على رأسه. جلس مشدوها على الأرض بعد أن شعر بأن صبحية لا تملك إجابات عن كل أسئلته، وليس عليه وعليها سوى الانتظار بعد أن أكدت له أن يونس ليس من ضمن الشهداء الذين وصلوا، وقد أكدوا لها أنهم قد أحضروا كل الشهداء وما زال هناك بعض الجرحى. بعد تأكيد صبحية فزَّ مهدي من مكانه كمن لدغته حية وقرر أن يخرج للبحث عن يونس، أومأت له صبحية بتحريك رأسها موافقة على خروجه للبحث مجددا.

دوي سيارات الإسعاف مستمر. بدأت المواد التي احتاجها المستشفى الميداني في التدفق: ملابس للمصابين، بطانيات، أدوية، ماء. وبدأ بعض الشباب في ترتيب الحركة وعدم السماح لمن ليس له مهمة داخل الساحة والمستشفى بالدخول. بدأت بعض حالات الاختناق في التعافي فخف زحام الساحة الخارجية والاهتمام بالجرحى.

ظلت صبحية متسمرة في مكانها. ألم ما يحدث أمامها جعل قواها تخور. رافقت نظراتها مهدي حتى خرج من الباب المخصص للمشاة وهرعت لاستقبال سيارة الإسعاف التي دخلت من البوابة الأخرى. اقتربت من السيارة، وُضع الجريح في النقالة وهي تتحاشي النظر إليه وتنتظر توضيحاً لحالته لتضعه في مكانه المناسب. "شهيد" هكذا أخبرها الطبيب. تقدمت تُرشد عن مكان وضعه يتبعها اثنان يحملان الجثة، سمعتهما يهللان بصوت حزين ويهمسان بحرقة عن إجرام من طاوعته يده ليطلق رصاصته القاتلة على صدر هذا الصغير؟ أثار همسهما الذي

سمعته قلقها وفضولها معا، وضعاه في المكان الذي دلتهما عليه، رفع أحدهما غطاء وجه الجثة، أطلقت صبحية صرخة مدوية أثارت انتباه من حولها، ولم تصدق ما رأته. كان "يونس"!

ربطة العلم الجمهوري على رأسه لم تتحرك مضمخة بالدماء، وثيابه لم تعد تُعرف من شدة تعفُّرها بالتراب، أجزاؤها الممزقة حول الركبتين والذراعين؛ تشي عن احتكاكها على الأسفلت! رنت صبحية مستغيثة ببصرها للخارج عل مهدي ما زال في الانتظار، لكنها لم تجده. رددت في أعماقها: "ربما من الأفضل أنه غادر! لم يكن ليتحمل صدمة وفاة صديقه. يكفيه ما حدث لأخيه!".

أخبرها الطبيب المسعف بأن يونس فارق الحياة حال اختراق الرصاصة رأسه، وأنه ظل فترة مُلقى على الأرض ولم يستطع الشباب إسعافه، نتيجة كثافة الرصاص وإصرار الجنود على استمرار قنص المسعفين؛ لذلك تم سحبه بحبل علق في يده بعد محاولات عديدة. طمت كلمة "فارق الحياة" على حواس صبحية. ربما في هذه اللحظة استوعبت وفاة يونس ليصبح الشهيد الحادي عشر في مسيرة الموت تلك.

تُرى كيف حال ذلك الجندي الذي أطلق رصاصته الآثمة لتخترق رأس يونس؟ هل يشعر بالذنب؟ هل سينجو من نظرة يونس الأخيرة عليه قبل أن يخر صريعا على الأسفلت؟ هل يستطيع أن يمحو من ذاكرته وابل الدم الذي تدفق من رأس الصغير؟ هل سمع صرخة يونس وصرخة من أمعن في إيذائهم؟ أم أن تلك الصرخة التي لم تصله ستظل تلاحقه كلعنة أبدية تستوطن حياته، وتقوض أمنه وسعادته لتغدو جحيما؟

انتحت صبحية جانبا، تزدرد غصة حارقة تسد حلقها، وخلف ظهرها أجساد من لقوا حتوفهم للتو. لا تزال دماؤهم خضراء، تُخضب ملابسهم

التي كانت قبل بضع سويعات أنيقة تزدهي بشباب خرجوا لإحداث التغيير السلمي، تقودُهم فكرة أنهم يحملون على عاتقهم مهمة تغيير مجرى التاريخ. كانت جثامين الشباب تُلقي بابتسامات الرضا نحو السماء، فتجلت أرواحهم تسبح في فضاء الخلود.

(صنعاء، ٢٠١٤ - ٢٠١٦)

روايات الهلال

سوق علي محسن

نادية الكوكباني

«تتحول نساء المناطق الفقيرة والقريبة من «الستين» و«السبعين» إلى مبدعات ومبتكرات في صناعة ونسج وتطريز العلم الوطني. قد لا يكون للفقراء اهتمام بشأن الثورة أو التغيير، أو غير معنيين بما يدور في كلا الميدانين؛ لكنهم معنيون بلقمة العيش لأولادهم. يختبئ في عقل كل منهم حلم يسعى لتحقيقه، وحلم آخر يتمنى لو يتحقق له من السماء».

هكذا انخرط الشعب اليمني في الثورة.. أرامل قتل أزواجهن في حرب ظالمة، ويتامى تسربوا من المدارس وصاروا قبل الأوان رجالا يعولون أسرهم، ومثقفون وعشاق للحياة يزرعون الأمل، ويعدون الناس بغد أكثر عدلا. من أمام جامعة صنعاء اندلعت شرارة الثورة السلمية الشعبية، ولخصت «ساحة التغيير» أحلام الخلاص، وكانت أعلى تمثيلات الحالة اليمنية في الشوق إلى الحرية، بحضور فاعل لنساء يحلمن بالتغيير، ويشاركن الرجال بندية في الثورة، قبل عسكرتها وسيطرة الأحزاب، لتكتسي المسيرات باللون الأسود.

«سوق علي محسن»، رواية في الوجع الإنساني «في» الثورة اليمنية، جدارية للوقود البشري للثورة، رسمت بألوان لا تخلو من الأحمر الدامي.





كاتبة يمنية وأستاذة جامعية في الهندسة المعمارية. لها خمس مجموعات قصصية: «زفرة ياسمين»، «دحرجات»، «تقشر غيم»، «نصف أنف.. شفة واحدة»، «عادة ليست سرية». وثلاث روايات: «عقيلات» و«صنعائي» و«حب ليس إلا» التي ترجمت للإيطالية. وترجم فصل منها للإنجليزية في مجلة «بانيبال». وترجمت قصصها إلى الإنجليزية والفرنسية والإيطالية والألمانية.

فازت بجائزة القصة القصيرة في اليمن والكويت. وشاركت في الكثير من الأنشطة الأدبية والعلمية داخل اليمن وخارجه.

نادية الكوكباني